

صالح مرسى



لنظامنا

كريم الحاج

هذه اللقطة

سامية فهي، هذه الفتاة ذات الكبرياء الخاص والعاطفة المتأججة والذكاء اللامع، أحبت بكل عذباتها شاباً طموحاً وواجهت رفض الأسرة وفشل حبيبها بإصرار على الوقوف بجانب الحبيب حتى يحقق النجاح... والشاب الطموح يسافر إلى أوروبا بحثاً عن الثروة والنجاح فيسقط في براثن أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا... ويلتقي الحبيبان ومظاهر النجاح بأدب على الحبيب. وفي غمرة فرح سامية فهي بتجاذب الحبيب تلحظ في سلوكه ما يريب، ويساورها الشك في علاقات الحبيب عندما يحاول استدراجها ليجتدها في شبكة التجسس الإسرائيلية...

وتواجه سامية فهي أخطر صراع... لكنها لا تنسرد لحظة في الاختيار، فالأمر يتعلق بالحب الأكبر... بالوطن... بمصر، مصر التي تعيش في كل ذرة من كيانها... وتحمل سامية فهي شكوكها إلى رجال المخابرات المصرية وتكتشف أنهم يملكون الكثير عن هذا الحبيب الخائن وأنهم يتبعونه لكشف الشبكة الإسرائيلية الخطيرة... وتصير سامية فهي أن تشارك في أخطر صراع ضد المخابرات الإسرائيلية وضد حبيبها وخطيبها - الخائن - وتوقع بالخائن وتكشف أخطر شبكة تجسس إسرائيلية بعد صراع مرير تحفه المخاطر الرهيبة في كل لحظة... وعندما تتابع - عزيزي القارئ - مع قلم الكاتب الكبير صالح مرسى الصراع المريب لسامية فهي فسوف تحس بالشموخ كمصري وكعربي لأن الأمة العربية تنجب مثل هذه الفتاة سامية فهي

مكتبة مدبولي الصغير

ميدان سفتكس - المهندسين

MADBOULY  
EL - SAGHIR  
Mohandissin



الجزء الأول

مِنْ مَلَفَاتِ  
الْمَخَابِرَاتِ الْمَصْرِيَّةِ

# أَعْنَفُ صِرَاعٍ بَيْنَ الْعَاطِفَةِ وَالْوَاجِبِ

سَامِيَّةُ فَهْمِيَّةٌ

سَأَلَتْ خَطِيبَهَا - الْخَائِنَ - لِلْمَخَابِرَاتِ الْمَصْرِيَّةِ  
وَكَشَفَتْ أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا

صَالِحُ مَرْيَمَ



القاهرة



الى الجيل الجديد

عساہ اُنے یجد فی جیلنا بعضاً من اُہلہ !



حق الطبع محفوظة لمكتبة مندوبولي الصغير

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



مكتبة مندوبولي الصغير - ميدان سفنكس - المهندسين - القاهرة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عزيزي القارىء .

استطاعت الدعاية الصهيونية أن تزرع اليأس في نفس الإنسان العربي وفكره بواسطة الإعلام المزيف والأخبار الملفقة . وصوّرت له رجل المخابرات بأنه لا يقهر وأنه الوحيد الجدير بحكم الأرض ومن عليها .

وكانت رواية « الحفار » لتكشف عن أصالة الإنسان المصري ، بحضارته وتراثه وإيمانه ، وأنه قادر على تحقيق النصر على الصهاينة . وجاءت رائعة الأستاذ صالح مرسى « رأفت الهجان » لتصب في المجري عينه ، ولتثبت هشاشة الادعاء المزيف الإسرائيلي .

وها نحن - عزيزي القارىء - نضع بين يديك رواية تشكل إسفيناً آخر في صرح العدو ، إسفيناً يهدم أسطورة التفوق المزعوم .

« سامية فهمي » اسم قد لا يعني لك في البداية أية أهمية تذكر ، لكنها سوف تهز مشاعرك ، من خلال واقعة مثيرة . فقد عاشت أحداثها وتفاصيلها بكل لحظاتها ، بل كانت محور الحدث ونواته .

صراع بين واجبها الوطني وبين حبها الدفين . حبها الذي ملأ كيائها وعاشت من أجله ، وواجبها الوطني الذي لا حياة لها بدونه وقد ترعرع ونشأ مع كل نسمة من نسوماتها وكل ذرة من كيائها . وبدون تردد ترجح كفة الوطن الغالي الحبيب .



ما هي « سامية فهمي » تكتشف خيانة خطيبها وحبيبها ، وتتجه إلى رجال المخابرات المصرية لتجد أنهم يعلمون تفاصيل كثيرة ، وأنهم ساهرون على أمن الوطن وسلامته تمد يدها لهم لتساهم بدورها في واجب حماية الوطن والإنسان ، ترمي عواطفها جانباً ، تسلم خطيبها للمخابرات المصرية ، تكشف عن أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا .

خدعت « الموساد » التي عملت وتعمل للقضاء على الفكر والأخلاق ، والتي دمرت حياة الكثير من الشباب مستخدمة كل الوسائل .

كيف حدث هذا ؟ وما هي التفاصيل ؟ وكيف استطاعت « سامية فهمي » من القيام بواجبها تجاه أهلها ووطنها ؟ . . .

هذا ما ستعرفه - عزيزي القارئ - عند مطالعتك هذه الرواية ، وسترافق أحداثها وتعيش أخطر وأعنف صراع بين الحب والواجب ، وأترك بين يديك دليلاً آخر على وهن العدو ، وأن الإنسان العربي رمز للبطولة والفداء .

محمد مدبولي

## الفصل الأول

### صباح يوم خائف

« المخابرات من فضلك يا أسطى ! »

رماها سائق التاكسي بنظرة هي مزيج من الغضب والدهشة والإحتجاج . . . ولم تأبه لنظراته ، دلفت إلى التاكسي وكانت تعلم أنها وضعت الرجل في موقف لا يستطيع التراجع عنه . . . اندفعت السيارة تخترق شوارع حي جاردن سيتي في سرعة عصبية . . . تتمتع الرجل بصوت مسموع وهو يفر :

« يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم ! »

« معلى ، حقك علي ! ! »

هكذا قالت معتذرة فرماها الرجل ، في مرآة السيارة المعلقة أمامه ، بنظرة تحمل ألف سؤال ، لكنها لزمت الصمت ، وكانت تعذره . . . هي نفسها أصيبت بما يشبه الشلل عندما قال لها « أحمد مختار » إن لديها موعداً في « المخابرات » في التاسعة صباحاً ، هتفت في محاولة فاشلة لاستجلاب المرح :

« تسعة الصبح ؟! . . . ومين اللي حا يصحى لهم بدري كدة ؟! »

« لازم تصحى يا سامية ! »

كانت الجملة واضحة . . . وكانت أيضاً صارمة !

« فيه حاجة يا أستاذ أحمد ؟! »

« عارفة مبنى المخابرات فين ؟! »

أيقنت أنه يهرب من الإجابة . . . هكذا هو منذ أن جاءهم رئيساً للتحرير ،

يقود الحوار والحديث كريان يعرف مسالك سفينته ، سمعت عن حياته الكثير ، ضابط سابق وفدائي تحدثت عنه مدن القناة وعرفته معسكرات الإنجليز قبل الثورة ... تبدو حياته وكأنها طوابق متتالية من الطلاسم ... لم تكن تحبه كثيراً فلقد كان غموضه يؤرقها ، لكنها كانت تحترمه دائماً ، وأعجبت به أحياناً ... عندما اقتربت منه قليلاً بعد شهور قضاها معهم في المجلة ، أذهلها أنه يعرف عن العمل الصحفي أكثر مما تصورت وأكثر مما أشيع عنه ... أعجب ما كان فيه أنه لم يكن من هذا النوع من الضباط الذين يشعرون أنهم امتلكوا ناصية الأمور ، كان يعطي لعمله كل وقته ... خافت الصوت هو ، رقيق البدن ، هامس الملامح ، متبتل في حب هذا البلد !

عندما عادت بما عادت به من الخارج وعندما تصاعدت شكوكها يوماً بعد يوم ... كان هو أول من سألها عما بها ، لم تكن تراه أو تلتقي به خارج المجلة ... في لحظات اليأس القاتل والحيرة المدمرة ، كانت تشعر وكأن نظراته تنفذ إلى نخاعها ... هل كان يعرف شيئاً ؟ ... هو لم يطلب منها أن تحكي له أو تقص عليه ما حدث في الخارج أو ماذا فعلت . لكنه كان الوحيد الذي تحدثت عيناه بمعرفة غامضة ... وعندما سدت أمامها كل الطرق ، وعندما قررت أن تواجه الأمر بوضوح ، بحثت حولها فلم تجد سواه ... حتى « فريد السباعي » زميلها وصديقها ومدير تحريرها ورئيسها المباشر ، فريد الذي لم يُخَفِ عنها حبه وغرامه وقبل منها كل شيء في صمت وتفهم ... فريد نفسه لم يصل إليها ، فقط ... كان يبدو حزيناً لما انتابها من سهوم وشحوب .

حتى جاءت ليلة جفاها النوم ، أرقها أمرها وعذبها ، فلم تجد إلا أن ترفع سماعة التليفون - وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل - وتطلب أحمد مختار في البيت !

كان صوته صاحياً متنبهاً ، وعندما طلبت منه موعداً ، تعالت على الطرف الآخر ضحكته :

« إنت محتاجة تطلبي مني ميعاد يا سامية ؟ »  
« أبوه ... لأنني مش عاوزة أشوفك في المجلة ؟ »

مرت لحظة صمت خاطفة ، قال بعدها :

« طيب إيه رأيك لو فطرنا سوا بكره ! »

« فين ؟ »

« في البيت عندي ؟ »

... ..

... ..

في الصباح ذهبت إليه ، كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها بيت رئيس التحرير ، استقبلتها زوجته في ترحاب غير مصطنع ، كانت هذه هي المرة الثانية التي تلتقي فيها بـ « وفيه حسين » ، قالت لها مداعبة وهي تحاول أن تنصنع مرحاً جافاً منذ أسابيع !

« لسة رأيي يا مدام وفيه إنك أجمل فتانة تشكيلية في مصر ! »

وضحك ثلاثتهم ، ووضع الافطار فتناولوه في الشرفة المطلة على النيل ، اعتذرت الزوجة وهي تتركها لموعد أرف .. أصبحتا وحدهما ولم تكن تعرف من أين تبدأ ولا كيف . وضعت الخادمة بينهما فنجانين من القهوة وانسحبت فسألها أحمد مختار :

« مالك يا سامية ؟ »

نفس السؤال البسيط الذي قد يصدر من أي إنسان فتجد له الجواب على الفور ... لكنه إذا ما صدر من أحمد مختار ، حمل معاني كثيرة .. هتفت :

« أستاذ أحمد ... إنت ليه ما شتغلش في الخارجية ؟ »

أطلق مختار ضحكة صافية ، ضحكته هذه هي سر جاذبيته حتى للذين يكرهونه ، دفعت الضحكة بالإبتسامة إلى شفيتها رغم ما كانت تعانيه ... سألتها :

« هو ده اللي إنت عاوزة تكلميني فيه ؟ »

« لا !! »

في تلك الشرفة التي تطل على النيل قصت عليه ما حدث باختصار ...

« سامية ! » .

كانت المجلة هي ملاذها وبيتها وأملها وحبها كانوا جميعاً يلجأون إليها في المساء كالصباح ، كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء فأحست أن دمائها تفيض من جسدها ، سرت فيها رعدة واجتاحتها برودة شديدة ، كابوس هذا الذي يجثم على صدرها ، رفعت إليه رأسها فضحك متسائلاً :

« مالك !؟ » .

كانت نظرتة الآن تشي بأنه يعرف كل ما يعمل في نفسها . . . عادت تغوص في تلك اللجة الرهيبة من الأفكار التي كانت تتقاذفها كأنها قشة تدفعها مياه شلال هادر .

« أنا بأسألك إن كنت عارفه مبنى المخبرات فين !؟ » .  
أخيراً وجدت صوتها :

« في القبة . . . مش كده !؟ » .

« أول ما توصلي ، إسألني على السيد عادل مكى ! »  
كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها اسم « عادل مكى » . . . جاءها الاسم من بعيد وكأنه يصدر من قاع بئر سحيقة . . . رددت الاسم كي تتأكد من صحته .

« عادل مكى !؟ » .

« بكرة الساعة تسعة بالضبط حتلاقيه في انتظارك ! »  
ونهضت !!

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال . . . أدركت أنها كانت على حق في شكوكها ، ولأ لما طلب منها مختار أن تذهب إلى المخبرات .

« مالك يا سامية ! »

« فيه حاجة يا أستاذ أحمد ! »

هم بالحديث فأردفت :

« أرجوك ماتخبيش علي ! »

قالت له إنها تريد أن تفضفض فلزم الصمت وراحت هي تحكي . . . كان أحمد مختار يعرف عن حياتها ما يعرفه كل الزملاء ، راح يستمع إليها وفي عينيه نظرة حنان لا تخطئها العين . . . اضطربت وهي تحكي ، تركت لضعفها العنان فدمعت عينها ولم يعلق بشيء . . . ولم تختف إبتسامته . . . وعندما انتهت من حكايتها ، سألها :

« لكن إيه اللي يخليكي تُشكي !؟ »

انفجرت دموعها رغماً عنها وكأنها كانت عند أبواب الجفون في انتظار الإذن ، قالت :

« أصل البلد صعبانة علي !! »

ورأت الدمع في عيني مختار ، دمعاً تصاعد في عنف ثم تحجر كزجاج كسا المقلتين . . . أشعل سيجارة كي يخفي ما اعتراه فسألته :

« تفتكر فيه حاجة يا أستاذ أحمد !؟ »

« كلنا تعبانين من النكسة يا سامية ، لكن الحساسية الزائدة مش مطلوبة ! »  
تنفست الصعداء ، تشبث بكلماته التي خالت أنها تبعد عنها شيئاً يؤرقها منذ عادت من الخارج . . . لكنه أردف بعد لحظات :

« على العموم أنا لي واحد صاحبي يفهم في الحاجات دي ! »

هكذا انتهى الأمر . لم يذكر لها من هو صديقه هذا ولا ما هو عمله ولا ماذا سيفعل معه أو يقول له . . . ولقد أدركت أن الأمر انتهى عند هذا الحد فأنصرفت . . . وها هو ، بعد أقل من إثنتي عشرة ساعة ، يطلب منها أن تذهب إلى المخبرات !!

لاذت بالصمت ، وكانت تجلس إليه في غرفة مكتبه ، وراح قلبها يركض بعنف :

« عارفه مبنى المخبرات فين !؟ »

حاولت أن ترد لكنها لم تستطع !

ما كاد يفتح فمه بالرد حتى توسلت :

« إذا كان فيه حاجة قول لي !! » .

قال مختار وهو يميل نحوها :

« تفتكري إنه حتى لو كان فيه حاجة حايقول لي ؟! »

« ليه لا ؟! »

وأطلق مختار ضحكة عالية وكأنها قالت نكتة ... لم تضحك معه ولم

تبسم فعاد يقول :

« عادل دفعني وصاحبي ، روحي له وإنّ حاترتاحي خالص ! »

هذه المرة ، أحست أن كلماته مبتسرة ، وملامحه لا تحمل أي تعبير ، وعلى شفثيه ارتسمت ابتسامة بلا معنى ... أيقنت - مرة أخرى - أن شكوكها قد أصابت ، وأن الطامة قد وقعت ، وأن الدنيا تدير لها وجهها البشع !!

غادرت مقعدها أمام مكتبه فأحست أن ساقها لا تقويان على حملها ... قبل أن تصل إلى الباب ضاعت منها أنفاسها ، وتخاذلت ركبتيها فترنحت وكادت تسقط فاندفع إليها مختار من خلف مكتبه هاتفاً :

« سامية ! »

عندما قبضت يده على ذراعها كي يقلبها من عثرتها أحست - لأول مرة - أنه يملك قوة غريبة لا يبنى عنها جسده الدقيق هذا ... جاءها صوته خافتاً ذا جرس أنكرته .

« المفروض إنك تمالككي نفسك ! »

نظرت إليه بعينين تائهتين فأردف في حسم .

« والمفروض إن محدش يعرف أي حاجة عن الموضوع ده بتأتا !! » .

وجاء صوتها مغموساً في الدمع والضعف :

« ما هو محدش يعرف يا أستاذ أحمد ! »

في صرامة قاطعة قال :

« ولا حتى ماما ! » .

« حاضر !! » .

\* \* \*

لم تكن سامية فهمي من هذا النوع من الناس الذين يصابون بالذعر لمجرد ذكر اسم « المخابرات » ... كانت مقتنعة - رغم ما قيل في العام الماضي عن سقوط دولة المخابرات - بأن رجال الأمن لا يستطيعون التعرض إلا لهؤلاء الذين يرتكبون جرائم في حق المجتمع ... وكانت دائماً تقول - إذا ما حذروها من سلطة لسانها وعنف حديثها - إن « اللي على رأسه بطحة يحس عليها !! » ... هي ترى أن الإستقامة ليست كلاماً ، ولكنها أولاً وأخيراً سلوك يلتزم به الإنسان حيال وطنه وأمه ... عندما اختارها عضواً بالتنظيم الطليعي ، وعندما جلست مع سمير وفخري ومحمود وعليه في أول اجتماع تحضره ، سألت فخري جمعة ، وكان هو مسؤول المجموعة :

« طب إنتو عاملين التنظيم ده سري ليه ؟! » .

وعندما ووجهت بالحجج والآراء ، رفضتها جميعاً ... كان رأيها أن السرية سوف تعطي الفرصة للنهائزين ولعية السياسة كي يخبروا ويدمروا ، وأن الضمان الوحيد للتنظيم الطليعي هو العلنية ... ولقد عارضوها جميعاً لكنها أصرت على تصعيد السؤال إلى المستويات العليا قائلة :

« المفروض أننا هنا علشان نناقش كل شيء بصراحة ، وده سؤال صريح وأنا عاوزة إجابة عليه !! » .

مرت الأيام واكتشفت أنهم اجتمعوا ذات مرة دون أن يبلغوها بالاجتماع فلم تهتم ... لكنها فوجئت ذات يوم بأحمد مختار يقترح عليها أن تجري حديثاً مع وزير الإعلام فدهشت ، وسألته عن المناسبة وعن السبب ... وكان البحث عن « النغمة الصحيحة » يشغل بال الكتاب والصحفيين والقيادة السياسية بعد النكسة ، رجت بالأمر وسهرت ليلة حتى مطلع النهار لتحضير عدد من الأسئلة

كالقنابل ... عندما عرضتها على مختار استمع إليها في انتباه شديد ، ثم تمت : « هايل ! » .

كانت هذه هي كلمته التي لا يزيد عليها حرفاً إذا ما أعجبه شيء ... هي تعبير قد يحمل أي معنى في عرف الذين عملوا مع هذا الرجل المحير ... كانت تعرف أن الوزير شاب ... لكنها عندما التقت به وجدته أكثر شباباً مما ظنت ... ما أن بدأ الحديث بينهما حتى ترك الرجل مكتبه وهو يمسك في يده ورقة ... جلس أمامها بعد أن طلب من السكرتيرة ألا يزعجه أحد ، ثم راح يناقش معها كل ما قالته في اجتماع التنظيم ...

أحست بالراحة والرهبة معاً ، لكنها اندفعت تطرح وجهة نظرها في تدفق ألزم الرجل الصمت حتى انتهت ... ثم راح بعدها يناقش ويحلل ويعرض وجهة نظره ، وجدته دمث الخلق مهذب الكلمات هادئ الصوت خجولاً ، سألته ذات لحظة من لحظات رعونتها :

« هو سيادتك مش كنت مخابرات قبل كده ؟! » .

كان هذا منذ شهور طويلة ، ولم تكن تدري أنها ذات يوم ستذهب إلى هذا الجهاز الرهيب بقدميها طائفة مختارة ... يومها ، فوجئت بضحكة الرجل تجلجل في الغرفة الأنيقة المظلة على النيل ... ظل يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه وأحمر وجهه ، وكانت هي تضحك معه في استجابة ودهشة ... ولم تنته المناقشة عند بر ، وكانت الموضوعات قد تشعبت وتكاثرت بينهما حتى صاح فيها ذات لحظة :

« لو ما كانش عندي اجتماع مجلس وزرا كنت قعدت معاك زي ما إنت عاوزه ! » .

أوصلها حتى باب مكتبه في حفاوة أدهشت السكرتيرة ، صافحها في حرارة قائلاً :

« يا ريت بلدنا فيها منك كتير يا آنسة سامية ! » .

غادرته على وعد بلقاء آخر ، لكن اللقاء لم يتم ... وعندما طلبته في

مكتبه ذات يوم ألحت فيه الأسئلة على رأسها ، قالت لها السكرتيرة إنه في اجتماع وسوف يطلبها ... لكنه حتى اليوم لم يطلبها ، فهل كان ما حدث في الشهور الأخيرة هو السبب ؟!

\* \* \*

« المخابرات يا ست !! » .

كان التاكسي يقف أمام باب من حديد متجههم ، قليل من الزرع الأخضر ، مع الحر الخانق لذلك الصباح ، بدا الصمت ثقيلاً في تلك البقعة النائية من المدينة ... انقبض قلبها وهي تعطي الرجل أجره وتغادر سيارته التي انطلقت بسرعة من يهرب من شبح ... تقدمت من الباب فلمحت من خلفه وجهاً أسمر سرعان ما نفذ من الفتحة الضيقة استعداداً للقائها !

كان شاباً في العشرينيات من عمره ، تبدو ملامحه الوسيمة جافة لسبب غامض ، يرتدي ملابس رسمية ذات لون غريب ... من منطقته يتدلى مسدس .. في أدب من تعود على مثل هذه الزيارات سأل :

« أفندم ! » .

« الأستاذ عادل مكي من فضلك !! » .

« نقول له مين يا فندم ؟! » .

« سامية فهمي » .

« فيه بطاقة ؟! » .

أصبح الحوار ثقيلاً ، ردت عليه :

« فيه ميعاد معاه ! » .

« فيه بطاقة ؟! » .

كرر السؤال وكأنه لم يسمع إجابتها ... على مضض أخرجت بطاقةها الشخصية ... نظر فيها ، ثم رفع عينيه نحوها ومن خلفه كان يقف حارس آخر ذورأس كبير ووجه كأنه خلق لهاتين العينين الواسعتين المرعبتين !

« إتفضلني سيادتك يا فندم هنا ! » .



قادها إلى غرفة خطت إليها عبر ممر داكن الضوء ... غرفة انتظار هي ، لكنها مقبضة ... تركها وحدها فارتجفت ... أرادت أن تجلس على أحد المقاعد الوثيرة لكنها لم تستطع ، اكتشفت أنها متوترة ، وأنها تقبض على حقيبة يدها في عنف لا مبرر له ... تذكرت أمها ونظراتها الحزينة ومشكلتها المزمنة وحنانها الدافئ فدمعت عينها ... همست لنفسها في لوعة : « المخابرات يا نبيل ... المخابرات !! » ... وكان الحوار في داخلها محتدماً عندما ظهر ذلك الشاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ترحيب بالغة الإشراق .

« إنفضلي سيادتك يا فندم ! » .

جمدت في مكانها لثوان وهي تنظر في إمعان إلى هذا الوجه الذي استقبلها بلا ابتسامة ... وإلى نفس الوجه وقد أشرفت ملامحه بتلك الابتسامة التي حولته من حارس إلى إنسان ... خطت نحو باب الغرفة فأحست بالدوار ... وكان الشاب قد شعر بما انتابها ، فلقد قال مشجعاً :

« إنفضلي سيادتك ! » .

وسارت خلفه !

عبر حديقة ، ثم اخترقت ممرأ يؤدي إلى مبنى جانبي ... كان الحارس يسير أمامها فأعطاها الفرصة كي تتلفت هنا وهناك ... هذا إذن هو جهاز المخابرات المصري ... يبدو لها الأمر وكأنها في حلم ، ثمة سيارة هنا وسيارة هناك ولكن لا أحد عنى الإطلاق ، لا إنس ولا جان ، لا شيء سوى خطوات ذلك الحارس الذي كان يلتفت نحوها بين الحين والحين مردداً في حفاوة : « إنفضلي سيادتك !! » ... حتى وجدت نفسها أمام باب غريب ... هو باب من تلك الأبواب التي تعرفها جيداً ، لكن إحساسها جعلها توقن أنه ليس باباً ... راحت تردع نفسها بعنف فهي هي الخوف يغزوها مرة أخرى ، فلم تخاف ؟ إلهي على رأسه بطحة يحسن عليها !

ما كادت تنفذ من الباب حتى طالعها مكتب صغير يجلس إليه رجل يرتدي ملابس عادية ، رجل هو أم عملاق أصلع ذو عينين واسعتين فكأنهما مصنوعتان

مخصيصاً لتخويف الناس ... نظر الشاب إلى الرجل الذي نهض مرحباً وهو يبادرها :

« آنسة سامية فهمي ؟ »

« أيوه ! » .

« إنفضلي يا فندم ! » .

انصرف الشاب ، وتبعت الرجل إلى سلم قادها إلى ممر كان يمتد حتى آخر الجدار ... على الجانب الأيسر للممر أبواب مغلقة ، الجو مشحون وكأن هناك من امتص الحياة حتى من الهواء ... عند باب من تلك الأبواب المغلقة توقف الرجل وفتح الباب .

« إنفضلي سيادتك يا آنسة سامية ! » .

دلفت إلى غرفة بسيطة الأثاث ، مكتب ومقعدان ، ثم مجموعة من المقاعد الجلدية التي تكون صالوناً صغيراً ، في الواجهة نافذة زجاجية تطل على جدار شاهق ، تحت النافذة جهاز تكييف لا يعمل رغم حرارة الجو ... على المكتب تليفون يبدو مهملاً ، ولا أوراق هناك ، لا دليل على أن أحداً يستعمل هذا المكتب !

كانت قد استغرقت فيما هي فيه عندما جاءها صوت الرجل فانتفضت ملتفتة إليه :

« سيادتك تشربي إيه ؟ ! » .

« قهوة مضبوط ! » .

« السيد عادل جاي حالاً ! » .

قال الرجل هذا ثم انسحب مغلقاً الباب فأحست بالرعب يشلها تماماً ، كان صوت الكالون حاداً واضحاً يؤكد أنه أغلق فانقبض قلبها ، هي لا تشرب القهوة بالنهار فلم طلبت قهوة ؟ !! وجدت نفسها ترتجف دون إرادة منها ، أحست برغبة مروعة في الصراخ فاندفعت نحو الباب وفتحته فاستجاب لها وخرجت إلى الممر فتوقف الرجل الذي لم يكن قد بلغ آخره ، وكانت في عينيه نظرة دهشة شديدة .

« فيه حاجة يا فندم ! » .

وارتبكت ...

لماذا فعلت ما فعلت ؟!

هل هي تريد أم أنها أرادت - فقط - أن تعرف إن كانت تستطيع النفاذ من

الباب ؟!

« من فضلك قول لعادل بيه إنني مستعجلة علشان ... » .

وتوقفت الكلمات في حلقها عندما رأت شاباً وسيماً ينفذ إلى الممر

مهرولاً .

« أنا آسف يا مدموازيل سامية ، أرجو أنني ما أكونش اتأخرت عليك ! » .

في احترام أوسع الرجل الطريق لعادل مكى ، عرفته فوراً ولا تدري

كيف ... تصاعد إلى رأسها سؤال عرييد بلا معنى ، أين اختفى هذا الشاب

الوسيم عن عيون مخرجي السينما ؟! ... كان قد وصل إليها :

« عادل مكى ! » .

أرادت أن تختصر الطريق ، كعادتها اقتحمت المشكلة :

« أنا آسفة .. أصلي ... » .

في ابتسامة رقيقة قال :

« ولا يهمك ، طلبت حاجة ؟! » .

« قهوة ! » .

التفت عادل نحو الرجل قائلاً :

« خليه اثنين يا متولي ! » .

دفع باب الغرفة بيده :

« إنفضلي !! » .

ودلفت سامية فهمي إلى الغرفة ، وكانت رغبته في البكاء ، تفوق أية رغبة

أخرى !

\* \* \*

## الفصل الثاني

### ولم يبق سوى الفئات !

عندما جلس ضابط الأمن القومي « عادل مكى » إلى سامية فهمي في ذلك

الصباح الخائق من شهر يوليو عام ١٩٦٨ ، في تلك الغرفة المتجهمة التي رطب

جوها التكييف ، كان يعرف عنها كل شيء ... كان يعرف - بالضرورة - من

هي ؟ وماذا تعمل ؟ وكيف تعيش ، ولم جاءت على وجه التحديد ؟!

بالأمس ... وعندما اتصل به أحمد مختار تليفونياً ، ظن في البداية أن

الانصال كان للسؤال ... ولقد دار الحديث بينهما مرحاً تناولا فيه أمور الدنيا

وما فيها ... حتى إذا ما سأله مختار في لحظة :

« طب إحنا مش حانشوف بعض يا عادل ؟! » .

دق في رأسه جرس الإنذار ، فقال على الفور :

« حدد الميعاد وأنا تحت أمرك ! » .

« نتغدى النهاردة في النادي سوا !! » .

أدرك عادل الآن ، وبوضوح ، أن الأمر يخص سامية فاجتاحته راحة

غريبة ... مضت لحظات صمت جاءه بعدها صوت مختار :

« قلت إيه ؟! » .

كان الحديث طبيعياً للغاية ، لكن الأسلوب الذي تحدث به مختار أوحى

إلى عادل أن في الأمر شيئاً ... ولم يكن أمامه سوى القبول فقبل ، وذهب

لللقاء صديقه ودفعته أحمد مختار !

منذ شهور ثلاثة ، وسامية فهمي ، وسط خضم ما كان يخوض فيه عادل في

تلك الأيام ، تشغل باله وتفكيره . . . ذلك أن هذه الصحفية الشابة كانت تمثل له أمرين :

الأول : هو تلك الفرحة الغامرة التي تنتاب ضابط المخابرات كلما تنبه مواطن إلى مواطن الخطر والزلل . . . وفي تلك الأيام السوداء . . . كان هناك عشرات من الشبان الذين راحوا يخطون إلى شبكات الإسرائيليين بلا روية ولا علم ولا تفكير ولا حتى فهم بطبيعة ما كان ينصب حولهم من شرك قاتلة . . . كانت سامية - لو صح حدسه - تمثل له فرحة غامرة بنجاة إنسان من حبال الخيانة !!

أما الأمر الثاني : فإن سامية قد تستطيع أن تكون مخرجاً من تلك القضية التي تؤرقه منذ ما يقرب من عام . . . والتي كانت آثارها تتفاقم يوماً بعد يوم حتى استفحل أمرها واستطاع الإسرائيليون - من خلال تلك الشبكة الجهنمية - أن يحرزوا فيها انتصارات مؤكدة !

الحلقة الخطرة ، والوعرة في نفس الوقت ، في هذه الشبكة . . . شاب مصري ، وسيم ذكي ، خفيف الظل ساهر الأسلوب . . . لم يكمل تعليمه الجامعي ، مواهبه متعددة ، أوقعه قدره ورعونه وطموحه في يد الصهاينة فاستجاب سعيًا وراء نجاح مزيف . . . أعماه الغرض عن الهدف فانقاد . . . ثم تفتت ذهنه عن أساليب أبعده - قانوناً - عن كل شبهة . . . فانطلق في قسوة غريبة ، يصطاد الشباب المصري ، شاباً وراء آخر ، وشابة وراء أخرى . . . حتى اشتهر أمره بين هؤلاء الساعين إلى حلم امتلاك سيارة بأي ثمن ، وجرى المال بين يديه بغير حساب . . . ويوم أن زار مصر ، دخلها تحت عيني عادل مكى فلم يستطع له شيئاً . . . جاء واثق الخطى ، وخرج دون أن يتعرض له مخلوق بكلمة ، ثم . . . كان لابد أيضاً من خروجه ، عرف عادل أثناء تلك الزيارة علاقة الحب بينه وبين سامية ، ثم عرف كل شيء عن تلك العلاقة ، لكن سامية كانت تبدو لاهية عن كل شيء فآثر الانتظار ، حتى إذا دخلت ذات يوم ، منذ شهرين ونصف الشهر ، وفي مدينة نابولي الإيطالية بالتحديد إلى دائرة الشكوك . . . كان حزنه قد أصبح عظيماً !!

أثناء زيارة نبيل سالم - هذا هو اسم الشاب - إلى مصر دخلت سامية فهمي

إلى دائرة الضوء خاصة أن الأنباء والأحداث أكدت أن هذه الفتاة الملتزمة بالحماس - والتي استحوذت على إعجاب كل من التقى بها - تحب نبيل سالم حباً ملك عليها حياتها . . . كانت دهشته شديدة لارتباط تلك الصحفية والكاتبة الموهوبة ، بذلك الأفاق الذي ارتضى أن يبيع كل شيء ، حتى وطنه ، من أجل حفنة من المال . . . وعندما سافرت سامية إلى إيطاليا بعد ذلك ببضعة أسابيع كي تلتقي بنبيل ، كان لابد من وضع الأمر تحت منظار يوضحه . . . ولقد حدث هناك ما عرف بعضه ولم يعرف بعضه الآخر ، ورآها بعيني رأسه تلتقي بمن يمثلون خطراً حقيقياً على الوطن ، بل بهؤلاء الذين ليس لهم من عمل سوى الإضرار بالوطن ، فانتظر حتى عادت إلى مصر . . . ومر شهر وشهران وبعض من شهر ثالث . . . ولم تتقدم سامية ، ولم تُلغ عن شيء ، بل راحت تنشط في جمع معلومات بدت غريبة ، ولم يكن هناك بد ، كان عادل مكى مضطراً إلى أن يضعها تحت مجهر دقيق لا يخفي من حياتها شيئاً . . . وكانت سامية - وهذا ما كان بالنسبة إليه مروعاً - تخطو إلى دائرة الشكوك يوماً بعد يوم حتى كاد يفقد صوابه !!

\* \* \*

عندما يتعامل ضابط المخابرات مع شبكة أو عميل أو جاسوس ، فهو يتعامل بمقياس دقيق لا دخل للعواطف فيه . . . ولكن ماذا تفعل إزاء ناس اختصهم الله بهذه الجاذبية التي تجعل من أخطائهم شيئاً يحطم القلب ، ويورث الإنسان السقم ؟

لقد كانت سامية فهمي من هذا النوع من البشر . . . فظل عادل مكى محتفظاً بالأمل في أن تلجأ إليه ذات يوم . . . ولقد ظن في لحظة من لحظات الترقب المرير ، أن انتظاره قد طال . . . حتى إذا حدثه أحمد مختار ، وتناولوا معاً طعام الغداء . . . ورددوا حول البلد وما يحدث فيها . وجاءت لحظات القهوة بما فيها من استرخاء . . . قال مختار :

« تعرف سامية فهمي » . . .

قال لي عادل مكى إنه في تلك اللحظات كاد يقفز من مكانه فرحاً . . . قال

إنه لا يخجل من الاعتراف بأن قلبه دق في عنف مزغرد ... لكنه ، ولأنه مدرب على كتمان ما يعتريه من انفعالات ، رد على صديقه في بساطة :

« باقرأ لها في المجلة بتاعتك !! » .

ولم يكن عادل كاذباً ... فلقد كانت سامية من تلك الأقلام التي تشد انتباهه رغم حداثة عملها في الصحافة وعلى كل ، فلقد قال مختار :

« سامية فطرت معايا النهارده الصبح !! » .

رفع عادل مكى حاجبيه مستفسراً ، فأردف مختار :

« فيه عندها مشكلة ..... » .

كان حوار الرجلين في تلك الحديقة المترامية في ذلك النادي الذي اشتركا فيه معاً سنوات طويلة ، يبدو طبيعياً لمن أراد الاستماع إليه ، لكنه في واقع الأمر ، كان يحمل شحنات متفجرة من الأحاسيس ... ذلك أن كلاهما راح يقرأ ملامح صاحبه ، وكلاً منهما أخذ يمعن الفكر في كلمات صديقه ... كان مختار يعلم بالضرورة أن صديقه ، حتى ولو كان يعلم شيئاً ... لن يسبح له بشيء ... كما كان مكى يعلم أن صديقه يستطيع أن يخمن وأن يفهم دون سؤال ... ولذلك ، فلقد جرى الحديث بينهما سلساً لئناً ، حتى إذا انتهى مختار مما أسرت له به سامية فهمي ... قال مكى بعد لحظة صمت لم تطل وكأنه يفكر في الأمر :

« طيب ما تخليها تعدي عليّ بكرة ؟! » .

وكانت هذه الجملة إيذاناً بإغلاق الموضوع ، فزفر مختار زفرة كاللهب ، دفعت مكى إلى الابتسام وهو يهتف :

« ما لك يا مخ .. »

ضحك مختار ضحكة خفيفة وهو يقول :

« فاكرا يا وله سنة خمسة وخمسين ؟! » .

كانت تلك ذروة شبابهما ... ذروة دفعتهما معاً إلى خوض الحرب ضد

الإسرائيليين بحماس وإيمان جعلاً لتجربتهما طعماً مميزاً ... راحا يضحكان وهما يتذكran تلك الليلة التي تجمدت فيها أطرافهما وهما يخوضان معركة بالسلاح الأبيض داخل حدود إسرائيل ... تركا وحدتهما في تلك الليلة بلا أوامر وخاضا مع مجموعة من الفدائيين أرض فلسطين كي يصطادوا جنود العدو ... وكاد مكى يُقتل بطعنة نافذة لولا مختار الذي أنقذه بمصادفة تقرب من المعجزات !!

في تلك الأيام لم يكن أحدهما يحمل للنديا همماً ، وكان الأمل أمامهما يشرق كل صباح مؤكداً أنهما سيشاركان في بناء وطن تفخر به الأجيال ... وها هما يجلسان وقد تقدمت بهما السنون ثلاث عشرة خطوة ... فإذا الوطن مصاب بما أصيب به العام الماضي . هزيمة مدوية مروعة ، وكان عليهما ، كل في مجاله ، أن يبدأ من جديد .

« كان لازم اللي حصل ده يحصل ! » .

هكذا غمغم مختار فلم يرد عليه مكى ... ألقى نحوه نظرة مشحونة بطاقة من حزن بلا حدود ... سحق سيجارته وهو يقول :

« قول لها تعدي عليّ بكرة الساعة تسعة يا مختار !! » .

ونهبها ....

وعاد مكى إلى مكتبه وقد استخفه الفرح ، وطلب ملفاً جاءه على الفور ... أغلق غرفة مكتبه ، واستغرق في القراءة !

كان لابد له - عندما يرى سامية فهمي في الصباح - من أن يكون جاهزاً للقائها !!

\* \* \*

وها هي سامية تجلس أمامه ، بينهما فنجانان من القهوة ، وكانت مضطربة أشد ما يكون الاضطراب ... وكان يعلم أنها لابد من أن تكون مضطربة ... فكيف السبيل إلى إزالة اضطرابها ... كيف السبيل !!؟

\* \* \*

كان نبيل سالم واحداً من شباب مصر الذين خرجوا للسباحة فلم يعودوا

إليها لسنوات طويلة ... جاءت أخباره ، أول ما جاءت ذات يوم من أيام مايو عام ١٩٦٦ عندما التقى بـ « لويز جولدمان » في مدينة هامبورج الألمانية :

كانت لويز إسرائيلية من أبوين بولنديين نزحاً إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية تحت ضغط الاضطهاد الذي كان يصيب اليهود في أوروبا ، ولدت لويز في فلسطين ، وأتقنت عدداً لا بأس به من اللغات ، والتحقت بخدمة الموساد في وقت يصعب تحديده على وجه الدقة ... ذلك أنها ظهرت أول ما ظهرت في باريس تحت اسم « مارسيل ماتيو » ثم انتقل نشاطها إلى روما حيث انتحلت اسم « صوفي جارديني » ... ثم اختفت لأعوام قليلة ، حتى اكتشف الرجال أنها تعيش في ميناء هامبورج منذ شهور تحت اسم أمريكي هو « شيرلي هايمان » ... وإذا كان نشاط لويز جولدمان قد تميز في فرنسا بالتركيز على الطلبة العرب خاصة الجزائريين منهم ، فإن نشاطها في روما اختلف تماماً ، فلقد اشتركت في عمليات خطيرة ومؤثرة ... لكنها عندما ظهرت في هامبورج في هذه المرة الأخيرة ، كانت تتقن العربية باللهجة اللبنانية ... ولقد قيل في أحد التحليلات العلمية التي جرت لشخصية لويز ... إنها لا بد كانت تتقن العربية منذ أن ظهرت في فرنسا ، وإنها استطاعت أن تخفي هذا ببراعة لا بد من الاعتراف بها ... بل إن البعض كان يرى - ودون دليل قاطع - أنها عاشت ، قبل أن تظهر في فرنسا ، لسنوات في لبنان تحت اسم وهمي يغلب على الظن أنه اسم فرنسي ، وأنها كانت تحمل جواز سفر فرنسياً ... وإن سبب عدم كشفها في بيروت أو الانتباه إليها ، أنها في تلك السنوات الغامضة ، لم تكن مكلفة بشيء ذي طبيعة خاصة ... وإن كل ما كان عليها أن تتقنه ، هو أن تتعلم العربية وأن تتحدث بها بطلاقة لا تبعث على أدنى قدر من الشك ... ثم ها هي تظهر في هامبورج كموظفة في إحدى الوكالات الأمريكية التي تعمل في السياحة ... كان معروفاً أن هذه الوكالة بالذات تتبع شركة هائلة مركزها نيويورك ، يملكها عدد لا بأس به من اليهود الأمريكيين ... ولم يكن صعباً أن تُعَيَّن فتاة مثل لويز جولدمان تحت اسم مزيف وجواز سفر أمريكي في شركة أمريكية ...

وفي الحقيقة فإن الرجال لم يكتشفوا أمر هذه الشركة في وقت مبكر ، لكنهم اكتشفوها عندما نما إلى علمهم أن بعضاً من الشباب العربي ، كان يسافر من بلاده إلى ألمانيا خصيصاً كي يشترك في رحلات هذه الوكالة الأمريكية التي كانت تحملهم إلى أركان الأرض الأربعة ، في رحلات ينفقون فيها أموالاً طائلة طلباً للمتعة ... وعلى كل الأحوال ، فإن لقاء « نبيل سالم » بـ « لويز جولدمان » أو « شيرلي هايمان » الموظفة بوكالة السياحة الأمريكية ... لم يكن إلا في أواخر عام ١٩٦٦ ... ولقد كان لهذا اللقاء قصة !

\* \* \*

قال عادل مكي وهو يوجه إلى سامية فهمي ابتسامة راضية :

« مختار قال لي إن عندك مشكلة ! » .

ردت سامية :

« هي مش مشكلة بالمعنى الدقيق للكلمة ... هي شكوك ! » .

« في إيه ؟ ! » .

كان سؤاله الأخير مثل طلقة حسمت الأمر ... وكان لا بد لسامية من أن تدخل في الموضوع ! » .

\* \* \*

كان نبيل سالم ابناً لموظف من موظفي وزارة الصناعة ... كان والده موظفاً كبيراً لا يصل إلى درجة وكيل وزارة وإن كان قريباً منها أو لصيقاً بها ... عُرف عن علاقة الأب بابنه ذلك التوتر الدائم الناجم عن اختلاف وجهتي نظر كل منهما لأسلوب التعامل بينهما ... ولقد قيل في البداية إن الأب كان على خلاف حاد مع زوجته أدى إلى هذا الخلاف المزمن مع ولده نتيجة لتعاطف الأم مع ابنها ... ولكن ، اتضح بعد فترة وجيزة أن هذا غير صحيح ...

فبالرغم من أن أم نبيل كانت تتعاطف مع ولدها ، كانت تحب زوجها وتحترمه وترى في تصرفات ولدها طيش شباب لا أكثر ولا أقل ، كما أنها كانت ترى في تصرفات زوجها ومواقفه حيال ولده ... « حنبلة » زائدة ، وتقليدية من



أب كان عليه أن يساير العصر . . . ولم يُعرَف حتى وقت متأخر ، سر خروج نبيل من مصر ، أو ربما لم يفهم أحد وجهة نظره ولم يقدرها حق قدرها . . .

ففي الإجازة الصيفية لعام ١٩٦٥ ، استطاع الطالب نبيل سالم أن يحصل على تأشيرة خروج من مصر ، وتأشيرة دخول إلى ألمانيا الغربية للسياحة . . . كان وقتها ، رغم أنه كان في السادسة والعشرين من عمره ، لا يزال في السنة النهائية بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، ومنذ التحق نبيل بالكلية ، عرف عنه أنه لا يطيق حتى اسم التجارة . . . كانت رغبته في الالتحاق بكلية الاقتصاد السياسي حارقة . . . إلا أنه لم يستطع ، رغم كل الوساطة التي لجأ إليها أبوه ، أن يحقق تلك الرغبة !

عُرِف عن نبيل سالم وسط عائلته وأصدقائه وجيرانه ، أنه « شايف نفسه حبتين » فهو - فوق أنه جميل الوجه مليح التقاطيع - وسيم وسامة لا يختلف عليها إثنان ، خفيف الظل ، قادر على اكتساب صداقة الآخرين بسهولة ويسر . . . حامت حوله - من السنة الأولى في الكلية - أقاويل وشائعات عن علاقات حب بينه وبين بعض زميلاته لم تثبت صحتها . . . شيء واحد كان يعيب نبيل ، إنه لم يكن يطبق العلم . . . كان دخوله إلى المدرج واستماعه إلى محاضرة أو انكبابه على كتاب ، أمراً دونه خرط القتاد ، كما يقولون . . . بعد أربع سنوات التحقت سامية فهمي بقسم الصحافة بكلية الآداب ، والتقت بنبيل وسط شلة من الزملاء والزميلات في بوفيه الجامعة . . . وكل ما عرفه عادل مكى عن علاقتهما ، أنهما لم يفترقا منذ أن التقيا لأول مرة ، وأن علاقة حب نشأت بينهما لم تحاول سامية أن تخفيها ، فلقد كانت من هذا النوع الذي إذا ما اقتنع بشيء تحمل مسؤوليته في شجاعة وصراحة ووضوح . . .

في ذلك العام ، عام ١٩٦٤ ، نجح نبيل سالم لأول مرة في حياته - ومن أول سنة له - في السنة الثالثة ، وانتقل إلى السنة النهائية . . . لكنه فشل في الحصول على البكالوريوس ، كانت المشاكل قد تجددت بينه وبين أبيه عندما أراد أن يتقدم لخطبة سامية من والدتها ناظرة المدرسة . . . رفض الوالد ، وأصر على الرفض فاحتدم الخلاف بينهما . . . وقيل إن سامية أيضاً - في ذلك

العام - اختلفت مع نبيل كثيراً ، لكن أحداً لا يعرف طبيعة هذا الخلاف أو سببه . . . فشل نبيل في الحصول على البكالوريوس وانتقلت سامية إلى السنة الثالثة وكانت قد التحقت بمجلة الفجر كصحفية تحت التمرين . . . ذهبت إلى المجلة في دورة تدريبية تحتّمها دراستها في الكلية ، لكن نشاطها وذكاءها وحماسها جعلهم يتشبثون بها في المجلة ويرحبون بانضمامها إليهم . فشقت طريقها بسهولة واستطاعت خلال شهور قليلة أن تلفت إليها أنظار القراء وفي صيف عام ١٩٦٥ قرر نبيل أن يقوم برحلة سياحية إلى ألمانيا عن طريق البحر . أفلته السفينة إلى ميناء فينسيا الإيطالي . وهناك اختفى دون أن يعرف أحد عنه شيئاً . . . إلى أن ظهر بعد بضعة شهور في ميناء هامبورج الألماني ولم يكن له عمل محدد . . . عندما انقضت الشهور دون عودته انتاب القلق أبويه ، حتى لقد ذهب والد نبيل بنفسه إلى كلية الآداب كي يلتقي بسامية . . . ولقد كان لقاؤه بها غريباً ، جلس إليها لساعتين أو يزيد قليلاً ، ويقال إن الرجل عاد بعد لقائه بسامية وقد انتابته دهشة وعاد إليه إشراقه ، وإنه قال لزوجته ، إنه لو كان يعلم أن ابنه يريد الزواج من فتاة مثل سامية لما مانع ولما اعترض ، بل لرحب بالأمر . . . علي كل فلم تمض أسابيع قليلة حتى وصله خطاب من ولده . وكان الخطاب صادراً من مدينة هامبورج . . . في الخطاب طمأن الولد والده على نفسه وحياته . قال نبيل لأبيه في الخطاب إنه لن يعود إلى مصر إلا بعد أن يُكوّن نفسه ويعرف طريقه ، وإنه سثم - وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - أن يعيش عائلة على أبيه . . . قال - فيما قال - إنهم في أوروبا لا يهتمون بالشهادات قدر اهتمامهم بالكفاءات ، ورغم ذلك فلقد التحق بأحد المعاهد الاقتصادية بعد أن أصبح يتقن الألمانية !

ولقد ركن الرجل إلى الأمل !

كما غذى الأمل في نفسه - هذا قوله بالحرف الواحد - لقاؤه مع سامية فهمي التي بدت له مؤمنة أشد ما يكون الإيمان بمستقبل ولده !

لكن الحقيقة كانت غير هذا تماماً !

كان عادل مكى ورجاله قد توصلوا إليها وعرفوا القصة كاملة !

\* \* \*

عندما بدأت سامية فهمي تطرح شكوكها على عادل مكى ، بدت مرتبكة ، وكان هذا أمراً طبيعياً . . . راحت تقص سفرها إلى إيطاليا لشراء سيارة . وكيف التقت بسمسار يعمل في تجارة السيارات وتصديرها . ثم كيف تعرفت على مدير إحدى وكالات الأنباء . . . ثم عادت ونقضت كلامها هذا ، وعندما همت باستئناف الحديث ، ابتسم عادل مكى وهو يسألها :

« تحمي نأجل الكلام لبكره !؟ » .

صاحت في حدة لم تقصدها :

« لا . . . أنا ما صدقت إنني قابلتك ! » .

ثم توسلت :

« تفتكر فيه حاجة يا عادل بيه !؟ » .

ولقد بدا عادل مكى بريئاً كل البراءة وهو يسألها :

« حاجة زي إيه !؟ » .

وإزاء ارتباك سامية الذي ازداد . . . كان لابد من تناول فئجان آخر من القهوة !!

\* \* \*

عندما وصل نبيل سالم إلى هامبورج لأول مرة، كان في حالة يرثى لها حقاً . . . استطاع في إيطاليا أن يجد مجموعة من الشباب هم خليط من جنسيات مختلفة ، كانوا مثله يبحثون عن شيء لا يدرون ما هو . . . كانوا يعملون أياماً ويتعطلون أياماً ، لكنهم استطاعوا الصعود شمالاً إلى ألمانيا عبر سويسرا ، وحطت بهم الرحال في هامبورج حيث كانت البيشة في تلك المدينة تناسب الكثير من هواهم !

في هامبورج أصيب نبيل بنزلة شعبية كادت تؤدي به . . . لزم الفراش أياماً فهجره أصدقاؤه ثم اختفوا من المدينة وقيل إنهم استقلوا إحدى السفن المبحرة

إلى بريطانيا . . . وأصبح نبيل قاب قوسين أو أدنى من الموت لولا صاحبة البيت الذي كان يسكن إحدى غرفه ، وهي سيدة في خريف العمر تؤجر غرف بيتها للشباب أو من يدفع أكثر . . . رق قلب « فراوانجي » للشباب المصري المفلس المريض . . . كانت وحيدة وكان وحيداً فلأزمته حتى شفي من مرضه . . . حفظ لها الجميل وكانت الصفقة بالنسبة للثنتين مجزية ، قنع بالغرفة التي أنتمت لها له بعد أن رفض العيش في مسكنها الصغير بحجة أنه يريد أن يشعر باستقلاله . . . واستطاعت فراوانجي أن تجد له عملاً في الميناء وكانت هذه هي بداية النهاية بالنسبة لعلاقته بتلك السيدة المسكينة ، فلقد التقى ذات يوم في مشرب قريب من الميناء بشاب يدعى « فريدريك » . . . كان فريدريك فردا في عصابة لتهرب المخدرات عن طريق الميناء . . . ولقد أصبح هذا الشاب الألماني الجسور صديقاً لنبيل الذي كان أجره من عمله يكفيه بالكاد كي يواصل الحياة . . . في البداية لم يعرف نبيل كنه عمل فريدريك الحقيقي ، لكنه أعجب به وبجسارته ، كما سال لعبه للمال الذي كان الشاب يتفق منه في بذخ وبلا مبالاة . . . كانت الشهور تنقضي وكلما انقضى شهر أحس نبيل أن عودته إلى مصر خالي الوفاض دونها الموت نفسه ، كان أحياناً يكتب لسامية معنياً إياها بالأمال والنجاح ، راح يلفق لها الحكايات عن المعهد الجديد الذي التحق به والعمل المحترم الذي حصل عليه . . . وكانت خطاباتهما إليه مليئة بالحرارة والحب والإيمان والأمل والثقة بلا حدود في أنه سوف يستطيع أن يحقق أحلامه . . . أصبحت خطاباتهما بعد فترة أزمة كان يتجنبها فلقد كانت بدورها تحدثه عن نجاحها في المجلة ، وعن إعجاب رئيس التحرير بها ، وفي بعض الأحيان كانت ترسل إليه موضوعاتها المنشورة والممهوره باسمها . . . ولقد كان نبيل في البداية يقرأ من الخطاب سطوراً ثم يلقيه بعيداً كمن يهرب منه ، كانت كلماتها كأسياخ محماة تحرق جلده ، وكان نجاحها يجسد له فشله . . . ثم أصبح يلقي بخطاباتها جانباً دون قراءة ، ثم أصبح يمزق تلك الخطابات دون أن يفيض الظرف . . . ثم . . . وعندما تشاجر ذات ليلة أفرط فيها في الشراب مع فريدريك ، حيث صحب معه إلى الغرفة إحدى فتيات الحانات ، فتشاجر تلك الليلة مع فراوانجي ، لم يكن أمامه وقد جن جنون المرأة التي كانت قد سقطت

صريعة شبابه ، إلا أن يترك الغرفة ويتنقل إلى مكان آخر ... ولم تتركه فراو أنجي ، بل راحت تحرض عليه صديقها حتى فصله من عمله ... وعاد نبيل إلى الشارع من جديد !

بحث عن فريديريك فلم يجد له أثراً ، كمن تبخر في الهواء اختفى صديقه ، بحث عنه في كل مكان فلم يجده ، بحث عن عمل ، أي عمل دون جدوى ... حاول أن يطرق باب فراو أنجي فكان نصيبه الطرد والتهديد بتبليغ الشرطة ... أصابه الرعب فهو يعلم ما الذي تعنيه الشرطة في بلد كالمانيا ، خاصة مع من كان عربياً أفاقاً مثله بلا مأوى ولا عمل ...

وساءت أحوال نبيل سالم يوماً بعد يوم حتى لقد قبل أن يعمل « مرمطوناً » في مطعم صغير بالميناء لقاء بضعة ماركات لا تسمن ولا تغني ... كان كل ما يعنيه في عمله هذا أن يجد ما يسد به رمقه فيما تبقى من فئات في أطباق الزبائن ، وأن يجد ما يدفعه ثمناً لغرفة قذرة شاركه فيها أربعة أشخاص لم يكن أحدهم يعرف عن الآخر شيئاً ... حتى كان يوم !

يوم التقى فيه نبيل بأبو سليم ...

ذلك الرجل السوري الضخم الجثة المتنفخ حافظه النقود النهم إلى الطعام والشراب ... المرح الذي لا يكف عن الدعابة أو الضحك أو مغازلة الفتيات ، العربي الفخور بعرويته ... سمسار هو ، يعرف كيف يكسب المال بالالوف وكيف ينفقه في بذخ ... ليلة أن التقى به كان نبيل يعاني من انتفاخ في قدمه اليسرى سبب له آلاماً رهيبية ، كان عليه أن يعود إلى البيت سيراً على القدمين ، لكنه لم يستطع مواصلة المشوار فجلس في أحد البارات ... وكان غريباً أن تحدث صدقة من نوع نادر ، فلقد هبطت على رأسه صيحة أبو سليم :

« الأخ عربي ... موهيك ! »

رفع نبيل عينيه إلى رجل هائل الحجم أنيق الملبس متورد الوجه منتفخ الكرش ... قال في اقتضاب من لا يرجو خيراً من هذه الدنيا :  
« هيك ! »

« مصري ! »

« مصري !! »

وجلس أبو سليم إلى جواره ، وطلب مشروبين له ولنبيل ، وراح يحكي عن العرب والعروبة وعبد الناصر والإنفصال والقومية ... راح يثرثر وكانت عيناه تأكلان الفتيات أكلاً وتلا المشروب بآخر وثالث ورابع ، وعندما تمنع نبيل في لحظة بدا الغضب على وجه الرجل وهو يصيح بلهجته السورية :

« شو القمى ، بترفض دعوتي ؟ ... هادي إهانة ! »

حاول نبيل أن يوضح فأقسم الرجل أن يدعوه طوال تلك الليلة ... نادى على الجرسون وأخرج حافظه متنفخة بالماركات دفع منها ثمن ما شربا ثم سحب نبيل إلى مطعم قدم لهما ألواناً من الطعام طال حرمان نبيل منها ... في تلك الليلة أكل نبيل وشرب كما لم يأكل ويشرب في حياته ... ولقد أحب أبو سليم هذا ، ثم أحبه أكثر عندما همس له بأنه يبحث عن عمل ، وأن الحال ليست على ما يرام ... ثم كاد يقبل يده والرجل يعدده بأن يجد له عملاً عنده ، فهو في حاجة إلى مساعد أمين بعد أن سرقه الألمان ، وليس هناك أحسن من أخ عربي يأخذ بيد أخيه العربي !

كان طاقة فتحت لنبيل سالم في السماء ... نام ليلته ممتلئ البطن بالطعام ممتلئ الرأس بالأحلام ... وكان على موعد في اليوم التالي مع أبو سليم ... لكنه لم يكن يعلم إنه كان على موعد مع واحد من أخطر رجال المخابرات الإسرائيلية ! ...

## الفصل الثالث

### الطريق إلى المحيم ؟

أدرك عادل مكى منذ البداية أن سامية فهمي تعاني من ارتباك بالغ . . . وأن ارتباكها هذا يقودها إلى القفز فوق بعض الحقائق التي قد تراها بلا أهمية ، أو فوق بعض الوقائع التي تريد أن تخفيها . . . وإذا كان إخفاء بعض الوقائع في مثل هذه الحالات دائماً ما يحمل معنى الخوف أو الخجل أو عدم الرغبة في الاعتراف بما ارتكبه الإنسان . . . فإن خوف سامية فهمي - هكذا كان عادل موقناً بعد دراسة مستفيضة ودقيقة لشخصيتها وتصرفاتها - كان يحمل معنى مختلفاً ، فهي - في قرارة نفسها - لا تريد حماية نبيل سالم ، ولكنها تريد حماية نفسها من صدمة قد تؤدي بها ، لا تريد أن تواجه اختبارها الذي تحدث به العالم كله ، فإذا به يخذلها حتى الموت !!

كانت سامية في جلستها تلك أمامه ، تتعذب ! عندما بدأت الحديث راحت كلماتها تتناثر هنا وهناك في محاولة لتهوين الأمر . . . قالت إنها عندما وصلت إلى نابولي التقت سمسار أرادت أن تبتاع منه سيارة ، وإن هذا السمسار رحب بها ترحيباً بالغاً وهون عليها الأمر حتى خالت أنها ستعود بالسيارة إلى مصر في اليوم التالي . . . ثم التقت بمدير وكالة « ال. أم دي » للأنباء ، وهي وكالة حديثة وجديدة ، وأرادها أن تتعاون معه وأن تكون مندوبة الوكالة في القاهرة . . . وأن الأيام كانت تمضي دون أن تشتري السيارة ، ودون أن ترى تلك الوكالة . . . وأن . . . وأن . . . وأن . . . وأن . . . ولم تذكر سامية شيئاً عن نبيل سالم ، لا عن علاقتها به ، ولا عن لقائها معه هناك . . . ولابد من أنها كانت موقنة من أنها تهرب من الحقيقة ، لأنها راحت

تحكي ما حدث بكلمات مبتورة وجمل ناقصة . . . حتى جاءت لحظة لم يكن هناك مفر من مجيئها . . . فتوقفت عن الحديث لاهثة !!

تطلعت إليه بعينين متوسلتين وكأنها تطلب منه الرحمة أو النجدة ، فتلقاها بإبتسامة واسعة مرحة ، قدم لها سيجارة فارتجفت أصابعها وهي تتناولها منه ، كان يعلم أنها لا تدخن لكنه أراد لها أن تنلهي عن انفعالاتها بالتدخين فقد يعينها هذا على استعادة هدوئها !

« تسمحي لي أناديكي باسم سامية من غير ألقاب !؟ » .  
« ياريت ! » .

قالت لها ملانة الصوت فتمزق قلبه لعذابها .  
« إنت لسه ماجعتيش !؟ » .

قال هذا وهو ينظر في ساعة يده فنظرت في ساعة يدها وكان الوقت يقترب من الثالثة بعد الظهر . . . أدهشها سؤاله فضحكت ضحكة ممزقة القوام :  
« هو انتو بتغدوا الناس هنا !؟ » .

ولم يتمالك عادل مكى نفسه ، لم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة هائلة صاخبة . . . كان السؤال يحمل من المعاني ما ترسب في نفوس الناس عن المخابرات ورجال المخابرات ، كان قد تعود على ذلك وأن كان مثل هذا السؤال - في حقيقة الأمر - يجرحه . . . ألقى بالسؤال خلف ظهره وهو يميل نحوها وقد ملأت الإبتسامة وجهه :

« الكانتين عندنا فيه أكل كويس ! » .

ولقد أدركت سامية الخطأ الذي وقعت فيه ، أرادت ان تعتذر لكنها لم تستطع تبعثت الكلمات من فمها حائرة ، رفعت إليه عينين يمتزج فيهما الحزن بالعذاب :

« أنا تعبتك ! » .  
« ده مش حقيقي ! » .



« أخذت من وقتك كثير ! » .

« ده شغلي ! » .

« أصل المسألة كلها كده ممكن تكون مجرد مخاوف أو شكوك ! » .

« يبقى كسبنا ! » .

رفعت حاجبها دهشة وكأنها لم تفهم مراده فأردف :

« يبقى كسبنا إننا عرفنا أنها مجرد مخاوف أو شكوك ! » .

تغضنت ملامحها ، أحست أنها تلعب مباراة محكوماً عليها فيها بالهزيمة

حتى ولو انتصرت ...

« تنغدى !؟ » .

إنفجرت سامية فهمي وقد اجتاحتها الضعف فأغرق الدمع عينها :

« أنا تعبانة قوي يا عادل بيه ! » .

فنهض إلى التليفون ، وأدار رقمين وطلب غداء لإثنين !

\* \* \*

قالت لي سامية فهمي وهي تحكي لي قصة ذلك اللقاء الأول ، إن أكثر ما كان يعذبها أنها أحست - وبشكل غامض - منذ الوهلة الأولى أن عادل مكى يعرف كل شيء . . لم يبد عليه ما يوحي بذلك لكن أسلوب تعامله معها كان فيه من الحنان ما لم تملك أمامه سوى الضعف المبين ، وكان فيه من الإستقامة ما كان يبعث بالرعب إلى قلبها . . . قالت إن عادل أقبل على الطعام بسعادة وشهية لم يحاول أن يخفيها . . . وإنه قال لها إنه كف عن تناول طعام الإفطار منذ عامين لسبب لا يدره . . . ولذلك فما أن يحين وقت الغداء حتى يشعر بأن الجوع يقتله . . . قالت - وكانت لا تزال تبدو دهشة - إنه تحدث أثناء الطعام وبعده في كل شيء بطلاقة بدت غريبة . . . تحدث معها عن الصحافة والصحفيين ، وإنه ذكرها بتحقيق كتبه منذ ما يزيد على العام عن التعاملات في أحد مصانع النسيج . . . ثم ذكرها بتحقيق آخر كتبه عن نساء « قلعة الكباش » - وهو حي شعبي قريب من حي القلعة القاهري - ومدرسة محو الأمية التي

شاركت في إنشائها في نفس الحي . . . ثم عن المشغل الذي شرعت - مع أخريات كن عضوات في التنظيم الطليعي - في تكوينه ، ثم حلت النكسة فتوقف المشروع !

« ليه !؟ » .

قالها في حدة لفتت نظرها فردت بسرعة :

« مش إحنا اللي وقفناه ! » .

« آمال مين إللي وقفه !؟ » .

« النكسة !! » .

قال وقد بدا عليه الانفعال :

« أنا كنت متصور إن النكسة حاتخليكم تستميتوا فيه أكثر !!! » .

قالت لي سامية فهمي إنهما انهماكا في مناقشة حامية حول الموضوع حتى تصورت أن ما جاءت من أجله ليس على هذا المستوى من الأهمية . . . حتى إذا نظر في ساعة يده ذات لحظة ، وكانت تشير إلى الرابعة والنصف قال :

« أظن كفاية كده النهارده ! » .

ولقد هوت الجملة فوق رأسها كالمنطرة ، كانت قد أخذت من وقته سبع ساعات ونصف الساعة ولم تكن قد قالت شيئاً ذا بال ، إنتابها الحيرة فسألته :

« أنا مش حاشوفك ثاني !؟ » .

« بالتأكيد !؟ » .

« إمتى !؟ » .

« بكرة في نفس الميعاد ! » .

وهكذا غادرت سامية فهمي جهاز المخابرات العامة المصرية في زيارتها الأولى له دون أن تحقق شيئاً ، دون أن تعرف إن كانت شكوكها حقيقية أم إنها مجرد أوهام . . . غادرت سامية هذا الجهاز الذي دخلته لأول مرة وهي تتمزق حيرة ، أدركت أن عادل مكى عندما ناقش ما ناقشه معها من موضوعات كان يخفف الضغط عنها ، وهو . . . هو لم يطلب منها شيئاً على الإطلاق ، سوى :



« آنسة سامية ! » .

« إنت مش قلت من غير ألقاب ؟ ! » .

كان كل منهما يقف قبالة الآخر استعداداً للإنصراف :

« أنا مش محتاج أقول لك بلاش حد يعرف بزيارتك دي ! » .

« حاضر ! » .

قالتها في طاعة عمياء لم تتعودها أبداً !

« ولا حتى ماما !! » .

ابتسمت ابتسامة يقطر منها الحزن .

« إيه اللي خلاكي تبسمي كده ؟ ! » .

« لأن الأستاذ أحمد مختار طلب مني نفس الطلب ! » .

وابتسم عادل مكي فعادت إليها طبيعتها المقتحمة ، سألته :

« هو الأستاذ مختار كان يشتغل معاكم صحيح ؟ ! » .

وللمرة الثانية ، يطلق عادل مكي تلك الضحكة الصاخبة النابعة من أعماق

القلب ... لكنه لم يعطها جواباً !!!

\* \* \*

منذ أن اكتشف عادل مكي علاقة نبيل سالم بلويس جولدمان ، أو شيرلي هايمان ، وهو يحفر وراء كافة التفاصيل التي يمكن التوصل إليها عن تلك العلاقة التي استشر خطرهما منذ الوهلة الأولى ... لم تكن خطورة لويز تخفى عليه بطبيعة الحال ، ذلك أن تلك الفتاة لعبت أدواراً شديدة التأثير والخطورة منذ أن كانت في باريس واستطاعت هناك أن تنفذ إلى مجتمع الشباب الجزائري إلى حد دفع المخابرات المصرية إلى الدخول معها - أو مع الموساد بتعبير أدق - في جولة دفعت تلك الفتاة الزرقاء العينين في النهاية ، وبعد صراع شاق استمر قرابة عامين ، إلى مغادرة باريس والإختفاء لفترة عادت بعدها للظهور في روما ... لتبدأ على الفور جولة أخرى أكثر عنفاً ، جولة منيت فيها المخابرات الإسرائيلية بهزيمة دفعتها إلى إعادة لويز إلى تل أبيب .

ولقد أدرك الرجال عندما طال اختفاء لويز في تلك المرة الأخيرة أن شيئاً ما وذا طبيعة خاصة يُدبّر في الخفاء ، وإنها ستعود إلى الظهور إن أجلاً أو عاجلاً ، ولكن - بالطبع - في ثوب جديد !

ولابد لنا من الإعراف بأن لويز كانت تملك براعة لاشك فيها ، إذ أنها عندما عادت إلى النشاط في هامبورج ظلت شهوراً طويلة تمارس عملها في تلك الشركة الأمريكية للسياحة دون أن يشعر أحد بوجودها ... ولم يكن هذا راجعاً إلى أسلوب التخفي المتقن - والشديد البساطة - الذي لجأت إليه من حيث تغيير لون الشعر وتسريحته ، ووضع نظارة طبية غيرت ملامحها فقط ، بل حتى في أسلوب حياتها اليومية ...

وعندما التحقت شيرلي هايمان بفرع الشركة الأمريكية في هامبورج ، كانت قادمة من نيويورك حيث كان لها هناك ملف كامل في فرع الشركة الرئيسي ، ملف يحكي قصة إلتحاقها بالشركة والدرجات العلمية التي حصلت عليها والوظائف التي شغلتها ، والجامعة التي تخرجت فيها ... إلى آخر كل هذه المعلومات التي من السهل تزييفها ... ولم يكن هذا أيضاً هو الذي أبعد عنها الأنظار فقط ، فلقد كان الرجال يعرفون أن مثل هذه المعلومات من الممكن تلفيقها بسهولة بالغة ... لكن الذي لم يلفت نظرهم إليها ... هو أن تصرفات مس هايمان بدت شديدة الإستقامة ... لم يكن لها - لشهور طويلة - علاقات أو صداقات مشبوهة ... حتى شوهدت ذات يوم في صحبة فريدريك بيكر الذي كان معروفاً للرجال ، كما كان معروفاً للبوليس الألماني !!! كموزع للمخدرات في الميناء يعمل لحساب عصابة أحكمت سيطرتها على هذه التجارة في تلك المدينة الألمانية الصاخبة والمليئة بالمخاطر !

كانت هامبورج في تلك الأيام تعج بالشباب العربي والمصري خاصة ... شباب حظ رحاله في ذلك الميناء الألماني بحثاً عن المال أو المستقبل أو الذات أو ... أو العلم !

... ..  
... ..

هكذا كانت هامبورج في تلك السنوات المفعمة بالخطر . . .

وفي الحقيقة - هكذا اعترف لي عادل مكى فيما بعد - إن أمر علاقة شيرلي هايمان - أو لويز جولدمان - بذلك الفتى الألماني فريدريك بيكر ، لم يلفت النظر . . . فلقد كان هذا الشاب الخطر شديد المرح ، وسيم الوجه أنيق الملابس حلو المعشر جذاباً له علاقات كثيرة ومتشعبة يحتملها عليه عمله . . . كانت له علاقات بالعديد من عمال الميناء والبحارة . . . كما كانت له علاقات منتظمة بمواطنين مهمين في شركات كبرى ذات سمعة عالمية ، كما كانت له علاقات بطلبة وطالبات وقعوا جميعاً تحت تأثير المخدر . . . ولذلك وعندما شوهدت شيرلي هايمان مع فريدريك بيكر عدة مرات ، بل عندما لوحظ أن لقاءاتهما كانت تتم في أماكن غير مزدحمة ، وفي أركان تكاد تكون خالية من الناس . . . فلقد وضع الأمر تحت احتمال بدا منطقياً للغاية ، وهو أن تكون مس هايمان ذات الحياة الهادئة المستقيمة ، قد وقعت بشكل ما تحت تأثير المخدر ، ولذلك . . . فهي تحرص على أن تكون لقاءاتها مع فريدريك بعيدة عن العيون حتى تظل سمعتها فوق مستوى الشبهات !!

وعلى كل . . . فالذي حدث بعد ذلك بأسابيع كان لافتاً للنظر . . . وكان لا بد من أن يلفت النظر !!

\* \* \*

فعندما التقى نبيل سالم ذلك اللقاء الغريب بأبي سليم - ذلك التاجر السوري ذي الحافظة المنتفخة بالمال - بات ليلته وقد امتلات معدته بالطعام ، كما امتلأ رأسه بالأحلام . . . نسي في غمرة ما حدث في تلك الليلة أن يسأل أبو سليم متى سيلقيه . . . وعده هذا بعمل مجز ووظيفة محترمة ورزق وفير ، ثم غادره وهو يصيح فيه إنه لا بد من أن يلتقي به في اليوم التالي كي يتحدثا في أمور العمل . . . غير أن نبيل ، وقد استيقظ في الصباح ، اكتشف أنه لم يسأل الرجل عن موعد ولا مكان اللقاء فكاد يجن قلقاً . . . لقد التقى بالرجل في حانة وتناول العشاء معه في حانة أخرى . . . فأى الحانتين كان يقصد أبو سليم هذا ؟!

بالرغم من ذلك ، فإن نبيل سالم لم يركن لليأس بل تشبث بالأمل تشبث

الغريق بقشة صادفته فوق سطح حياة صاخبة ممزقة . . . فلم يذهب للعمل يومها ، فضل أن يركن للراحة ذلك اليوم حتى يلتقي بالرجل صافي الذهن سليم القدم ، وحتى يجد وقتاً يغسل فيه قميصه ويهضم ملابسه . . . حتى إذا جاء المساء ، ذهب إلى الحانة الأولى مكث ساعة وبعض الساعة ، ثم انتقل إلى الحانة الثانية . . . وهكذا ظل نبيل سالم طوال تلك الليلة ينتقل من حانة إلى أخرى بحثاً عن أبي سليم ، دون أن يعثر له على أثر ، ودون أن يدري أن ثمة عيوناً كانت ترصد كل حركة من حركاته وأذناً تستمع إلى كل سؤال يسأله ، يعقلاً تحسب بدقة شديدة ، ذلك القلق المروع الذي انتابه !

لم يعلم نبيل بطبيعة الحال شيئاً عن هذا ، ولقد عاد إلى غرفته مهدود الحيل ، عاد بعد منتصف الليل وكان الجوع يعض معدته فراح يبحث في ظلام الطريق ، وخلف المطاعم عن شيء يتبلغ به . . . حتى إذا دخل الغرفة فوجيء بواحد من التزلاء كان لا يزال مستيقظاً ، يخبره أن ثمة شاباً يدعى فريدريك بيكر قد جاء منذ ساعتين وسأل عنه !

واندفع نبيل مغادراً البيت مرة أخرى بحثاً عن فريدريك ، كان تورم قدمه يزداد مع كل خطوة يخطوها لكنه ظل معظم الليل يدور على تلك الحانات والأماكن التي تعود فريدريك التردد عليها . . . لكنه أيضاً لم يجد فريدريك !

في اليوم التالي ، لم يكن أمامه سوى العودة إلى عمله في ذلك المطعم الصغير !

ومر يوم . . . ويومان . . . ثم علي غير انتظار وعندما بلغ اليأس به مداه ! فوجيء نبيل بفريدريك يقف أمامه باسم !

وانفجر نبيل فيه معاتباً !

انطلقت الكلمات من فمه بعنف لم يستطع السيطرة عليه ، كطلقات مدفع رشاش راح يصيح في وجه صديقه الألماني بكل ما أسعفته به لغته الألمانية العرجاء كقدمه . . . كان الآن في حالة يرثى لها من التعب والإرهاق وخيبة الأمل . . . أكثر ما كان يمزقه ذلك الخطاب الذي وصله بالأمس من سامية ،

ذلك الخطاب الذي تحدث فيه عن نجاحاتها وحياتها وأملها في أن تلقاه قريباً ، والذي ضمته بضع صفحات مزقتها من مجلة « الفجر » التي تعمل فيها ، وكانت الصفحات تحوي تحقيقاً صحفياً كتب فوقه اسمها بالخط الكبير لأول مرة . . . في رأس الصفحة طالع نبيل اسم حبيبته سامية فهمي تحقق : كيف مات المستشار . . . وكان التحقيق حول حادثة مروعة لسيارة في طريق السويس الذي اشتهر في تلك الأيام في الصحافة المصرية باسم « طريق الموت » لكثرة الحوادث التي وقعت فيه . . . لم يقرأ نبيل من الخطاب إلا سطوراً تحولت إلى سياط تلهب ظهره ، لكن عينيه راحتا تلتهمان سطور التحقيق الذي بدت فيه سامية واثقة الأسلوب ثابتة الخطى ، كانت تكتب وكأنها واحدة من نجوم الصحافة المصرية . . . ولم يحتمل نبيل ، مع ما كان يعانيه في ذلك اليوم فمزق الخطاب والتحقيق معا !

... ..  
... ..

تلقى فريدريك بيكر ثورة نبيل سالم باسماء . . . كان متوردد الوجه أنيق الملبس لامع البشرة مرح النظرات ، ظل الشاب الألماني صامتاً حتى انتهى نبيل من ثورته ، ثم قال بصوت ثابت :

« لم كل هذا الغضب يا صديقي ؟ »  
« أين كنت طوال تلك الأيام ؟ »

ضحك فريدريك ضحكة ساخرة وهو يقول :

« إنه العمل يا نبيل . . . إنه العمل ! »  
« ألسنت صديقي ؟ »  
« ولهذا سألت عنك ! »

« ولم لا تبحث لي عن عمل معك ؟ ! »

مز فريدريك كتفيه استخفافاً وهو يقول :

« لأنك لم تطلب ! »

وبدت إجابة فريدريك طبيعية للغاية . . . تعلم نبيل الكثير عن هؤلاء الأوروبيين الذين يتعاملون مع الآخرين ، حتى ولو كانوا أصدقاءهم أو إخوانهم ، من منطلقات تختلف عن تلك التي يتعامل بها العرب أو الشرقيون . . . أفحمته الإجابة لكنه لم يتراجع عن إنفعاله فصاح :

« وما أنا اطلب منك أن تبحث لي عن عمل ! »

« لكن عملي محفوف بالمخاطر ! »

« ألا ترى حقارة الوظيفة التي التحقت بها ؟ ! »

« لكن عملي محفوف بالمخاطر ! »

هكذا أعاد الشاب الألماني جملته مرة أخرى وفي تأكيد لا يقبل الشك ، فصاح نبيل في تحد :

« ولسوف أقبل حتى ولو كان عملاً في الجحيم !! »

رمى فريدريك نبيل بنظرة أوقعته في الحيرة فعاد إلى الصباح :

« إنني أطلب منك عملاً يا فريدريك ! »

« هل أنت جاد فيما تقول ؟ ! »

« لم أكن جاداً في حياتي مثلما أنا جاد الآن ! »

« لو أنك خطوط خطوة . . . خطوة واحدة فلن تستطيع التراجع ! »

« لن أراجع ! »

« ألا تريد أن تفكر في الأمر ملياً ؟ ! »

« لقد فكرت ! »

« ألا تريد أن تعرف طبيعة هذا العمل ؟ ! »

« أنا لا أريد إلا أن أردي ملابس مثل ملابسك ، وأحيا حياة مثل حياتك ، وأن أجد طعاماً يقيني شر الجوع والبحث عن لقمة نظيفة في فضلات الناس ! »

بعد لحظة صمت لم تطل ، قال فريدريك :

« إذن . . . تعال معي ! »

وتبعه نبيل سالم دون كلمة .

\* \* \*

وسال الدمع مع الحزن دون كلمة ، فقط . . . سال دمع السيدة إقبال حسين ناظرة مدرسة النصر للبنات . . . مضت لحظات صمت شحب فيها وجه سامية . . . بالأمس ، وحتى الأمس فقط ، كانت تستطيع أن تخبر أمها ، أن تشكو لها مهما . . . حتى الأمس ومنذ عادت من تلك الرحلة المشؤومة من أجل سيارة لم تأت ، كانت تستطيع أن تقول وأن تبوح وتناقش . . . لكنها اليوم ، بل الآن فقط ، وبعد أن التقت بعادل مكي . . . لا تستطيع !!

« أنا مش محتاج أقول لك بلاش حد يعرف بزيارتك دي ! » .

« حاضر ! » .

« ولا حتى ماما ! » .

« هذا هو ما دار بينهما من حوار قبل أن تنصرف عنه مضعضعة الحواس والجسد ، هذا الرجل الذي تقطر كل جارحة من جوارحه بكل المخاوف رغم أنه لم يقل شيئاً . . . هذا الذي حمل صوته إليها تحذيراً يبدو كحد المقصلة . . . فماذا هي صانعة ؟ ! »

نهضت من مكانها ، خطت نحو أمها ، الوجه الحزين والجمال الشاحب والعمر الذي ضاع فإذا دمعها يتجاوب مع دمع أمها في حوار لا تعرف لغته سواهما ، وإذا رأسها يعيل كي يستريح فوق الكتف الحاني ، وإذا اليد الحنون تنسحب إلى الشعر فتخلله ، وإذا كل منهما تضم الأخرى في حنان . . . و . . . ولا كلمة !!

\* \* \*

« أنا مش عاوزة اضغط عليك عشان تقولي لي إيه اللي بيكي . . . بس أنا عاوزة أكون جنبك لما تحتاجي لي ! » .

ناظرة هي دائماً ، مربية حتى وهي تمارس أمومتها . . . ولقد قالت لها أمها هذا الذي قالته ذات يوم بعد عودتها من إيطاليا بأقل من أسبوع ، قبل أن تنسحب إلى شيء ، قبل أن تعي ما حدث وما كانت مقدمة عليه . . . قالت لها ما قالت والشكوك لا تزال نطفة في رحم تفكيرها لم تتخلق بعد . . . عادت وهي تتظاهر

## == الفصل الرابع ==

### سامية تأسرها جزائرية !

قضت سامية فهمي ليلة عصبية بحق ، كانت - لأول مرة في حياتها - لا تعرف بالضبط إلى أين تسير ، أو ربما - هكذا قالت لي بعد سنوات - إن سر عذابها في تلك الليلة ، أنها أدركت أكثر من أي وقت مضى ، إلى أين يجب أن تسير !! . . .

راحت تتذكر هذا الذي حدث في إيطاليا ، راحت تتذكر - بلا جهد يذكر - كيف كان نبيل ، كيف استقبلها ، وكيف قادها إلى « البرتو » سمسار السيارات ، وماذا فعل معها السمسار ، وكيف تغاضى نبيل عن تصرفاته ، وكيف هو الأمر عليها ، ثم . . . كيف التقيا بمصادفة بدت لها - بشكل غامض - مزيفة في مطعم البيترزا الشهير بالسنور جارديني صاحب وكالة « ال . أم . دي » وكيف رحب هذا بها . . . وكيف وكيف وكيف . . . و . . .

« مالك يا سامية ؟ ! » .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تسألها فيها أمها عما بها . . . ربما كانت المرة العاشرة ، أو الألف لا تدري . . . لم تعد تدري بل هي لا تريد أن تعرف أو تدري . . . رفعت رأسها نحو أمها ، زحف الشيب إلى الشعر الفاحم ، أضاعت هذه السيدة عمرها من أجلها ، حرمت نفسها من الحياة ، رهنّت زهرة العمر كي تربيها ، مضت لحظات صمت سالت فيها نظرة الأم مفعمة بالحزن والأسى .

« قلقانة عليّ يا ماما ؟ ! » .

بالسعادة ، بل كانت تظن أنها سعيدة ، وصدقت ما قالته للناس من أن الإيطاليين عرفوا غرام المصريين بالسيارات المستعملة فاستخرجوا من مقابر السيارات كل هالك ومستهلك وعرضوه في الاسواق ... قالت لأمها إنه لولا نبيل لوقعت في سيارة لا تستحق ربع ما كانت ستدفعه فيها ، قالت لها إنه تعب معها ، لف ودار وعابن وشاهد وناقش وفاصل ثم طلب منها أن تصبر حتى يجد لها ما يناسبها سعراً وقوة احتمال ... قالت لها ، ولأصدقائها وصديقاتها كيف أصبح يتقن الإيطالية كأحد أبنائها ، وكيف أتقن الألمانية من قبل ، وكيف يعمل وكيف يكسب وكيف يحبه كل الذين التقت بهم ورأتهم ... قالت كل هذا لأمها لكن نظرة الشك لم تغادر عيني تلك السيدة ... مزقت نظرات أمها رداء حيرتها ، كشفت - رغم كل هذا - إحساسها الدفين بخيبة الأمل ... هي تعرف أن « حضرة الناظرة » لا تثق في نبيل ولا توافق عليه ولا تأمن إليه ... ولطالما ثارت بينهما المناقشات حامية الوطيس واحتدم بينهما الخلاف حول نبيل ، ثم جاء يوم وصلا فيه إلى طريق مسدود فاتفقتا على « وقف إطلاق النار » والكف عن مناقشة الموضوع ... ترى : هل انتصرت حضرة الناظرة أخيراً ... وهل انهزمت هي أمام قلب الأم وخبرة المربية !!؟

يوم عادت ، وبعد أن قصت وحكت وفتحت الحقائق وقدمت الهدايا وتراقصت الكلمات على شفتيها فرحاً وأملأ ... كان وجه أمها جامداً ، وعيناها تصبان عليها نظرات كاللهب . هتفت :

« مالك يا حضرة الناظرة ؟! » .

إبتسمت السيدة إقبال تلك الإبتسامة الحادة :

« إنتي اللي مال لك يا سامية ! » .

« قل !! » .

هكذا هتفت .

« كدابة ! » .

وهكذا جاءها الرد ... فهربت !!

وظلت سامية فهمي تهرب ، يوماً وأسبوعاً إثر أسبوع ... وها هي اليوم وجهاً لوجه مع « أبله الناظرة » ودموعها تنهمر كالمنطر ... مسحت دموع أمها ، ومسحت دموعها بعد أن اختلط الدمع والخد فوق الخد ، والشفاه تقبل اليد ، والذراع يضم والقلب يضطرب بحب يفوق الحد ...

وتركت السيدة إقبال نفسها لابتتها ، راحت تنظر إلى وجهها الشاحب ، إلى عينيها الضائعة النظرات وهي تتساءل : ما الذي حدث لابتتها في إيطاليا ؟! ... ومن أين اكتسبت سامية تلك النظرة الكابية ؟! ... أين ضاع بريق عينيها ونظراتها المتألقة حتى في أحلك الظروف ... هل اكتشفت أمر نبيل ووقفت على حقيقته أم أن هذا الشاب استطاع أن ... أن ... أن ...

لا ...

مستحيل ...

لا يمكن ...

ليست هذه سامية ولن تكون !

هي واثقة من ابتتها ثقتها من نفسها ... فما الذي حدث إذن ؟!

كانت السيدة إقبال حسين ناظرة مدرسة النصر للبنات واثقة من أن هناك شيئاً قد حدث ... شيء لا تعرفه وقد لا يخطر ببالها ... لم تعد تعرف ، ولم تعد تستطيع أن تعرف ... هل ذهب عرق العمر سدى ... ؟! توفي زوجها في الخامسة والعشرين ، وكانت سامية في الخامسة ... عشرون عاماً هي الفرق بينها وبين إبتتها ... عشرون عاماً هي الفرق باليوم ، فلقد ولدت سامية في نفس اليوم الذي ولدت فيه الأم ... ومنذ وفاة الزوج ، وحتى أصبحت سامية صحفية ، وحتى سرى اسمها على الألسنة ، وهي تحيا من أجلها ، ترى في كل فتاة علمتها حرفاً صورة من إبتتها ...

ذات يوم سألها أحد أولياء الأمور :

« حضرة الناظرة ، ممكن أسألك سؤال ؟! ... » .

« إنفضل ! » .



« أكيد فيه سر ورا إخلاصك الشديد ده لشغلك ! » .

« معاك حق ! » .

هكذا كانت دائماً ... مستقيمة الحديث ، وهكذا كانت سامية أيضاً ..

سأل الرجل :

« أقدر أعرف السر ده ؟ ! » .

« جداً ! » .

لم يَفُ الرجل بكلمة ، وأطرق هي لثوان قالت بعدها :

« أنا باحس إن كل بنت في المدرسة هي سامية بتي ... جوزي توفي فجأة ، وهو واقف توفي ، جت له سكتة قلبية راح فيها في ثواني ... من ساعتها وأنا باحس إن الموت قريب متنا قوي ، أقرب من أي تصور يخطر ببال أي حد فينا ... وباقول ، لو حصل ومت زي المرحوم فهمي ما مات ، نفسي سامية تلاقي اللي يعاملها زي أنا ما باعامل بناتي !! » .

كانت تبتسم ، لكن الدموع صعدت إلى عيني الرجل الذي ألجمه الانفعال ، ظل صامتاً لثوان كان يغالب فيها الدمع . ثم نهض فجأة وهو يقول بصوت متهدج :

« ربنا يديكي طولة العمر ، وتشوفها زي ما انتي عاوزة لها ! » .

وانفلت مهرولاً كي يخفي دموعه التي غلبته !

... ..

... ..

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً ، وكان لابد لسامية أن تأوي إلى فراشها كي تصحو مبكراً لموعدها مع عادل مكى ... ثم ، كان عليها أن تكتب موضوعاً للمجلة التزم بتقديمه في اليوم التالي ... ولقد حاولت ، منذ عادت من مبنى المخبرات وهي تحاول ، سألتها أمها أين كانت طوال اليوم ، فقالت :

« كان عندي ميعاد مهم قوي يا ماما ! » .

رغم غموض الرد فلم يكن الأمر غريباً ، ومنذ أن انضمت سامية إلى التنظيم الطلابي ونشاطها يتعدى عملها الصحفي إلى العمل العام ، إلى الشارع والناس ومحو الأمية والمشاكل والجمعيات والاتحاد الاشتراكي ... وتعودت الأم ذلك النشاط ولم تنكره على إبنتها ... وفي ذلك المساء الذي عادت فيه سامية من مبنى المخبرات العامة المصرية ، كان وجهها ينضج بتعب بلا حدود ... حاولت الأم أن تستشف ما وراء هذا الكمد الرابض فوق الوجه المليح فلم تستطع ، جاءها رد إبنتها فتقبلته في صمت ... نهضت سامية إلى غرفتها وجلست إلى مكتبها الصغير وكانت تشعر أن رأسها يزن أطناناً من الأفكار ... تحسست المكتب في رجاء لم يفلح ... هذا المكتب الذي لازمها منذ كانت في العاشرة فأصبح جزءاً من أفكارها وتفكيرها ، أخرجت السورق وأمسكت بالقلم وحاولت أن تكتب فاختلطت في رأسها الأفكار واحتدمت ، أدركت أن لا فائدة فآلقت بالقلم ونهضت إلى التليفون ، طلبت أحمد مختار في مكتبه فصاح مرحباً قدر سماعه بصوتها :

« إنتي فين يا أستاذة ؟ ! » .

« مش عارفه أكتب ! » .

« ماتكتبيش ! » .

« ممكن أطلب إجازة ؟ » .

« من غير إجازة ! » .

ترددت قليلاً ثم غمضت :

« حاحاول أقوم بدري وأكتب الموضوع بكرة ! » .

« ما تتعبيش نفسك ! » .

رفضت مجاملته الزائدة فهتفت : « أنا كويسة يا أستاذ أحمد ! » .

« أنا على يقين من ده ! » .

لطفت حرارة حديثه من اشتعال النار في صدرها ، أنهت المكالمة وعادت إلى أمها ، جلست إلى جوارها وهمست في لوعة :

« ماما ! » .

« نعم يا حبيبي ! » .

« احضنيني ! » .

وفتحت الأم ذراعها ، وألقت سامية برأسها فوق الصدر الذي طالما احتواها بدفته وحنانه ، مضت لحظات صمت إستمعت فيها إلى دقات قلب أمها ، تلك الدقات التي كانت تسعدها صبية . . . هناك ، بعيداً في عمق الزمن عندما كانت الدنيا بلا مهالك . . . غمغمت والندم يزحف إلى عينيها :

« إزاي أنكل محمود ؟ ! » .

« قلقان عليكى ! » .

« مش حاتتجوزوا بقى ؟ ! » .

« لما تتجوزي إنتي ! » .

« إنتي لسه بتتقي في ؟ ! » .

« أكثر من أي وقت ثاني ! » .

« لو قلت لك حاجة تصدقيني ؟ ! » .

« ميه في الميه ! » .

« ماتخافيش عليّ !! » .

وجاءتها الإجابة . . . ذراعا الأم تضمانيها في حنان ، فاحتواها النوم غالباً . . . وعندما انتهت من غفوتها ، كان صوت المؤذن يسبح في سماء الحي منادياً لصلاة الفجر ، وكانت رأس الأم قد سقطت فوق صدرها . . . كانت هي الأخرى ، قد نامت !!

\* \* \*

قال لي عادل مكي بعد ذلك التاريخ بسنوات عديدة . . . إن أعظم ما لفت نظره في سامية ، شجاعته النادرة في مواجهة الحقائق . . . وإنه عندما عرف علاقتها ببنييل سالم ، واكتملت الصورة أمامه . . . لم يكن لديه شك في أنها سوف تخطو ذات يوم في الطريق الصحيح . . . ذلك أن السيدة إقبال حسين كانت واحدة من مدرسات إبنته الكبرى ، وإنه ، عندما شبت إبنته الصغرى عن الطوق ، أبى إلا أن يلحقها بالمدرسة التي كانت إقبال حسين ناظرة لها . . .

قال : إن الأمر كان منطقياً للغاية . . . وإذا كان الآباء ، وهو واحد منهم ، كانوا يتسابقون كي يضعوا بناتهم أمانة في يد سيدة كهذه . . . فلا بد وأن تكون إبنتها من نوع من البشر لا يقبل للفساد أن يتسلل إليه . . . ولقد كان كل ما أرقه وأقلقه . . . إنه عندما حسب الحسبة - هذا تعبيره بالضبط - أيقن أن سامية لا بد وأن تطلب مقابلته قبل الموعد الذي طلبت فيه اللقاء بكثير . . . قال : إن الإنسان قد يصل إلى دقة شديدة في حساباته بالنسبة لآلة أو مسألة اقتصادية أو جرم سماوي ، لكن الدقة في حسابات النفس البشرية ، أمر يصعب التيقن منه !

كان عادل مكي فخوراً وهو يحكي لي عن سامية فهمي !

قال : إنها عندما جاءت إليه في اليوم التالي ، بدت كمن كبر عشرة أعوام في ليلة واحدة . . . وإنه عندما طلب منها تأجيل الحديث ، كان مدركاً لعنف الصراع الدائر في رأسها . . . أدرك ، وقد تأخرت سامية شهرين وبعضاً من الشهر الثالث . . . أن حبها لبنييل سالم كان من القوة والعنف بحيث أصبح من الصعب عليها أن تصرح ، حتى لنفسها ، بالحقيقة التي اكتشفتها بنفسها ولم تعد في حاجة لأن يكشفها لها أحد .

عندما جلسا معاً ، وعندما وُضع بينهما فنجان القهوة ، سألتها :

« إيه الأخبار ؟ ! » .

« تعبانة قوي يا عادل بيه ! » .

« أكيد !! » .

« عاوزني أبدأ منين ؟ ! » .

« وابتسم ، فهتفت محتجة : »

« يا أخي ممكن تبقى حنين علي شويه ؟ ! » .

« وهو أنا قلت حاجة ؟ ! » .

« عاوزني أبدأ منين ؟ ! » .

« من الأول خالص ! » .

في لوعة من يريد الخلاص حتى من نفسه اختنقت :

« أتى أول فيهم ١١٩ » .

وكانت هذه هي المشكلة التي راح عادل مكى يتحسس طريقه إليها ، لم يكن ممكناً أن يبدأ هو بذكر نبيل سالم ، بل ... لم يكن ممكناً حتى بأن يُلَمَّح بأنه يعرفه أو يعرف عنه شيئاً ... إن المشكلة هنا تتعدى حدود العواطف والأحاسيس والتقدير الشخصي إلى أمن دولة وأمان شعب تسعى قوى الشر إلى تحطيمه والسيطرة عليه ... قال لي عادل مكى إن النكسة كانت صدمة مروعة بالنسبة لمن كانوا مثله رغم أنهم كانوا يرون بشائرها وقد حذروا منها لكنها أيضاً ، كانت ذات فوائد عظيمة لمن استطاع أن يتعمق الأمور ويزننها بميزان دقيق ... قال - وهو يضحك - إن كثيرين من أعضاء التنظيم الطليعي تحدثوا كثيراً عن « الدروس المستفادة » دون أن يدركوا عمق التعبير الذي كانوا يستعملونه ... وكان أعظم الدروس المستفادة من النكسة ، إن أي شعب في الدنيا لا يتطور إلا بالتجربة التي يخوضها أفرادها بذواتهم ... ولذلك ، كان على سامية فهمي - حتى يقطع الشك باليقين ، وحسب قانون صارم لا يمكن تحت أي ظروف تجاوزه - أن تخطو وحدها ، وباختيارها المطلق إلى حيث كان يجب أن تخطو وتسير ... كان عليها أن تواجه الحقيقة كاملة مواجهة صريحة لا لبس فيها ولا غموض !

ولكن ... كيف السبيل ؟!

كان هذا السؤال الذي أرقه طوال تلك الليلة وفي رأسه مشاغل أخرى بلا حدود ... وها هو صوت سامية وكأنها تخطو فوق سطح مياه شديدة العمق والخطر :

« أصل ... أصل أنا لما سافرت إيطاليا ، كنت رايحة لخطيبي ! » .

واجتاحت السعادة جوانح عادل ، ها هي تكسر حاجز الحب ... وها هو يستمع إليها تحكي عن خطيبها هذا الذي يعرف عنه أكثر مما تعرف هي بكثير ... بكثير جداً !

\* \* \*

عندما طلب فريدريك بيكر من نبيل سالم أن يصحبه ، وعندما صحبه دون كلمة ، كان يخطو خطوته الأولى في الطريق الوعر الذي سار فيه متقللاً من مرحلة إلى مرحلة في وعي واضح ... كان كل ما يعنيه الآن أن يملك مالاً ، وأن يبعد شبح الفشل حتى ولو كان النجاح مزيفاً !

قاده فريدريك في تلك الليلة إلى شقة صغيرة تطل على شارع من أهم شوارع المدينة ... ولقد كان السؤال الذي يحير نبيل دائماً هو : من أين يأتي فريدريك بهذا المال الذي يتفقه في بذخ ... ولقد حاول ذات يوم أن يسأل صديقه الألماني لكن هذا لم يجبه ، وعندما ألح نهره فريدريك بعنف وصلف فإذا هو إنسان آخر ، إذا به رجل قاسي الملامح صلب الوجه حاد النظرات :

« لا تسأل عما لا يعينك ! » .

واكتفى نبيل - منذ ذلك اليوم - بالصمت ، اكتفى بصحبة الشاب الذي كان يسد احتياجاته من طعام وشراب ، ثم ... ها هو يدلف إلى مسكن صغير أنيق يشي كل ركن فيه بذوق رفيع ، دارت رأس نبيل وهو يتذكر تلك الغرفة الحفيرة القذرة التي تجمعهم كل ليلة مع أربعة من الشبان لا يعرف أحدهم الآخر ، والذين كانوا يقاسمونهم أرضها وجدرانها ويتشاجرون فيها من أجل بضعة سنتيمترات ... قاده فريدريك ، أول ما قاده في الشقة ، إلى الحمام :

« عليك أن تستحم أولاً حتى تتخلص مما علق بجسدك ! » .

اندفع الدمع إلى عيني نبيل ، فمع إحساسه بالضعة أمام فريدريك ، فلقد كان العهد قد طال به منذ دخل حماماً لآخر مرة ... وكان الشوق قد طال إلى ملابس تستر خيبته وفشله !

« ستجد في الدولاب بعض الملابس عليك أن تستعملها حتى نشترى لك ملابس جديدة ! » .

نظر نبيل إلى صديقه في امتنان ، فابتسم هذا منبهاً :

« ولا تنسى وأنت تستحم ، إنك قبلت العمل حتى في الجحيم ! » .

هَمَّ نبيل بسؤاله عن طبيعة العمل ، لكن فريدريك أردف :

« قبل ان تخطو خطوة ، عليك أن تكون مستعداً ! » .

لم يفهم نبيل فاستطرد هذا :

« أي تكون مستريحاً صافي الذهن ! » .

في تلك الليلة أكل نبيل كما لم يأكل في حياته ، ونام كما لم يعرف للنوم طعماً ، طلب منه فريدريك ألا يغادر البيت حتى يأتي الطبيب ويكشف على ساقه المتورمة ، عندما همَّ بمغادرة البيت سأله نبيل :

« متى ستعود ؟ ! » .

« لن أعود الليلة ، فليس في البيت سوى غرفة واحدة للنوم ! » .

« إذن فكيف . . . . . » .

رفع فريدريك يده آمراً فانصاع نبيل وصمت ، في صوت كحدُّ السكين قال الشاب الألماني :

« عليك أن تتعلم فضيلة الطاعة دون سؤال ! » .

في الصباح التالي جاء الطبيب وكتب دواء ونصح نبيل بالراحة لثلاثة أيام قضاهما في مشاهدة التلفزيون والنوم . . . اشترى له فريدريك ملابس داخلية وحذاء وثلاث قمصان وبذلة ، في اليوم الثالث سأله :

« هل أنت مستعد ؟ ! » .

« ماذا تقصد ؟ ! » .

« عليك أن تقابل الرجل الكبير ! » .

ولم يكن نبيل سالم يعلم ، أن هذا الرجل الكبير الذي ظل يستعد للقاءه ثلاثة أيام كاملة ، ليس سوى ، أبو سليم ، ذلك التاجر السوري صاحب الحافظة المتخممة بالمال ، بلحمه ودمه !

\* \* \*

## الفصل الخامس

### لكل شيء ومنه !

لم تكن المعلومات التي توافرت لضابط المخابرات المصري « عادل مكي » عن نبيل سالم ، تمثل شيئاً جديداً عليه . . . ففي تلك الأيام التي أعقبت هزيمة ١٩٦٧ . . . نشطت المخابرات الإسرائيلية نشاطاً في محاولة لاستغلال ذلك التمزق الذي دفع أعداداً هائلة من الشباب المصري دفعاً إلى أوروبا . . . كانت إسرائيل في تلك الأيام تملك إمكانات بلا حدود ، واستطاعت الدعاية الإسرائيلية - في الغرب كله ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص - أن تحصل على المزيد من المساعدات والمكاسب فوق ما كانت تحصل عليه بالفعل ، مما أعطاهما إمكانات هائلة ، ولابد لنا من الاعتراف بأن المخابرات المصرية لم تكن تملك مثلها في وقت كانت البلاد فيه في حاجة ماسة إلى نل قرش !

وعندما جلست سامية فهمي ، في هذا اليوم التالي إلى عادل مكي ، وعندما كسرت حاجز الحب واعترفت بأنها سافرت إلى إيطاليا كي تلتقي بخطيبها . . . كان عادل يعرف الكثير عن نبيل وعمّا حدث له !

كان يعرف - مثلاً - أن الشاب الألماني موزع المخدرات فريدريك بيكر عندما ذهب إلى نبيل سالم في اليوم الثالث في تلك الشقة التي وضعه فيها في مدينة هامبورج الألمانية ، كان بصحبته فتاتان ألمانيتان باهرتا الجمال . . . وأن الجميع قضوا ليلة من تلك الليالي التي يسعى إليها بعض شباب العرب في أوروبا . . . وأنهم لم يكتفوا باحتساء الخمر ، لكنهم أيضاً دخلوا الماريجوانا . . . ولقد كان من الممكن أن تمضي الليلة على أحسن حال لولا



أن طلبت إحدى الفتاتين ، وكانت تدعى « مارتين » من فريدريك بيبكر طلباً بدا لنيل في أول الأمر غريباً . طلبت منه أن يعطيها حقنة ، فطالبها فريدريك - قبل أي شيء - بالثمن - واحتجت الفتاة بأنها لا تملك نقوداً . . . . . وأنها إنما جاءت معه لأنها لا تملك ثمن الجرعة التي تحتاج إليها هذا المساء . . . . . وهو ، هو بالذات يعرف أنها إن لم تأخذ تلك الجرعة فسوف تصاب بما لا قبل لها به . . . . . غير أن فريدريك أصر على الرفض ، فالتحت مارتين ، وازداد إصراره على أن تدفع الثمن أولاً . واحتدمت المناقشة بينهما ، ولعبت الخمر برأسيهما ، وتعالّت أصواتهما ، وهجمت مارتين على حقيبتها الجلدية الصغيرة التي لا تفارقه ليل نهار في عنف وشراسة - وكانت قد بدأت تلهث - وفتحت الحقيبة وراحت تبحث بمحتوياتها ، وتبعثرها . . . . . وأخذ فريدريك يحذرهما ويطلب منها أن تكف ، ولكنها راحت تصرخ وتبكي وتتوسل وترتجف وكأنها فقدت صوابها تماماً . . . . . وأخيراً . . . . . وعندما عثرت على حقنة طبية أخرجتها من الحقيبة ، جنّ جنون فريدريك وانقضّ عليها كي يتسرع منها الحقيبة ، ويهوي على وجهها بصفعة أطاحت بجسدها كي يرتطم بالحائط !

تحولت مارتين إلى مخلوق يرثى لحاله ، راحت دموعها تنهمر مع لعبها وتكومت على الأرض والتصقت بالحائط وراحت ترتجف ، تحولت ثورتها إلى استعطاف وتوسل وتأوهات مزقت قلب صديقتها التي لم تستطع احتمال ما كان يحدث فنهضت إلى حقيبتها وأخرجت بضع عشرات من الماركات الألمانية قدمنتها لفريدريك . . . . . تناول منها الفتى النقود وقد انبسطت أساريه وسرعان ما راح يعد الجرعة ، وسرعان ما راحت مارتين تزحف على الأرض حتى وصلت إليه حتى إذا انغرس سن الأبرة في لحم ذراعها سرى مفعول المخدر في جسدها . . . . . أخذ ارتجافها يخف ويسكن لحظة بعد أخرى . . . . . ودقيقة بعد دقيقة !

كان نيل يرقب ما يحدث أمامه صامتاً دون كلمة ودون أن يتدخل . . . . . بدا له الأمر غريباً ، بل إنه في لحظة من اللحظات ظن أنه يشاهد فيلماً سينمائياً عن الإدمان ، انعزل عن الجميع ، واستغرق فيما يحدث أمامه ، وقد أدرك - ولم

يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء - طبيعة العمل الذي وعده به فريدريك . . . . . كما أدرك - بما لا يقبل الشك - من أين كان هذا الشاب الألماني يأتي بالمال يبعثه أمام عينيه بلا حساب ، من أين له بتلك الملابس الفاخرة ، وتلك الحياة الباذخة . . . . . ثم أدرك ، وقد كان السؤال يطوف بذهنه في الماضي دون أن يهتم به أو يتوقف أمامه ، لم كان فريدريك بيبكر يؤم تلك المناطق الفقيرة ، حيث الحانات - وعمال الميناء ، والبحارة ، والضائعين من أمثاله !

في تلك الليلة ، وعندما عادت مارتين إلى حالتها الطبيعية ، رفضت البقاء . . . . . لم تكن في حالة نشوة ، بل هي حالة غريبة تلك التي رآها عليها نيل سالم ، هي حالة من الاستقرار ووضوح الرؤية . . . . . في البداية وبعد أن هدأت قليلاً ، نهضت إلى الحمام وأصلحت من حالها ، وأعادت مكياجها . . . . . ثم عادت إلى الجميع ، وكان فريدريك ، الآن مستغرقاً في مغازلة الفتاة الأخرى ، فإذا بمارتين تعلن أنها تريد الإنصراف وأنها لن تبقى . . . . . رفع هذا حاجبيه دهشة وهو يلتفت نحوها متسائلاً :

« ألم نتفق على أن نقضي الليلة معاً ؟ » .

ردت عليه وهي تخطو نحو الباب :

« لقد جئت معك لأنني لا أملك ثمن جرعة الليلة ! » .

« ثم ؟ » .

« ثم إنك أخذت ثمنها . . . . . فلم البقاء ؟ » .

هتف فريدريك في لا مبالاة :

« فلتذهبي إلى الجحيم ! » .

ولم تذهب مارتين وحدها ، بل ذهبت معها صديقتها إلى حيث لا يدري نيل سالم الذي ظل في مكانه صامتاً . . . . . ذاهلاً . . . . . كان فريدريك الآن يحسني كأسه دون كلمة وقد خلا البيت إلا منهما ، حتى إذا مضت دقائق ثقيلة ، همّ بالانصراف قائلاً :

« لسوف يراك الرجل الكبير غداً ! » .



حاول نبيل المقاومة ، هتف ...

« ألا تخبرني عن طبيعة هذا العمل الذي تريدني فيه ؟! » .

نظر إليه فريدريك نظرة شديدة البرود ، كان الشاب المرح الوسيم قد تحول الآن إلى رجل صارم النظرات متحجر القلب ... مضت لحظات قبل أن يقول وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ...

« ألم تعرف بعد ؟! » .

ألقى نبيل ببصره إلى الأرض مغمضاً ...

« ولكنني لا أعرف كيف ... » .

قاطعه فريدريك وهو يغادر الغرفة ...

« لكنك ستعرف ... ستعلم كل شيء !! » .

في تلك الليلة لم يأو نبيل إلى فراشه قبل طلوع النهار ... كان يفكر فيما هو مقبل عليه ، راح يسترجع علاقته بفريدريك منذ أن التقى به لأول مرة ، راح يسترجع ما شاهده من علاقات بين فريدريك والعديد من الناس من كل المستويات ، راح يسترجع تصرفاته وتلك النظرات التي كان يتبادلها أحياناً مع قوم يظهرون ثم يختفون فيختفي ... وفي الماضي ، لم يكن الأمر ليعنيه ... لكن الآن أصبح موقناً من الحقيقة ... إن عليه أن يعمل في توزيع المخدرات ، وما هو على موعد مع ذلك الذي أطلق عليه فريدريك اسم « الرجل الكبير » ... وكان عليه أن يختار ، أن يقرر ، وأن يتخذ قراره قبل طلوع النهار !!

\* \* \*

عندما استيقظ نبيل سالم في صباح اليوم التالي كان مضطجع الحواس والجسد معاً ... ظن - وهو لا يزال بين اليقظة والنوم - أن ما حدث بالأمس لم يكن سوى حلم أو كابوس ... لكنه الآن وقد جلس في الفراش وأشعل سيجارة ، كان عليه أن يواجه الحقيقة سافرة !  
لم يفكر نبيل ، ولم يخطر بباله ، أن ما حدث بالأمس - بما فيه تلك الحقنة

التي رآها بعيني رأسه تنغرس في لحم مارتين - لم يكن سوى تمثيلية متقنة لعب أبطالها أدوارهم أمامه ببراعة فائقة ، لم يفكر نبيل ولم يخطر بباله أن فريدريك بيكر عندما غادره كانت الفتاتان تنتظرانه في سيارته أمام باب البناية ، وأن الجميع راكحوا يطلعون الضحكات وهم يتذكرون منظره فاغر الفم مضطرباً يشاهد أداءهم المتقن بقلب واجف .

قال فريدريك وهو ينطلق بالسيارة في شوارع هامبورج ، وكان مرحاً سعيداً لأنه أدى المهمة التي أوكلت إليه على أكمل وجه .

« هل تصدقين يا مارتين أنني ظننت ذات لحظة أنك تتعذبين بالفعل ؟! » .

ضحكت مارتين وهي تصيح في سعادة ...

« إذن فعليك أن ترشحني عند الرجل الكبير فلعله يجد لي مكاناً في إحدى شركات السينما أو التلفزيون ! » .

تضاحك الجميع فعادت مارتين إلى الحديث ...

« ألا أستحق منكم هذا بعد كل هذه الخدمات التي قدمتها لكم ؟! » .

لم يخطر ببال نبيل ، أن الجميع في تلك الليلة احتفلوا بنجاح تمثيلتهم الصغيرة ، وأن مارتين كوفت على أداء دورها بعدد لا بأس به من الماركات ، أضيف إليها مبلغ محترم لقاء الصفعة التي هوت على وجهها والتي رأت تلك الفتاة الألمانية أنها وحدها تستحق مكافأة خاصة !!

لم يفكر نبيل في كل هذا بطبيعة الحال ، لكنه كان يفكر في شيء آخر ... كان يفكر فيما سيؤول إليه من فريدريك بيكر ... كان يفكر في أن عاماً وبعض عام قد انقضت منذ أن غادر مصر دون أن يحقق شيئاً . كان يفكر في تلك الغرفة التي تجمعهم مع أربعة آخرين ، وفي المطبخ الحقيقير لهذا المطعم الصغير القريب من الميناء ... والذي يقف فيه من الصباح حتى المساء وسط بقايا طعام الزبائن والرائحة العفنة التي يستنشقها طوال اليوم ... وكان يفكر ، قبل كل شيء فيما لحقه من فشل ، وفيما آلت إليه سامية من نجاح ، وفيما يمكن أن يقال عنه إذا عاد إلى مصر خائباً خالي الوفاض ... كان يفكر إن كانت

سامية - الآن - سوف تقبله وقد أصبحت مشهورة معروفة لها مكانتها في المجتمع ...

ظل نبيل طوال اليوم يتقلب على نار أشعلها إحساسه المضني بالفشل ، وتوجسه مما هو مقدم عليه ... وحتى وصول فريدريك بيكر قبل غروب شمس هذا اليوم ، لم يكن نبيل سالم قد اتخذ قراره بعد !!

... ..  
... ..

في صلفٍ وتعالٍ سألَه فريدريك .

« هل فكرت في الأمر » .

أجاب نبيل :

« فريدريك إننا قبل أي شيء صديقان وما أريد أن ... » .

قاطعه هذا :

« لا دخل للصدقة في العمل يا نبيل ، العمل هو العمل ! » .

« أعرف هذا ... إني فقط أريد أن أسألك كصديق سؤالاً ! » .

« ما هو ؟ ! » .

« أليست هناك مخاطر ؟ ! » .

« لكل شيء ثمن ... » .

« أنت تعرف أنني ... » .

تململ فريدريك في جلسته وهو يهتف :

« نبيل ، لقد تحدثت عن الصداقة ، فما رأيك لو ظللنا صديقين فقط ،

ونسينا كل شيء آخر ؟ ! » .

صاح نبيل محتجاً ...

« ألا تقبل المناقشة ؟ ! » .

عاد الوجه الجامد والنظرات الباردة والصوت الحاد والعجرفة :

« في مثل هذه الأمور أيها الشاب لا يحتمل الأمر مناقشة أو تردداً ! » .

همُ نبيل بالحديث فأردف فريدريك :

« هل تعرف معنى التردد في مثل هذا العمل ؟ ! » .

قبل أن يجيب نبيل استطرد هذا :

« معناه أن تدخل السجن لعشر سنوات على الأقل ! » .

دق قلب نبيل بعنف ، فعاد فريدريك إلى الحديث :

« وقد يكون معناه أن تقضي بقية عمرك وراء القضبان ! » .

أحس نبيل برغبة حارقة في الصراخ ، وكان هذا يهوي على رأسه بالكلمات :

« وقد يكون معناه أن يأمر الرجل الكبير بإرسالك في رحلة سريعة إلى العالم الآخر ! » .

قفز قلب نبيل سالم إلى حلقه ، اختنق صوته بغصة جاءت بعدها كلمات فريدريك كالمطرقة :

« نعم أم لا ... » .

« نعم !! » .

قالها نبيل في لهفة من يتعجل الموت ، قالها وهو يخطو إلى قدره الذي ابتغاه وأرادَه وعمل من أجله !!

\* \* \*

بالرغم من شجاعة سامية فهمي وقدرتها الواضحة على مواجهة الحقائق ، بالرغم من أنها ذهبت في ذلك الصباح التالي للقاء عادل مكّي ، وهي مصممة على مواجهة كل شيء والتخلص من هذا العبء مهما كانت النتائج ، فإن الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورتها !

في الصباح كان الصمت هو اللغة السائدة بينها وبين أمها ، ألقت كل منهما تحية الصباح على الأخرى ، ثم انصرفتا إلى عاداتهما اليومية ، حتى إذا اجتمعتا على مائدة الإفطار ، لم تخف السيدة إقبال دهشتها قائلة ...

« إيه اللي مصحكي يدري النهار ده كمان يا سامية ؟! »  
غمغمت سامية ...

« علشان عندي ميعاد الساعة تسعة ونص ! »  
« مع مين ؟! ... »

صمتت سامية لشون ، كانت تنتظر هذا السؤال وكانت تنتظر هذه اللحظة ... رفعت رأسها نحو أمها في مواجهة صريحة :

« مع مسؤول باناقش معاه موضوع مهم ! »  
« هو التنظيم الطليعي رجع يشتغل ثاني ؟! »  
وكان أمها قدمت لها الحجة والمخرج :

التنظيم ما وقفش يا ماما ، ومش لازم يقف ! »

... ..  
... ..

وهكذا - وعندما قالت سامية ما قالت في ذلك الصباح الذي كانت تستعد فيه للقاءها الثاني مع عادل مكي - عادت السيدة إقبال إلى الصمت مرة أخرى وقد أحست أن هذا الصمت قد أصبح لغة متداولة بينها وبين إبتها في الأيام الأخيرة ... كانت الليلة الماضية بالنسبة إليها مرهقة فكرت في سامية كثيراً ، فيما انتابها منذ عودتها من إيطاليا من سهوم لم تعرف - بالتحديد - سببه ... غمغمت وهي ترشف من فنجان الشاي رشفة :

« عمك محمود عازمنا الليلة على المسرح ! »

صمتت سامية مفكرة لشوان :

« ما اعتقدش إني حاقدري ! »

« حاتأخري ؟! »

زفرت سامية منهكة :

« مش عارفة يا ماما ! »

التفتت السيدة إقبال نحو إبتها ... رمتها بتلك النظرة النافذة المتعالية الأمرة التي تعودت أن تواجه بها تلميذاتها إذا ما أخطأت إحداهن ... ابتسمت سامية على الفور وهي تمد يدها إلى يد أمها هامة :

« إنتي قلتي امبارح إنك بتشتقي في »

تخاذلت النظرة الصارمة بادلت الأم إبتها تلك النظرة المتهاوية وهزت رأسها إيجاباً وهي تنهض قائلة :

« أقول لمحمود إنك مش جاية معانا ؟! »

« قولي له يوفر تمن التذكرة ، أنا أقدر أجيب دعوة ! »

في السابعة والنصف خطت الأم نحو الباب مغادرة وكانت سامية لا تزال جالسة إلى المائدة تتلاعب بكوب الشاي الفارغ توقفت السيدة إقبال عند الباب والتفتت نحو إبتها :

« مش عاوزه حاجة يا سامية ؟! »

قفزت سامية فجأة وهي تندفع نحو أمها ... فوقفت أمامها ... أمسكت بكتفيها ، ابتسمت ، برقت عيناها بذلك البريق الذي افتقدته منذ عودتها ، قالت في محاولة للمرح :

« أيوه عاوزه يا حضرة الناظرة ! »

« عاوزه أيه ؟! »

« مش عاوزاكي تقلقي علي ! »

همت الأم بالرد فأردفت سامية :

« وعاوزه ثقتك في تفضل زي ماهي ! »

اعتدلت إقبال في وقفتهما :

« عارفة إيه الغلط اللي إنتي واقعة فيه ؟ »

« غلط ؟! »

هكذا تساءلت سامية فضحكت أمها قائلة :

« انتي يا بنت بتعامليني كأنني ناظرة وبس » .  
 رفعت سامية حاجبيها دهشة فأردفت أمها :  
 « ونسييتي أمك ... نسييتي إني أم !! » .  
 ارتجف الصوت الحاسم فخفق قلب سامية وهي تهمس :

« خايقة عليّ ؟ ! » .

« قوي !! » .

أطرقت سامية مستسلمة وهي تسير مبتعدة :

« عندك حق !! » .

« مش عاوزة تقولي لي حاجة ؟ ! » .

« ما اقدرش !! » .

قالت لي سامية فهمي فيما بعد ، إنها أبداً - وحتى تدخل القبر - لن تنسى تلك النظرة المهولة التي تهاوت من عيني الأم ... قالت إن كلمة التجسس أو الجاسوسية أو ما إلى ذلك لم تكن أبداً تخطر ببال الناس في تلك الأيام إلا مقرونة بالهول ذاته ... قالت إن المصريين يعشقون بلادهم إلى حد يصبح فيه التجسس كلمة مرادفة في نفوسهم للكفر ... قالت إنها لا تدري إن كانت أمها عرفت في تلك اللحظات أن ثمة أمراً خطيراً تخفيه عنها أم لا ... كل ما تعرفه أن أمها أطلقت عليها تلك النظرة الرهيبة ثم استدارت وغادرت البيت .

ولذلك وخلال الساعة التي انقضت حتى غادرت سامية بيتها ذاهبة إلى مواعدها مع عادل مكّي ، كانت قد اتخذت قرارها بالتخلص من الأمر كله مرة واحدة ...

ولكنها ... لم تكن تعلم أن هذا مستحيل .

\* \* \*

## الفصل السادس

### هل تعرفين الله بمجديتي ؟

غادرت سامية فهمي بيتها في ذلك الصباح وقد اتخذت قراراً لا رجعة فيه - هكذا قالت لنفسها - بأن تواجه الأمر مهما كانت وعورته ، وأنه إذا كان عادل مكّي قد طلب منها أن تكتم زيارتها له عن كل إنسان حتى عن أمها ، فهي لا تستطيع أن تواجه نظرات أمها تلك ، فلا بد أن تخبرها بالأمر حتى تعفيها من عذاب هي تعرف عن مدى تأثيره على تلك السيدة !

في جِدّة واجهت عادل ، وقبل أن يصل فنجانا القهوة اللذان طلبهما :

« سيادتك طلبت مني إني ما اقولش حاجة عن الموضوع ده لأي حد ... حتى لماما ! » .

اعتدل عادل مكّي في جلسته ، وزفر زفرة من يستعد لمعركة ، أجاب :

« وما زلت ! » .

« بس ماما تعبانة جداً ! » .

« من إيه ؟ ! » .

هتفت محتجة :

« إلّا من إيه ؟ ... أمي حاسة إني تعبانة ، وبسألني ! » .

« هي سألتك قبل كده ؟ ! » .

« طبعا ! » .

« قلتي لها حاجة ؟ ! » .

وأحست سامية أنها محاصرة ، أحست لحظة أن الكتمان ليس ترفاً يطلبه منها عادل مكّي ، ولكنه ضرورة لا تملك هي ولا يملك هو حيالها شيئاً ، ابتسم

عادل تلك الإبتسامة الرقيقة فسألته وكأنها تهرب :

« دلوقت إنت عاوزني أبداً منين ؟ » .

رغم فرحة عادل مكى بتلك الخطوة التي خطتها سامية عندما كسرت حاجز الحب قائلة إنها ذهبت إلى إيطاليا كي تقابل خطيبها ، فإنه كان يعرف أن الطريق ما زال طويلاً . . . وهو ، في تلك الحالات ، يترك لمحدثه حرية الحديث من حيث يريد ، ويتركه يحكي كما يشاء ، ثم . . . ثم في لحظة بعينها ، وعند نقطة يصبح تصحيح الأحداث أو ترتيبها أمراً لا مناص منه ، يطلب من محدثه أن يتوقف ، وأن يعود القهقري ، وأن يتذكر جيداً . . . وهنا يصبح الإنسان أسلس قياداً . . . لكنه كان يعلم أن سامية فهمي - بحسها المتزايد بالأشياء - كانت تدرك بشكل غامض أنها لا تسير في الطريق مباشرة ، ولذلك ، فلقد ترددت كثيراً ، كانت تخطو خطوة ثم تتراجع . . . وتسال ، وتلف ، وتدور . . . وهي لا تدري أن الوقت من ذهب ، وأن كل ساعة تمضي كانت تحمل من المخاطر ما لا يخطر لها على بال . . . وعلى كل ، فلقد كان عليه أن يتذرع بالصبر ، فاعتدل في جلسته ، وقال وهو يضغط على مخارج ألفاظه :

« من الأول يا سامية ! » .

« ما أنا سألتك أنني أول فيهم ما رديتش علي ! » .

هنا ، أدرك عمق الأزمة التي تواجهها هذه الفتاة ، فابتسم مخففاً عنها :

« تعرفي الأبجدية ؟ ! » .

ضحكت ، لكنها قالت كالدامعة :

« إنت إيه رأيك ؟ » .

« تعرفيها يا سامية ؟ ! » .

هتفت متمردة :

« بطل تعاملني كأني طفلة ! » .

« تعرفيها ؟ ! » .

« أعرفها ! » .

« بتبدأ منين ؟ ! » .

« من الألف ! » .

« ابدئي من الألف ! » .

« يااااه !! » .

ساد الصمت لثوانٍ قال بعدها وكأنه يمسك بيدي طفل كي يعلمه السير :

« إنتِ قلتي إنك رحتي إيطاليا علشان تقابلي خطيبك ! » .

« أيوه !! » .

« مين خطيبك ده ؟ ! » .

إنفجرت دموعها ، إنفجرت في بكاء حار ، اقتلعت قلبها وهي تقول :

« نبيل سالم » .

\* \* \*

عندما قصت عليّ سامية لقائها الأول بنبيل سالم في بوفيه الجامعة ، وعندما استطردت في قصة حبها ، وكيف بدأت وكيف نشأت وكيف نمت وترعرعت ، هالني أمر غريب . . . هالني أن هذه الفتاة التي تبدو وكأنها كاملة الأوصاف ، كانت كمن أصيب بالعمى وفقد المنطق عندما وقعت في الحب . . . وإذا كان نبيل سالم - كما قال لي عادل مكى - نوعاً من الشباب الذي يبدو وكأنه لا عيب فيه ، بل يبدو للوهلة الأولى من هذا النوع من الناس الذي يستطيع جذب انتباه الآخرين وتجنيدهم - هذه كلمة عادل مكى بالنص - لحسابه . . . فإن أي منطق في التفكير ، لا يستقيم مع كل هذه المظاهر والوقائع التي كانت تشير إلى حقيقة نبيل . . . تلك الحقيقة التي تصرخ بها تصرفاته ، وهي أنه شاب تعجز إمكاناته عن بلوغ طموحاته . . . وهو - أمام هذا العجز - على استعداد لأن يفعل أي شيء - وكل شيء - في سبيل تحقيق مآربه !

وعلى كل . . . فلقد راحت سامية تقص على عادل قصة لقاءها بنبيل . . . وكيف أنهما منذ أول لقاء أحسا أنهما إنما خلقا من معدن واحد . . . قص عليها نبيل قصة خلافاته الدائمة مع أبيه ، وعلل فشله في الدراسة بعدم رغبته في كلية التجارة ، ثم . . . ثم أدخلها معه في ذلك الصراع الدائم في بيته . . . لكنها



استطاعت أن تكبح جماحه . . . ذلك أن سامية أحست أنه بالرغم من تمرد نبيل ، فإن مشكلته تتلخص في حاجته الشديدة إلى إنسان يفهمه ، ويحترم أفكاره . . . شعرت ، ثم عرفت ، أن خلافه مع والده يشكل نقطة ضعف رهيبه في حياته ، ذلك أن نبيل بالرغم من هذا الخلاف ، كان يحب أباه حباً عظيماً ، ويشعر - في نفس الوقت - بأن أباه لا يبادل هذا الحب . . . قالت سامية إن نبيل كان مخطئاً في إحساسه هذا ، كل ما في الأمر ، أن والد نبيل ، الأستاذ سالم مصطفى عبد الله الموظف بإحدى إدارات وزارة الأوقاف ، كان يحب ولده بأسلوبه الخاص وعلى طريقته . . . وهي ، عندما التقت بالأب بعد سفر نبيل إلى الخارج وغيباه ، ذلك اللقاء الذي ذهب فيه الرجل إليها ، تأكدت أن ظنونها كانت في محلها ، وأن تمرد نبيل كان سببه عدم إدراكه لطبيعة إحساس الأب الربي الأصيل بإبنه وما يريد له وما يريد منه .

قالت سامية لعادل مكي إن معدن نبيل معدن جيد ، وإن لديه من القدرات ومن الذكاء ما كان يؤهله لأن يصنع لنفسه مستقبلاً زاهراً . . . وكان دليلها على ذلك ، أنه في العام الذي التقت فيه به ، نجح في الكلية وفي الفترتين ، نجاحاً ملحوظاً :

وإذا كنت مش مصدقني يا عادل بيه ، تقدر تروح الكلية وتطلع على المستندات بنفسك ! أدرك عادل مكي أن سامية - دون أن تدري أو تتبه - نصبت نفسها محامياً عن نبيل ، وأدرك بالتالي أنها تشعر بأنه مذنب . . . لذلك فلقد لزم الصمت حتى استطردت :

« نبيل كان ممكن يبقى إنسان نافع للبلد بكل المعاني ! » .

« أفهم من كده إنه ما أخدش البكالوريوس ! » .

كان عادل بطبيعة الحال يعرف أن نبيل لم يحصل على البكالوريوس ، لكنه أراد بسؤاله هذا أن يكشف سراً من أسرار هذا الفتى الذي أصبح يشكل خطراً حقيقياً على بلاده . . . ولقد أطرقت سامية ، أطرقت طويلاً ، وكانت عيناها لا تزالان مبللتين بالدموع عندما استطردت في الحديث :

« نبيل فيه عيب خطير جداً أنه معتد بنفسه أكثر من اللازم . . . ولما حاجة

تطلع في دماغه ، لا يمكن يتراجع عنها أبداً ! » .

« حاجة زي إيه !؟ » .

« لما نجح في سنة ثالثة من أول سنة ، كان شايف إن ده دليل كافي على إنه قادر على النجاح . . وفي نفس الوقت ، كان شايف إن والده لازم يحترم رغباته بقى ! » .

« رغباته في إيه !؟ » .

ترددت سامية قليلاً لكنها قالت :

« عادل حب إن علاقتنا لازم تبقى رسمية ! » .

اختنقت ، غالبها الدمع فغلته واستمرت :

« أنا ما كتش موافقة على موقفه طبعاً ، حب يخطبني من ماما ، وماكتش ممكن ان ماما توافق على خطوة زي دي من غير والده ما يكون طرف في الموضوع ! » .

« ووالده رفض !؟ » .

« طبعاً كان لازم يرفض ! » .

« وبعدين !؟ » .

« كان لازم تدب بينهم خناقة . . . ووالده في الحقيقة أب عادي ، أب مصري ، أب زي كل أب ممكن تطلع منه كلمة تجرح إبنه من غير ما يكون قاصدها ! » .

« كلمة زي إيه !؟ » .

« وهم بيتخانقوا ، والده قعد يصرخ فيه ويقول له : مش كفاية إني باصرف على بغل زيك عاوز تجيب لي تلقيحة أصرف عليها معاك !! » .

وصممت سامية !

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال أكثر من . . .

« الحكاية دي جرحته جداً ، ومن يومها وهو . . . وهو . . . مش عارفة أقول لك إيه !؟ » .

« قولي كل حاجة ! » .

صاحت بصوت ممزق :

« وده ماله ومال اللي أنا جاية لك علشاناه ١١٩ » .

وكان هذا - بالتحديد - هو بيت القصيد ... كان على سامية فهمي أن تفهم ، وتقتنع ، بأن مثل هذه التفاصيل التي يسعى إليها ضابط المخابرات ، ليست من قبيل التزويد أو حب الاستطلاع أو النميمة ... ولكنها تدخل في صميم الموضوع الذي من أجله جاءت ... كان عادل مكى ، الآن - وعلى سبيل المثال - يسعى إلى شيء قد يكون كامناً في الطريق ، شيء قد يكون هو الذي قاد نبيل إلى ما وصل إليه ... ولكم أراد أن يقول ، كم أراد أن يحنو عليها ويشرح ويستفيض في الشرح ، ولكنه كان أول العارفين ، بأن هذا من رابع المستحيلات !

\* \* \*

في مساء ذلك اليوم الذي كان على نبيل سالم أن يلتقي بمن أطلق عليه صديقه الألماني فريدريك بيكر اسم الرجل الكبير ، وبعد الغروب بقليل ، كان نبيل يخطو مبهور العينين والأنفاس ، إلى واحد من تلك المقاصف الفاخرة في مدينة هامبورج بصحبة فريدريك . كان وكأنه إنسان آخر لا يمت بصلة إلى هذا الشاب الضائع الذي كأنه منذ ثلاثة أيام ... كان مستريح القسومات اختفى العرج من مشيته بعد أن شفيت قدمه ، وكان يرتدي ملابس جديدة تماماً ، ابتداء من ملابسه الداخلية وحتى رباط العنق الأنيق الذي يزين عنقه وصدره ..

الغريب في الأمر ، أن نبيل - وقد جاءه فريدريك بتلك الملابس الجديدة - لم يتوقف لحظة أمام سؤال يبدو بديهياً : فكيف عرف فريدريك مقاسات نبيل ولم يكن قد سأله عنها ، ثم ... من الذي دفع ثمن هذه الملابس الغالية ... أو ... من الذي سوف يدفع الثمن !! ... وحتى ، وعندما سئل نبيل فيما بعد ، إن كان قد فكر في الأمر أو خطر بباله أن يسأل ، بدت عليه الدهشة ، وتلعثم ، لكنه لم يحرج جواباً !!

وعلى كل ... فبالرغم من سعادة نبيل وانبهاره بذلك المقصف الذي

دخله ، فلقد كان من المحتم أن يصاب هذا الفتى باضطراب مبعثه ذلك الانتقال المفاجئ ، من حضيض مطبخ في أحد المطاعم الرخيصة ... والقرية من الميناء ... إلى مستوى اجتماعي لم يحلم يوماً بأن يؤمه أو ينتمي إليه في ألمانيا الغربية ... غير أن اضطرابه هذا قد أضيف إليه دهشة بالغة وهو يرى بعينه ويسمع بأذنيه كيف رحب العديد من رواد هذا المقصف بفريدريك بيكر ، وكيف عاملوه معاملة الند ، بل إن بعضهم كان يتودد إليه بشكل واضح !

ما أن استقر بهما المقام حول إحدى الموائد حتى سأله نبيل :

« هل سنتقي بالرجل الكبير هنا ١٩ » .

« ربما !! » .

« ومتى سيأتي ؟ » .

رماه فريدريك بنظرة صارمة همس بعدها من بين أسنانه :

« ألم أقل لك بالأمس إنك كثير الفضول كثير السؤال » .

واحتج نبيل متمرداً :

« من تظنتي أيها الفتى ... أليس من حقي أن ... » .

وارتفع في المقصف صوت عريض ، ما أن سمعه نبيل حتى توقف عن الحديث متلفتاً .

« أهلين أهلين أخي » .

كان ذهول نبيل عظيماً وهو يرى أبا سليم يتقدم منه فاتحاً ذراعيه في ترحاب أثلج صدره ، حانت منه نظرة نحو فريدريك فإذا الدهشة تطل من عينيه صارخة ، كما خيل إليه في لحظة ، أن اضطراباً قد اعترى هذا الشاب الألماني القاسي القلب ... وإذا هو ينهض معه لاستقبال أبي سليم في ترحاب واحترام بالغين !

« وينك أخي ... وينك نبيل ... ليش ما جيت في الموعد ١٩ !

هم نبيل بالرد عندما التفت أبو سليم نحو فريدريك متحدثاً بالألمانية في طلاقة :

« فريدريك أيها الشاب ... لك لم لم تخبرني بأنك تعرفت على صديقي ؟! » .

كاد نبيل من الفرح وهو يتمرغ في ترحاب الرجل السوري الذي من الواضح أنه يحتل مكانة مرموقة في هذا المقصف الرفيع المستوى ... وسرعان ما جرفه أبو سليم في حديثه المنطلق المرح ، أمر الرجل بشراب وطعام وتحدث في كل شيء وأي شيء ، كان نبيل رغم سعادته ذاهلاً وهو يري فريدريك ، الذي كان منذ دقائق يؤنبه تأنيباً مهيناً ، وهو يتضاءل أمام صديقه السوري ... ولقد تمنى نبيل في لحظة ، أن يعدل فريدريك عن لقاء الرجل الكبير ، وتمنى أن يجد له هذا الصديق السوري عملاً ... حتى إذا حانت لحظة نهض فيها فريدريك لبعض حاله ، مال أبو سليم نحوه قائلاً في همس وقد اتخذ وجهه وصوته نبرة جادة وحازمة ، وفي لهجة مصرية خالصة :

« إنت وراك حاجة بكرة ؟! » .

أخذ نبيل بالسؤال واللهجة معاً ، حملق في أبي سليم بنظرة من لا يعرف بم يجيب ، لكن هذا بلهجة حازمة أمرة أردف وقد عاد إلى اللهجة السورية مرة أخرى :

« لا تغادر بيتك حتى أتلفن لك !! » .

رد نبيل في حرج :

« بس يمكن فريدريك ... » .

« ما لك دعوة بها الألماني .. انتظر مكالمتي ولا تخبر فريدريك أو غيره بها !! » .

أراد نبيل أن يسأل أو يستفسر ، لكن فريدريك كان قد عاد ، وانطلق أبو سليم في حديثه المرح من جديد !

... ..

... ..

لم يسأل نبيل نفسه من أين عرف أبو سليم إنه يسكن في بيت وان في البيت

تليفوناً ، لم يتوقف لحظة أمام سؤال بسيط وهو : كيف عرف أبو سليم برقم التليفون ... ترك نفسه للغفلة متعلقاً بوهم نجاح مزيف . حتى جاءت الحقيقة كالصاعقة ... فما أن مضى نصف ساعة حتى غادرهما الرجل السوري هاشماً باشاً كما جاء ... وقال لنبيل وهو يصفحه في حرارة :

« إبقى خيلنا نشوفك يا أخي ! » .

مضت لحظات كان نبيل يشعر فيها بالسعادة وهو يرقب فريدريك الذي بدا الضيق واضحاً عليه .

« لماذا لم تخبرني أنك تعرف أبو سليم يا نبيل !!؟ » .

الآن رد نبيل عليه في ثقة :

« لأنك لم تسألني يا فريدريك ! » .

« ومتى تعرفت عليه ؟! » .

ضحك نبيل ضحكة خفيفة وهو يرد له الصاع :

« يبدو أنك أصبحت كثير السؤال وكثير الفضول !! » .

لزم فريدريك الصمت ، فسأله نبيل :

« متى يأتي الرجل الكبير ؟! » .

بدت الدهشة صاعقة على وجه فريدريك بيكر الذي هتف :

« لكنك التقيت به فعلاً أيها المصري الماكر !! » .

فغر نبيل فمه دهشة وقد اضطرب اضطراباً عظيماً حاول السيطرة عليه بقدر الإمكان ... لقد كان في حاجة إلى عدد لا بأس به من الدقائق حتى يستوعب الأمر ، وحتى يفهم ، أن أبا سليم ليس سوى الرجل الكبير بلحمه ودمه !!

• • •

بالرغم من كل ما كانت سامية فهمي تكابده وهي تدفع بذاكرتها إلى الوراء كي تحكي لعادل مكي كل شيء عن علاقتها بنبيل سالم ... فإن ثمة إحساساً عميقاً كان يتتابها فكانها تضع عن كاهلها حملاً ثقيلاً ... قالت لعادل إنه جاء

عليها وقت أحست فيه أن نبيل كان عادياً مع كل البشر ما عداها ، كان خلافه مع أبيه يحتدم ويتزايد يوماً بعد يوم منذ أن رفض التقدم إلى أم سامية كي يخطبها له منها . . . ولقد تزايدت عصبية أكثر من موقف السيدة إقبال حسين التي أصرت على ألا تستقبل نبيل وحده ، ولقد أحس - بطبيعة الحال - حقيقة موقفها تجاهه . . . قالت سامية إنها تعلم أن كل هذا قد يهون على نبيل ، لكن الذي شكل ضغطاً غير عادي بالنسبة إليه هو موقفها الذي أعلنته بوضوح . . . قالت لنبيل إنها تحبه ، هذه حقيقة لا تملك حياها شيئاً ، ولكنها ترى أن أباه وأمه - كليهما كان على حق في موقفه . . . كانت ترى أنه لو تقدم لخطبتها فلن يزيد الأمر شيئاً بالنسبة لعلاقتهم ، وأن الحل الأمثل لموقفهما هو أن يحصل على البكالوريوس ، ويبحث عن عمل ، وسوف يصبح الأمر بعد ذلك طبيعياً ومنطقياً !

« إنتي بقى اللي مش عاوزاني ! » .

هكذا قال لها نبيل وكان جوابها سلباً من التأنيب ومعركة انتهت بخصام دام أياماً ثم عادا بعدها إلى ما كانا فيه .

قالت سامية : إنه شيء كالفضاء والقدر هذا الذي ربطها بنبيل سالم ، ولطالما حاولت أن تأخذ موقفاً يتفق مع منطقها للأشياء دون جدوى ، كان إحساسها بحاجة نبيل إليها يدفعها إلى التنازلي عن الكثير من تصرفاته التي راحت تسوء يوماً بعد يوم ، حتى انتهى العام وكانت النتيجة فشلاً ذريعاً لنبيل ، ونجاحاً متميزاً لها . . . فلم يستطع البقاء في مصر أكثر من ذلك !!

... ..

... ..

كان هذا في صيف ١٩٦٥ ، وكان نبيل قد وصل إلى حالة من الثورة والضيق جعلت منه شخصاً لا يطاق . . وهي لا تدري على وجه اليقين متى نبتت في رأسه فكرة السفر إلى الخارج ، كانت في تلك الأيام ، ومع الشعور العام في مصر بالانتماء إلى هذا البلد الذي كان مفخرة لأبنائه ، ترى في الهجرة جرماً لا يدانيه جرم . . . كانت ترى - ولا تزال - أن مصر أولى بأبنائها ، وإن

كانت الكفاءات التي تعيش في الخارج ، إنما هي ثروة قومية مهددة لا بد لها من العودة إلى بلادها كي تستثمر فيها جهودها . . . حقاً ، كانت في تلك الأيام صغيرة السن لا تزال طالبة في كلية الآداب ، لكن الشعور بالوطن لا يقاس بعمر أو مهنة أو وظيفة . . . غير أن نبيل عندما طرح عليها فكرة السفر ، طرحها كسياحة . . . ومع بداية الاجازة الصيفية ، راحت أفواج الشباب تسافر إلى أوروبا كي تعمل في المزارع - خاصة مزارع الكروم في فرنسا - وأصبحت حياة نبيل جحيماً ، فلقد كان أمراً طبيعياً أن يعترض والده على سفره وأن يحتدم الخلاف بينهما . . . لولا تدخل أم نبيل التي رأت في فشل ولدها أمراً من الممكن تداركه . . . وكانت هي التي تصدت لزوجها وأقنعتة بالموافقة على سفر ولدهما ، لعله من ناحية يكتسب بعض الخبرات ، ومن ناحية أخرى يروح عن نفسه بعد أزمة رسوبه !

قالت سامية إنه يسيطر عليها إحساسها بالذنب لأن موقفها من سفر نبيل كان سلبياً ، وبرغم حبها الشديد له فإنها لم تستطع إلا أن تعلن براءتها في وضوح وصراحة . . . ولقد سافر بنية التغيب لأسابيع لن تزيد على الشهرين . . . وعندما وصلت السفينة التي أقلتة إلى فينسيا ، كتب لها خطاباً يعلنها فيه بقراره الذي لم يطلع عليه أحداً ، كان الخطاب ملتصقاً بحب بلا حدود أيقظ في نفسها الأمل في أن يثوب إلى رشده ، رغم أن قراره كان عدم العودة إلى الوطن إلا بعد أن يُكوّن نفسه ويعرف طريقه . . . قال نبيل سالم فيما قال : إنه لا يعرف ماذا سيفعل على وجه التحديد ولا إلى أين هو ذاهب ، لكنه يحمل في صدره أملاً عظيماً في بناء مستقبل تفخر به !

ثم اختفت أنباء نبيل ، وأصبحت سامية بما يشبه الإكتئاب ، أحست أنها كانت واحداً من أسباب هروبه ، وأنها لم تتفهم موقفه جيداً ، وأنها لم تقف إلى جواره كما ينبغي . . . حتى إذا مضت شهور ، وصلها منه خطاب من مدينة هامبورج الألمانية يقول فيه إنه استقر في هذه المدينة ، وإنه يعمل في أحد المطاعم بالنهار ، ويدرس الألمانية في الليل . . . كان الخطاب مليئاً بالأمل ، مشرق الأسلوب متفائلاً . . . قال نبيل إنه قرر الالتحاق بأحد المعاهد الاقتصادية



في ألمانيا ، وإن فرص العمل أمام الشباب في أوروبا متاحة . . . ثم كتب لها عنوانه وطلب منها أن تكتب إليه ، وأن تعود إلى الثقة فيه مرة أخرى !

وكتبت له سامية ، وانتظمت مراسلاتها لشهرين أو ثلاثة ثم انقطعت خطاباته مرة أخرى ، ولم يعد يرد على رسائلها التي كانت تحمل له ، مع أنباتها ، قلقها عليه . . . مضى عام وبعض عام وتخرجت سامية وكان نبيل يكتب لها أحياناً معتذراً عن قلة خطباته بانشغاله في المعهد الذي التحق به ، كانت خطاباته الآن تأتيها - إذا ما جاءت - خالية من الروح ، مجرد سطور لا تعني شيئاً . . . حتى إذا كانت أوائل عام ١٩٦٧ ، وصلها منه خطاب أحيا الأمل في صدرها من جديد . . . في هذا الخطاب ، قال نبيل إنه يعمل الآن في السياحة ، ويتقاضى رتباً مجزياً ، وعدولة لا بأس بها !

« الجوابات دي لسه عندك ؟! » .

هكذا سألتها عادل مكى وقد دق جرس الإنذار في رأسه . . . كان سؤاله مفاجئاً فحملقت فيه لثوانٍ قالت بعدها :

« جوابات نبيل كلها عندي ! » .

« ممكن أشوفها ؟! » .

بدا الحرج على سامية ، بل بدا وكأنها غضبت ، فاستطرد عادل :

« أنا عارف إنها جوابات خاصة ، وخاصة جداً كمان . . . إنما . . . » .

« إنما إيه يا عادل بيه ؟! » .

« ساعات الجوابات دي بتبقى فيها حاجات ما يعرفهاش الإنسان العادي أو ما ياخدش باله منها ، لكن بالنسبة لنا بتعني حاجات كتير !! » .

وأطرقت سامية دون رد ، أطرقت وهي لا تعلم أن هذه الخطابات بالتحديد ، هي أكثر ما يحتاج إليه عادل مكى ، كي تكتمل الحلقة أمام عينيه . . . وأن تلك الفترة التي كانت تتحدث عنها سامية ، هي أخطر الفترات على الإطلاق ، في قصة نبيل سالم ، الذي تحول إلى عميل لمخابرات العدو ، يصيب الوطن في كل يوم بما لو عرفته سامية ، لابيض شعرها من فرط الهول !!

## الفصل السابع

### الطريق السالك؟

قضى نبيل سالم ليلة من أغرب ليالي عمره بعد لقائه بأبي سليم في هذا المقصف الفاخر ، فبالرغم من سعادته البالغة لهذا الترحيب الذي لقيه من الرجل الكبير ، وبالرغم من غبطته لما انتاب فريدريك بيكر نحوه من إحترام مفاجئ ، فإن قلقه كان عظيماً !

فمن هو أبو سليم الذي يعتبر بالنسبة لشاب مثل فريدريك بيكر رجلاً كبيراً ؟!

وإذا كان أبو سليم قد التقى به من قبل ، وإذا كان فريدريك يعمل لحسابه ، فلماذا لم يقابله في اليوم التالي مباشرة ، ولماذا لم يتعامل معه دون وساطة من فريدريك ؟!

كانت الأسئلة في ذهنه حقاً ، لكنه راح يعمل الأمر لنفسه بأن لهؤلاء الناس - بالقطع - أساليبهم التي لا يعرفها . . . وعندما ألحت عليه الأفكار طاردها بعنف ، فلقد كان كل ما يعنيه الآن أن يحتفظ بمسكن كهذا الذي يعيش فيه الآن ، وملابس كالتي يرتديها ، وأن يجد ما يسد به رمقه . . . بل إنه ، مع مرور الساعات ، راح يبرر لنفسه قبوله لمثل هذا العمل ، ويبحث عن أسباب تقنعه بالقبول في مواجهة وخز ضمير كان في غنى عنه !!

ودّعه فريدريك دون موعد فلم يسأله متى سيلقاه ، بدا له الأمر ، وبشكل غامض ، وكأن كلاً منهما ينفصل عن الآخر ، أو كأن كلاً منهما يودع الآخر . . . عاد إلى الشقة ولم يكن أمامه سوى العودة إليها بعد أن فقد بغيا به لثلاثة أيام



مكانه في الغرفة التي كان يسكنها مع أربعة آخرين . والتي لا بد أن ضائعاً غيره قد احتل مكانه فيها . . . وما أن دلف إلى الشقة حتى أطبقت عليه الوحدة ، فعاتت الاسئلة إلى الإلحاح :

« لمن هذه الشقة ؟! .. هل هي لفريدريك أم أنها للرجل الكبير ؟! » .

طرد السؤال ثم طارده فكان يكفيه الآن أنه ينال على فراش وثير ويدخل حماماً نظيفاً ، راح يقلب الأمر في ذهنه مرة أخرى فلم يصل إلى بر يرتاح إليه . . . قبل أن يأري إلى فراشه كان قد اتخذ قراراً نهائياً بأن يسير في الشوط حتى نهايته . . . بدت له العودة إلى مصر كنوع من المستحيل ، تذكر خطاب سامية الأخير فانتابته غصة أرقته لساعة وبعض الساعة ، أحس وكأنه بقراره هذا قد ألقى بنفسه إلى نهر تندفع مياهه في عنف إلى حيث لا يدري . . . ثم . . . ثم هذا تفكيره عندما وجد المبرر :

فلم لا يجاري أبا سليم فيما يريد منه حتى يُكوّن لنفسه مبلغاً من المال يعود به إلى مصر مرفوع الرأس موفور الكرامة . . . مبلغاً يكفيه لعام وبعض عام حتى يعود إلى الكلية ويحصل على البكالوريوس فلا يحتاج إلى معونة أبيه . . . ولسوف يظل هذا العمل الذي سيمارسه مع أبي سليم سراً لن يعرفه أحد ولن يبوح به لمخلوق حتى لسامية . . . وإذا كان فريدريك ينفق بهذا البذخ ، ويحيا هذه الحياة فهو لن يعيش كما يعيش فريدريك . . . بل سيقصد ، ويضع المارك فوق المارك حتى يمتلك بضعة ألوف منها تكفيه كي يؤسس شركة أو مشروعاً يدر عليه أضعاف ما كان يكسب من وظيفة تحدد مستقبله وتكبل حركته . . . وهو . . . هو عندما قرر البقاء في أوروبا وعدم العودة إلى مصر ، لم يكن في حاجة إلا إلى فرصة - مجرد فرصة واحدة - يثبت بها كفاءته . . . وهاهي الفرصة تأتيه ، فهل يركلها ؟!

ويبدو أنه استراح للفكرة . فنام !!

لكن نومه كان متقطعاً . . مزقته الحيرة والأحلام ، لكن الليل انقضى على أية حال . . . في الصباح أدرك أن عليه ألا يغادر البيت قبل أن يتحدث إليه أبو

سليم تليفونياً . هكذا طلب منه الرجل في المقصف وكان طلبه واضحاً لا لبس فيه . . . مرة أخرى يكتشف غفلته فإن أبا سليم لم يحدد موعداً للحديث في التليفون . . . ثم اكتشف - وكانت الساعة تقترب من العاشرة صباحاً - أن البيت خال من الطعام . . . عضه الجوع فراح يبحث عن شيء يتبلغ به ، وكان يعلم أن لا طعام هناك . . . طوال الأيام الماضية كان فريدريك قد تكفل بكل شيء فلم يشعر بحاجة إلى طعام أو شراب ، فكر في الخروج لشراء بعض الطعام ثم عدل خوفاً . . . قال فريدريك وهو يحذره : إن الرجل الكبير قد يأمر بإرساله في رحلة إلى العالم الآخر !! . . . فكيف يكون موقفه إذا خرج ودق جرس التليفون ولم يجد أبو سليم من يرد عليه ؟! راحت الساعات تمضي ، وانتصف النهار وازداد إحساسه بالجوع فقرر المغامر والخروج لكنه ، قبل أن يغادر الشقة ، اكتشف أنه لا يملك مالاً . . . وقف في منتصف المكان حائراً . . . راح يتلفت هنا وهناك فاصطدمت عيناه بالجدران ثم ارتدت نظراته إلى داخله . . . فهو . . . هو الآن يستطيع مغادرة المسكن حقاً . . . لكنه لا يستطيع !!! . . . هو حر الحركة فعلاً ، لكنه مقيد برنين جرس تليفون . . . أحس في لحظة أنه يخطو وهو جامد في مكانه إلى عالم مروع ، اضطرب قليلاً ثم هز كتفيه في لامبالاة ، واتخذ قراره ، ربما للمرة المائة ، بأن يخوض التجربة حتى النهاية !!

وها هو النهار ينقضي والشمس تغرب ، وبطنه خاو والجوع يعصف بمعدته ، والقلق يستبد به . . . ولكن : أين المفر ؟

لم يفكر نبيل سالم ، بل لم يخطر بباله في لحظة . . أن كل ما كان يحدث له كان مخططاً بعناية ، وأن أي تصرف من تصرفاته كان يقاس بدقة شديدة ، وأن هناك من كانوا يرصدون حركاته ويتربصون به . كي ينقلوا باقة بالغلة كل حركة وكل تصرف . إلى من يهمهم أمره في ذلك الوقت . . . أبداً لم يفكر نبيل سالم ، ولم يخطر هذا على باله في لحظة !!

.....  
.....

في العاشرة مساء وصل إلى حالة من اليأس والجوع والضيق والإحباط ألقت

به فوق أحد المقاعد بلا حراك . وعندما دق الجرس انتفض وجرى نحو التليفون ورفع السماعة في لهفة لكنه اكتشف أنه كان جرس الباب . . . توقف لاهث الأنفاس متردداً . . . كان يشعر وكأنه في غيبوبة وأن كل ما حوله ليس سوى حلم ، دق الجرس مرة أخرى فاندفع نحو الباب وفتحته كي يجد أمامه مشهداً لا يصدق . . . كان أبو سليم يقف وقد اختفى وجهه خلف حقيبتين مليئتين بالطعام والشراب امتلات نفسه بالامتنان واندفع نحو الرجل الذي كان يهتف به في مرح :

« افتح يا أخي واحمل عني هادي البلوى ! »  
حمل عنه الحقيبتين معاتباً :

« معقول التأخير ده ، يا أبو سليم ؟! »  
قال أبو سليم وهو يغلق الباب :

« أنا ما قلت لك إني جاي لك اليوم !! »  
« لا . . . إنت قلت إنك حاتتكلم في التليفون ! »  
هتف الرجل دهشاً :

« أنا قلت هيك ؟! . . . والله يا أخي نسيت ! »  
« البيت مافيهش ولا لقمة ! »

« وليش ما خرجت تشتري طعام »  
« لأنني خفت أخرج تتكلم في التليفون ماتلقانيش ! »  
« عفارم عليك نبيل ! »

« ولأن مفيش معايا ولا مارك ! »  
« وليش ما طلبت مصاري ؟! »

دلف نبيل إلى المطبخ كي يجهز الطعام هاتفاً :  
« مش جعان ؟! »

« أنا ماني جعان فقط . . . أنا حاموت من العطش ! »

وهكذا راح نبيل ، في حماس شديد يعد الطعام والشراب وكان رأسه يعمل

بسرعة ، والأسئلة تزدهم فيه ، والأمل يضيء الطريق أمامه !

\*\*\*

بعد سنوات . . . وعندما قص نبيل سالم قصة تلك الليلة ، قال إن أبا سليم تحدث إليه ، في كل شيء وأي شيء ، وإنهما أكلا وشربا ، وكان طبيعياً أن تأتي سيرة جمال عبد الناصر وإسرائيل . . . وإن رأى أبو سليم أن عبد الناصر زعيم عظيم ورجل تاريخي لكنه تخصص في اكتساب عدااء الآخرين . . . وإن الدول العربية - بفضل عبد الناصر - أصبحت عالمياً في موقف لا تحسد عليه رغم معارضتها له . . . وإنهم في الغرب يرون أن هذا الرجل يقود بلاده نحو خراب أكيد ، وإن عداؤه لإسرائيل أكسبها عطف العالم أجمع .

قال نبيل إنه لم يكن مهتماً بالسياسة وبالتالي فلم يكن يعنيه ما قاله أبو سليم . . . قال إنه كان يتعجل الحديث في العمل لكن الرجل بدا وكأنه نسي كل شيء عن هذا الأمر وراح يخوض في أمور شتى ، ثم أخذ يسأله عن رأيه في الاشتراكية وعبد الناصر فاضطر نبيل - هكذا أكد - إلى مجاراته حتى يكسب رضاه ، جاره فيما كان يقول حتى تنتهي تلك « الدردشة » ويدخل في صميم الموضوع . . . لكن أبا سليم كان قد انطلق وقد شرب كثيراً ، ثم راح يطره بالأسئلة ، سؤالاً وراء سؤال . . . سأله عن حياته في مصر . عن أمه وأبيه ، وأقاربه وأصدقائه ومعارفه وجيرانه ، ووظائفهم ، ومراكزهم . وكان طبيعياً أن يعرج الحديث على سامية فهمي وأن يتوقف عندها طويلاً ، كانت سامية الآن في السنة النهائية بكلية الآداب قسم صحافة . وكانت تنشر التحقيقات والموضوعات ويكتب إسمها بالبنط العريض . . . حكى نبيل لأبي سليم كيف التقى بها ، وكيف تحابا وكيف ارتبطا ارتباطاً شديداً ، فسأله أبو سليم فجأة :

« لكن إيه اللي خلأك تسيب مصر ، يا نبيل ؟! »

قال سالم فيما بعد ، إنه في محاولته لإرضاء الرجل - أيضاً !! - قال إنه هجر مصر لأنها بلد شهادات ، ولأن نظام عبد الناصر لا يعطي الفرصة للشباب أمثاله في استغلال إمكاناتهم . . . تحدث عن مكتب التنسيق الذي ألقى به في كلية التجارة وهو لا يحب التجارة . ثم تحدث عن التعيين والمتربات

الضئيلة ... ثم ... ثم قال نبيل . قال كل شيء وهو لا يدري أن الرجل كان يعتصره اعتصاراً ، وأن أسئلته كانت ذات منهج دفعه دفعا إلى البوح حتى بأدق تفاصيل حياته وعلاقته بأمه وأبيه ... ثم عاد الحديث مرة أخرى إلى سامية ، فرفع الرجل كأسه كي يشرب في صحتها ثم سأله :

« بتحبها ؟ » .

هز نبيل كتفيه في لامبالاة مغمغماً :

« يعني ! » .

« وهي بتحبك ؟ » .

هتف نبيل :

« لدرجة إنني مش عارف أعمل قدام حبيها ده حاجة ! » .

وعاتبه أبو سليم على هذا الرد ... قال إن سامية فهمي ، وقد أخلصت له حتى الآن ، وبالرغم من هجرانه لها ونزوحه إلى أوروبا ، لابد - على الأقل - أن يظل حاملاً لها هذا الجميل ، وإن علاقته بها لابد أن تستمر وتظل قائمة .

قال : إن العلاقات العاطفية في أوروبا شيء وفي مصر شيء آخر ... ومهما كانت له علاقات بفتيات من ألمانيا ، فإن علاقته بسامية - أخلاقياً - لابد أن تنوطد وتتدعم .

« طب إزاي ؟ » .

هكذا سأل نبيل . فرد أبو سليم :

« بالخطابات يا أخي ... بالهدايا ! » .

« هدايا إيه يا أبو سليم . هو أنا لاقى أكل ؟ » .

« خلاص ... بكير تكتب لها خطاب وترسل لها هدية قيمة ! » .

رغم أن أبو سليم كان يمس الآن ، ويعنف ، ذلك الوتر الشديد الحساسية في صدر نبيل سالم ، مما جعل الفتى يبدو متفضلاً متلهفاً ، فإنه هتف أخيراً متشبهاً بذلك الأمل الذي كان ، كلما شعر باقترابه منه ، أحس أنه يبعد عنه :

« مش مهم الجوابات ولا الهدايا ... المهم الشغل . إحنا حنعمل إيه في الشغل ؟ » .

وكان أبو سليم لم يسمع . سأله .

« أنت مش بتقول إنها صحفية ؟ » .

« ولسه باعته لي جواب من كام يوم ومعاها آخر تحقيق نشرته في المجلة ! » .

« خلاص ... هات الخطاب هادا وأنا أقول لك تبعت لها إيش ! » .

« جواب إيه بس ... وأنا قطعته ورميته ! » .

قال نبيل إنه دهش في تلك اللحظة لتلك النظرة النارية التي انطلقت من عيني أبي سليم ، نظرة ذكرته بذلك التحذير الذي ألغاه فريدريك بيكر في وجهه قبل أن يذهب إلى لقائه . حاول نبيل التملص من الموقف فصاح محتجاً :

« لكن كل ده ماله ومال إللي إحنا فيه ؟ » .

صاح أبو سليم في لهجة مصرية خالصة :

« إلأ ماله ... إنت نسيت إننا بنشتغل في سلعة عالمية ! » .

« ودق قلب نبيل بعنف ... فهل معنى هذا إنه قد يحمل مخدرات إلى مصر ؟ » .

راح يحملق في الرجل وقد انهارت كل أحلامه فجأة ، خشي الاعتراض حتى لا يفقد فرصة طالما انتظرها ، عندما طال الصمت سأله أبو سليم وكانت نبرة صوته الآن تختلف تماماً عن تلك النبرة التي تعود نبيل عليها فكانه تحول إلى إنسان آخر :

« إنت عارف طبعاً إحنا بنشتغل في إيه ؟ » .

« فريدريك قال لي ! » .

« وإنت إيه رأيك ؟ » .

« أنا تحت أمرك يا أبو سليم هنا ... بس ... مصر ... » .

هتف أبو سليم مقاطعاً :

« مصر ؟ ... مين إللي جاب سيرة مصر ؟! » .

اجتاححت الراحة صدر نبيل فصاح :

« إنت الللي لسه قايل ! » .

« إسمع يا نبيل يا خويا ... إحنا النهار ده أكلنا عيش وملح سوا ، وفتحنا قلبنا لبعض ... وأنا مش مجنون أبعتك مصر عند راجل زي جمال عبد الناصر علشان يقبض عليك ويوديك ورا الشمس ! » .

« وهو أنا لو اتقبض علي هنا مش راح أروح ورا الشمس ؟! » .

« لا !! » .

« إزاي بقى ؟! » .

« هنا دولة ديمقراطية ومتحضرة ، والتفاهم معاهم ممكن ! » .

« ثم إني كمان ما اعرفش أدي حقن ! » .

هكذا قال نبيل في تذمر ، فهتف أبو سليم دهشاً :

« حقن ؟! ... حقن إيه دي ؟! » .

« ده الللي أنا فهمته من فريدريك ! » .

« بس فريدريك حاجة ، وإحنا حاجة ثانية خالص ! » .

كان أبو سليم قد انتقل الآن ، مع نبرته الجديدة إلى الحديث باللهجة المصرية تماماً ، سأله نبيل :

« إحنا ؟! » .

« الللي زيي والللي زيك مش لازم يشتغلوا الشغل ده ... إحنا مهما كان

الأمر ، أغراب !! » .

« مش فاهم » .

وهكذا راح أبو سليم يشرح له الأمر .

إن جمال عبد الناصر استطاع أن يجعل العرب مكروهين في أوروبا . وأن سياسته بالذات لم تجر الخراب والعداء على مصر فقط ، بل جعلت من وجود مواطنين عرب في بلد مثل ألمانيا تتعاطف مع إسرائيل وتقدم لها المساعدات

والتعويضات وتغدق عليها السلاح والطعام ، أمراً غير مرغوب فيه ، بل ومحاطاً بشكوك لا نهاية لها ... لذلك فمثل هذه الأعمال القذرة - قالها الرجل بالإنجليزية - التي يمارسها شاب مثل فريدريك ، يجب ألا يقوم بها إلا ألماني مثله ! لكن ...

« لكن إحنا لنا شغل ثاني يا نبيل ! » .

كان نبيل الآن ممتناً أشد ما يكون الإمتنان للرجل الذي كان يحميه ، فسأله في حرارة :

« شغل زي إيه مثلاً ؟! » .

« عاوز تفهم ؟! » .

« طبعاً !! » .

« أول حاجة بالنسبة لك - مثلاً - إنك لازم تلاقى وظيفة محترمة ! » .

فغر نبيل فمه دهشة . دق قلبه بالسعادة والعرفان معاً .

« ما لك يا نبيل ؟! » .

« عاوز الحق والأبن عمه ؟! » .

« الحق طبعاً ! » .

« مش فاهم !! » .

وهكذا راح أبو سليم يضع أمام الفتى نقاطه الغامضة ، فوق حروفه الأشد غموضاً ... قال :

« أولاً ... الللي زيي والللي زيك ، لازم وجودهم هنا يبقى شرعي ! » .

« مضبوط ! » .

« علشان كده لازم ندور لك على شغلانة كويسة في شركة من الشركات المحترمة ! » .

« ودي حائلها إزاي ؟! » .

« وبالشكل ده نقدر نطلع لك تصريح عمل ، ويبقى وجودك قانوني وما حدش له عندك حاجة ! » .

أحسن نبيل سالم إنه في حلم لا علاقة له بالواقع ، كان ما يقوله أبو سليم بالتحديد هو ما يتمناه وما يرجوه وما يسعى إليه منذ وطئت قدماه أرض إيطاليا منذ عام وبعض عام ، وحتى استقر به المقام في هذه المدينة الألمانية . . . قال في عرفان وامتنان :

« ربنا يخليك يا أبو سليم ! » .

« بعد ما تستقر في وظيفتك ، وتكوّن علاقات محترمة مع ناس محترمين . . . نبدأ ندور على شغلنا . . . وحانلاقي مليون سكة » .

« تفكر السكك دي مأمونة ؟ ! » .

« مية في المية ! » .

« طب أفرض الطوبة جت في المعطوبة ؟ ! » .

« قصدك البوليس يمسكك ؟ ! » .

« أيوه » .

« يبقى لازم موقفك يكون صاغ سليم ! » .

« للدرجة دي ؟ ! » .

« طبعاً . . . ماهو احنا لازم نعيش في وسط الناس دي في أمان . . . وكفاية اللي عامله جمال عبد الناصر فينا . . . كفاية موقفنا اللي زي الزيت في الدنيا كلها ! » .

في حماس وهو يتفرض بالسعادة قال نبيل :

« أبو سليم . . . أنا تحت أمرك ! » .

\* \* \*

قال لي عادل مكّي إنه في بعض الأحيان يشعر بالألم لأن الناس في بلادنا لا يفهمون طبيعة عمل ضابط المخابرات . . . الناس لا يفهمون أن هذا العمل في حقيقته ليس سوى حماية لهم ، لبيوتهم وأعراضهم ، أولادهم ومصادر رزقهم . . . هو عندما طلب من سامية فهمي الإطلاع على تلك الخطابات التي وصلتها من نبيل سالم أثناء وجوده في ألمانيا ، كان يعلم

علم اليقين أن تلك الخطابات تمثل الخطوة الأولى في تجنيد نبيل سالم للعمل ، وبوضوح ، لحساب المخابرات الإسرائيلية . . . وبالنسبة إليه ، في ذلك الوقت الذي كانت سامية فهمي تجلس معه للمرة الثانية ، كان من أشد الأمور أهمية أن يعرف إن كان الأمر قد تم بعلم نبيل ، أم أنه استدراج دون أن يشعر حتى وقع في أسر أبي سليم . . . أو الرجل الكبير كما قال عنه موزع المخدرات الألماني فريدريك بيكر .

وهو ، وعلى الجانب الآخر ، وبالرغم من أهمية هذا الموضوع ، وخطورته في نفس الوقت . . . لم يكن يستطيع أن يصارح سامية فهمي بحقيقة نبيل سالم ، لأنه لو فعل ، فلربما أوقعتها هذه الحقيقة في الحرج أو دفعت بها إلى التمرد ، أو منعتها من البوح بكل ما عندها من معلومات . . . كان من أشد الأمور أهمية ، أن تصل سامية إلى الحقيقة بنفسها !

قال لي إن سامية فهمي عندما طلب منها أن تطلعه على تلك الخطابات ، أطرقت دون رد . . . ولقد أدرك مدى الحرج الذي أوقعها فيه . . . لأنها شعرت - بالقطع - أن شيئاً خاصاً جداً ، سوف يطلع عليه الغير . . .

كان عادل يعرف هذا تماماً . . . وكان من الممكن أن يرجي طلب الخطابات قليلاً . . . لكنه - وهنا المأزق - كان مشغولاً عليها من تلك الصدمة التي سوف تتلقاها يوم تواجه الحقيقة ، سواء بنفسها ، أو عندما يخبرها هو لو أنه اضطر إلى ذلك . . . لكنه عندما حسب الحسبة - هذا تعبيره بالضبط - وجد أنه من الأفضل لسامية أن تتلقى الحقيقة على جرعات ، حتى تنهيا نفسها تدريجياً لاستيعاب أمر هو بالنسبة إليها رهيب وعنيف .

ولم يكن الأمر مقصوراً ، من وجهة نظره على الناحية الأمنية أو السياسية فقط . . . فلقد كانت تلك هي الفترة التي تعرف فيها نبيل سالم على تلك الفتاة الخطرة « شيرلي هايمان » أو « لويز جولدمان » - وهكذا ، أصبح حديثه مع سامية كالسير فوق الماء . . . ولذلك ، وعندما طلب منها ذلك الطلب ، وعندما صمتت دون رد . . . لزم الصمت هو الآخر لثوان قال بعدها :



« على العموم ، إذا ماكناش عندك مانع ، حايقى مهم جداً إننا نقرأ  
الجوابات دي سوا !! » .

همت بالرد وكان يعرف إنه يضغط عليها فأطلق ضحكة هائلة وهو يردف :  
« إنتِ ما جعتيش ؟! » .

نظرت في ساعة يدها وقد سرها أنه غير مجرى الحديث ، كانت الساعة  
تشير إلى الثانية والنصف تذكرت حديثه بالأمس عن عدم تناوله طعام الإفطار  
فأدركت أنه جائع ، سألته وعلى شفيتها ابتسامة باهتة :

« إنتِ حاتغديني النهار ده كمان ؟! » .

تلقف سؤالها كي يدق بالإجابة على وترها الحساس :

« مش أنا اللي حاغديكي يا سامية ... مصر هي اللي بتدفع ! » .

وكانت جملته موحية ، وكانت بالقطع مؤثرة ، فلقد برقت عيناها ، وشحب  
وجهها ، فهزت رأسها إيجاباً ، ولم تفه بحرف !

\* \* \*

## الفصل الثامن

### السيطرة !

الذي لا شك فيه أن عادل مكي كان يستطيع أن يختصر الطريق مع سامية  
فهمي كثيراً ... كان قادراً على الإيحاء ، كما كان قادراً على الضغط خاصة في  
مثل تلك الظروف العصبية التي كان يعيشها جهاز المخابرات المصري بعد  
نكسة ١٩٦٧ ، وذلك الضغط الهائل الذي تعرض له الرجال في الداخل  
والخارج ... لكنه آثر أن يسلك معها طريق الحوار لإحساسه الفائق ، بأن هذه  
الفتاة التي جاءت إليه طائعة مختارة ، لم تكن في حاجة إلى إيحاء أو ضغط بقدر  
ما كانت في حاجة إلى فهم ...

كانت سامية فهمي تجلس الآن أمامه - وقد جاء طعام الغداء - تمضغ  
اللقيمات بلا إحساس وكأنها تلوك في فمها قطعة من اللبان ... كان يعلم أنها  
تشبث بأمل واهٍ ومستحيل ... ورغم ذلك فلقد راحت ترفض - في عناد بدا  
غريباً - أن تعترف لنفسها بأن نبيل سالم متورط فيما كانت تفكر فيه ... لكنها  
في نفس الوقت ، وبنفس القدر من القوة ، كانت تكاد توقن أنه بالفعل قد  
تورط فيما كانت تخشاه !!

بدت له مثل إناء هش قابل للكسر في أية لحظة ... ولم يكن عادل على  
استعداد لأن يقوم بهذه المهمة مهما كلفه الأمر .

عندما وضع الطعام بينهما راحا يتناولانه في صمت ، كان ثمة إحساس  
كثيف يجثم في هواء الغرفة ... مضت بهما الدقائق صامتة ثقيلة بطيئة قبل أن  
ترفع إليه رأسها متسائلة :

« أنا مش قادرة أفهم الجوابات دي حاتفيدك في إيه » .

توقف عن الطعام ، سدد إليها نظرة عاتبة ، تمتع :

« في حاجات كثير ! » .

« زي إيه ؟ ! » .

ترك الطعام تماماً وقرر أن يخوض المعركة معها :

« مش فيه احتمال إن الشكوك اللي عندك تكون صحيحة ؟ ! » .

« والشكوك اللي عندي مش في نبيل ! » .

« بس نبيل هو اللي وصلك للناس دي ! » .

« هو ذنبه إيه ؟ ! » .

تذرع بالصبر مائلاً نحوها :

« يمكن مالوش ذنب صحيح ، بس علاقتهم بيه لازم يبقى لها أسبابها ! » .

« الجواب ده بعتولي من ألمانيا ، والناس دول في نابولي ، يعني في

إيطاليا ! » .

بدت سامية فهمي وكأنها تحارب آخر معاركها بضراوة وعنف ... مال

نحوها وقد استفزه تشبثها بموقفها :

« إنت مش قلتي يا سامية إنه كان بيشتغل في شركة سياحية في

هامبورج ؟ ! » .

« أيوه ! » .

« طب إيه اللي وداه إيطاليا ! » .

« لقي شغل أحسن » .

« ده ممكن يكون سبب ... بس ممكن تكون هناك أسباب ثانية ؟ ! » .

« أسباب زي إيه ؟ ! » .

« هو ده اللي الجوابات ممكن تقول لنا عليه ! » .

أحست سامية أنها حوصرت فصمتت ، كانت هي تتحدث عن خطاب واحد

وكان هو يتحدث عن كل الخطابات ، غمغت وهي تتشاغل بالعودة إلى الطعام

من جديد :

« أنا عارفة إنني مزعجة جداً ! » .

ضحك عادل مكّي وهو يشعل سيجارة :

« مش قوي » .

نظرت إليه ثم انتقلت عينها إلى السيجارة بين أصابعه متسائلة :

« إنت بطلت أكل واللا إيه » .

اعتدل في جلسته الآن أمامها ، وضع نظراته داخل عينيها ، أراد لها أن تعي

وتفهم كل كلمة سوف يقولها فجاءت كلماته محددة واضحة المعالم :

« لأنني عاوز أقول لك يا سامية إن شغلنا دي صعبة جبتين ، وإن التفاصيل

الصغيرة اللي الناس مش ممكن تأخذ بالها منها ، أو ماتديهاش أي اهتمام ، أو

تشوف إن ملهاش قيمة ... ممكن تكون مهمة جداً ... ويمكن خطيرة

جداً ! » .

هتفت مستسلمة :

« خلاص ... حاجيب لك الجوابات كلها ! » .

قالت هذا وهي تبسم ، ولم يملك عادل مكّي نفسه من الابتسام هو

الأخر ، فهمت معتذرة :

« ممكن تأكل بقي ؟ ! » .

رماها بنظرة صارخة بالعتاب ، وأطفأ سيجارته ، وعاد إلى الطعام من

جديد !

\* \* \*

كانت مشكلة عادل مكّي في ذلك الوقت ، إنه يريد أن يعرف على وجه

التحديد ، ما الذي حدث لنبيل سالم في ألمانيا حتى اختفى منها فجأة كي

يظهر ، وبلا مقدمات ، في مدينة نابولي الإيطالية !

تجمعت لديه بعض المعلومات ، ولكنها كانت معلومات ناقصة ... حقاً

كان التحليل قادراً على الوصول به إلى احتمالات تكاد تطابق الحقيقة ... لكن

معرفة الحقيقة شيء آخر ... واقع صلد لا شك فيه ... واقع يستطيع منه أن

ينطلق واثق الخطى كي يكشف هذه الشبكة التي بدت في الأيام الأخيرة ، وكأنها أخطبوط يتغلغل في أرض الوطن الجريح . . . كان هناك مهندسون وأطباء وصحفيون وموظفون وطلبة وتجار وسماسرة كلهم . . . كلهم التقوا بنبييل سالم الذي كان يسعى بشتى الطرق إلى تسليمهم لرجال المخابرات الإسرائيلية . . . وكلما مضت الأيام ، ازداد اقتناعه بخطورة هذا الشاب الذي كان آداؤه يتطور بسرعة مخيفة . . . والذي استخدم كل ذكائه وخفة ظله وقدرته على اكتساب ثقة الناس ، في الإيقاع بأبناء وطنه ، أو في التجسس على هذا الوطن لمصلحة العدو !

وعندما كان عادل مكى في بعض الليالي التي تؤرقه فيها مسؤولياته ، يحاول أن يربط بين ما كان يحدث في تلك الأيام من عام ١٩٦٧ ، وبين ما حدث بعد ذلك ، دائماً ما كان الخيط يمتد في يده كي يربط كل شيء بكل شيء . . .

كان الإسرائيليون في تلك السنوات شديدي النشاط في ألمانيا وإيطاليا بالذات وانتشرت بيوت المملذات في طول أوروبا وعرضها تستدرج الشباب العربي عن طريق الجنس والمخدر واللهو إلى مهاو بلا قرار . . . وكم من جواسيس وقعوا . وكم من شبكات سقطت . . . وكم من شباب أبى أن يخون فجاء سعياً لإنقاذ الوطن !

وفيما بعد . . . وعندما تجمعت . كل الخطوط في يده ، عرف كل شيء .

... ..

... ..

عرف أن أبا سليم غادر شقة فريدريك بيكر في تلك الليلة تاركاً نبييل يسبح في بحر من الأحلام . . . نفحه قبل أن يمضي مبلغاً لا بأس به من المال ، طلب منه أن يوقع إيصالاً بالمبلغ فبدت الدهشة على وجه نبييل وإذا به يصيح فيه بمرح :

« الشغل شغل يا بلبل ! » .

ولم يكن أمام نبييل إلا أن يوقع فوقه ، طلب منه أبو سليم أن يسعى منذ الغد للبحث عن مسكن ملائم ووظيفة محترمة . . . عندما هم نبييل بالسؤال قال له الرجل في وضوح لابس فيه :

« شوف يا نبييل ، إذا كنت عاوزنا نشتغل سوا ، وإذا كنت عاوز تنجح ، يبقى لازم تسمع الكلام !! » .

« من غير مناقشة يا أبو سليم !؟ » .

« من غير مناقشة !! » .

ساد الصمت قليلاً ثم أردف الرجل :

« إنت مش تهملك سلامتك !؟ » .

« طبعاً !! » .

« وأنا كمان تهمني سلامتك ! » .

« طب أفهم !؟ » .

ابتسم أبو سليم ابتسامة خفيفة وهو يقول :

« المرة دي حافهمك ، لكن بعد كده لازم تفهم لوحذك ! » .

« وإذا ما فهمتش !؟ » .

« يبقى تنفذ اللي باقول لك عليه من غير سؤال ! » .

« من غير سؤال » .

« واللي أوله شرط ، آخره نور !! » .

هكذا قال أبو سليم ، ثم اعتدل في جلسته كي يشرح له الأمر برمته !

... .. إن بقاءه في شقة مثل هذه بالقطع ، سوف يلفت الأنظار ويشير

التساؤل لأنه في البداية والنهاية عاطل . . . فمن أين يجيء بالمال ؟!

« في دي معاك حق ! » .

هكذا هتف نبييل ، فاستطرد أبو سليم :

« ولأنك عاطل ، يبقى لازم تسكن في أوضه على قدك ! » .

هم نبييل بالحديث ، فرفع هذا يده مردفاً :

« أنا ماباقولكش روح أسكن في مزبلة زي اللي كنت ساكن فيها ، أنا باطلب منك تسكن في أوضة أحسن ، ولما تكسب ، أسكن في قصر محدش حايشك ، ومحدش يقدر يقول لك تلت الثلاثة كام !! » .

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه في تلك الليلة لفت نظره إتحان الرجل الشديد للهجة العامية المصرية ، واستعماله للأمثلة الدارجة والتعبيرات التي يستعملها المصريون في أحاديثهم ، لكنه على كل حال .. أحس كأن أبو سليم يقوده إلى أحلامه برفق ، فهتف في حماس :

« ماشي كلامك يا بو سليم ! » .

« ولأنك عاطل ، لازم تدور على شغل ! » .

« شغل !؟ ... آمال إنت ... » .

« مش المهم إنك تلاقي شغل يا نبيل ، المهم إن الناس تعرف إنك بتدور على شغلانة تأكل منها عيش ، ويشوفوك وإنت بتلف وتدوخ وتدور وتتعب وتروح شركات وتترفض !! »

كانت المعاني تتسلل إلى ذهن نبيل فتبهره !

« ولأننا حاششتغل مع بعض ولأن شغلنا خطر مش لازم الناس يشوفونا مع بعض كثير !! » .

« إزاي !؟ » .

« اعتدل أبو سليم في جلسته زافراً ! »

« سيب إزاي دي لبعدين ... ونفذ دلوقت اللي باقول لك عليه ! » .

« وامتى عاوزني أسيب الشقة !؟ » .

« بكرة !! » .

« هم نبيل بالسؤال ، فأردف أبو سليم في نبرة حادة :

« بكرة مش بعده يا نبيل ! » .

... ..  
... ..

لم يكن المبلغ الذي نفحه أبو سليم لنبيل كبيراً ، لكنه كان يفي بالحاجة ... وليس هناك شك في إن شخصية الرجل قد بهرت هذا الشاب الطموح ، الذي وجد أبواب الثراء تفتح له على مصراعيها ، وفيما بعد ذلك قال نبيل سالم وهو يصف تلك الفترة ، إنه كان يشعر بأنه منوم أو كالمنوم ... ففي صباح اليوم التالي كان أول ما فعله هو البحث عن غرفة متواضعة في بنسيون أو فندق صغير . ولقد استنفد البحث اليوم بأكمله ... ظل يلهث طوال اليوم لأنه كان يعلم أن عليه أن يغادر الشقة قبل الغروب وألا يعود إليها مرة أخرى مهما كانت الأسباب . كان عليه أن ينقل منها كل ما يخصه والآ يترك فيها أي شيء مهما كان نافعاً أو صغيراً ... ثم أن عليه بعد ذلك أن يحتفظ بالمفتاح إلى أن يلتقي بأبي سليم .

« إمتى !؟ » .

« في الوقت المناسب ! » .

« طب وإنت حاتعرف عنواني إزاي » .

« إنت حتقول لي عليه ! » .

« إزاي يا بو سليم وأنا ... » .

أطلقت عينا الرجل نظرة كأنها رصاصة اخترقت رأس نبيل فيما بين العينين فلزم الصمت !

« إنت يظهر مش عاوز تتعلم يا نبيل » .

هتف هذا معتذراً :

« أنا مش قصدي ! » .

وأخيراً . قبل الغروب بساعة ، استطاع الشاب أن يجد غرفة في فندق من فنادق الدرجة الثالثة ... وها هو يغادر الشقة ، ويحتفظ بالمفتاح ، وها هو في غرفته الجديدة في ذلك الفندق المتواضع ، يتذكر ويتساءل ويضرب أخماساً في أسداس دون أن يجد إجابة عن سؤال واحد مما طاف بذهنه !

كان عليه الآن ، ومنذ الصباح التالي ، أن يبحث عن عمل ! فأي عمل هذا الذي سيبحث عنه وهو لا يتقن الألمانية !؟

فكر ، قبل أن ينام ، أن يلتحق بأحد المعاهد لتعلم اللغة ، وهو يعرف أحدها ، يعرفه ويعرف الطريق إليه . ولكن ... هل يكفي ما معه من مال ؟  
كان ما تبقى لديه ، بعد أن دفع إيجار الغرفة لأسبوعين قادمين ، يكفيه بالكاد لأسبوع أو عشرة أيام إذا ما قتر على نفسه ... لكنه اتخذ قراراً بأن يزيد من تقتيره على نفسه ، وأن يلتحق بالمعهد ، وأن يتنظم في المساء . ثم ... ثم كان عليه بعد ذلك أن ينتظر ، لشيء سوى الانتظار ، حتى يتصل به أبو سليم .

ولقد أدرك نبيل ، خلال الأسبوع التالي ، استحالة حصوله على وظيفة محترمة ... أدرك - بدهشة بالغة - أنه لا يتقن عملاً معيناً ... وهو الآن ، الآن فقط ، وبعد ما يقرب من عامين منذ أن غادر مصر ، اكتشف نبيل سالم أنه لا يتقن مهنة ، وأنه لم يحاول أن يتعلم شيئاً أو يتتبع إلى فن أو فرع من فروع المعرفة ... حتى عندما جلس أمام الأستاذ عند التحاقه بالمعهد ، لم تخف عنه نظرة الإستخفاف التي رماه بها الرجل وهو يقول له : إن هناك فرقاً كبيراً بين اللغة الألمانية ، وبين تلك اللغة التي كان يلوكمها في فمه ملتقطة كلمة من هنا وكلمة من هناك ... وكلما مرت الأيام ، شح المال ، وتسرب القلق إلى نفسه من جديد !!

انقضى الأسبوع وأصبح ما يملكه لا يكفي إلا لطعام يوم أو يومين ... عاد ذات ليلة إلى غرفته في الفندق وقد استبد به القلق استبداداً ، كان فشله في الحصول على وظيفة يؤرقه . وإحساسه بأنه لا يتقن مهنة يعذبه ... أحس كأن غياب أبي سليم عنه يضغط على عنقه ويكتم أنفاسه ، ورغم هذا فلم يكن أمامه من طريق سوى الانتظار ... الآن كان نبيل قد انقطع عن تلك الغرفة التي كان يعيش فيها ، ولم يعد يرى أحداً أو يلتقي بأحد ، اختفى فريدريك بيكر من حياته وكأنه لم يكن ، انقطعت عنه أخبار سامية ولا بد أن خطاباً قد وصل إلى عنوانه بالغرفة أو المطعم ... فقد نبيل علاقته بالعالم ، وكان كل ما يربطه بالدنيا ، الآن ، هو أبو سليم .

ومضت تسعة أيام !

وفي اليوم العاشر كان عائداً إلى الفندق يضرب أحساساً في أسداس ، كان قد أفلس تماماً ولم يعد يملك ثمن وجبة عشاء ... كان الجو بارداً والجوع يعصف به عندما توقفت إلى جواره سيارة ... ظن في أول الأمر أن توقفها لا علاقة له به ، فمضى في طريقه دون أن يلتفت ، لكن السيارة عادت إلى السير من جديد كي تحاذيه وتتوقف ، وكان لا بد له أن يلتفت فالتفت ... وهناك ، خلف عجلة القيادة ، كان أبو سليم يجلس داخل السيارة ، وعلى شفثيه ابتسامة واسعة !

... ..  
... ..

فيما بعد قال نبيل سالم ، إنه لم يكره مخلوقاً في حياته ، قدر كراهيته لأبي سليم في تلك الليلة ... لكنه لم يكن يملك سوى أن يدلف إلى السيارة . دون كلمة منه أو دعوة من أبي سليم . ركب نبيل إلى جواره فانطلقت السيارة ... ران الصمت لدقائق طالت بعض الشيء ، وكانت السيارة تأخذ طريقها إلى إحدى ضواحي المدينة عندما سأله أبو سليم :

« تعشيت ؟ ! » .

وانفجر نبيل ...

انفجر دون أن يعي أو يشعر أو حتى يقصد ، صرخ بكل ما في صدره من يأس وضيق :

« تقدر تقول لي إيه الحكاية دي ؟ ! » .

لم يرد أبو سليم ، بل حتى لم يلتفت إليه ، ولم تختف ابتسامته ، فعاد نبيل إلى الصراخ :

« تكونش فاكرنى عبد عندك ! » .

انحرفت السيارة حتى حاذت الرصيف ، ثم توقفت .

اضطرب نبيل اضطراباً وقد أدرك سر توقفها ... كان المكان خالياً من المارة وليس هناك محلات أو أضواء .



طافت أسئلة الرجل حول هذا الشيء فإذا به ينتزعه انتزاعاً ، وإذا نبيل مستسلم أكثر ما يكون الاستسلام .

« يعني مالفيتش شغل ! » .

« ما أنا حكيت لك يا أبو سليم ؟ » .

دس هذا يده في جيبه وأخرج منه قصاصة ورق انتزعت من جريدة ألمانية ربما كانت ديرشبيجيل ، وضع القصاصة تحت عين نبيل متسائلاً :

« قرئت الإعلان ده ؟ ! » .

بذل نبيل جهداً حقيقياً كي يقرأ الإعلان المكتوب بالألمانية .

« ده إعلان عن وظيفة خالية » .

« والشرط اللي فيه إن المتقدم لازم يتقن العربية والإنجليزية ! » .

انتفض نبيل في جلسته وارتج تماماً .

« وده فين ؟ ! » .

أوما أبو سليم نحو قصاصة الورق قائلاً :

« ماتقرأ الإعلان ! » .

« إنت عارف إني ما اعرفش ألماني كويس ! » .

« ما هو إنت لو كنت تعرف ألماني ، ماكنتش دخت الدوخة اللي إنت

دختها دي . . . كان كفاية إنك تشتري الجرنان كل يوم الصبح ، وتشوف

الوظايف اللي فيه ، وتتقدم ! » .

« مانا قلت لك إني رحت معهد ! » .

« رحت كام يوم في الأسبوع اللي فات ؟ ! » .

غمغم نبيل خافضاً بصره :

« ماكانش ممكن أنتظم وأنا قاعد أستناك ساعة بساعة ! » .

سدد أبو سليم نظرة إلى عيني نبيل فانتفض هذا محتجاً :

« إيه بس يا أبو سليم ؟ ! » .

دق هذا بأصبعه فوق قصاصة الجريدة قائلاً :

« وقفت ليه » .

« إتفضل ؟ ! » .

« إحنا حاننزل هنا ؟ ! » .

هكذا سأل نبيل فأنكر المذلة في صوته !

« أنت اللي حاننزل مش أنا !! » .

في عصبية فتح نبيل باب السيارة هاتفاً في تخاذل :

« أيوه حانزل . . . بس أعرف إيه الأسباب !! » .

كان يتوسل . وكان توسله رخيصة !

« مش إنت اللي مش عاجبك ؟ ! » .

« إنت مش عارف إني كنت مستنيك طول الأيام دي ؟ ! » .

« عارف ! » .

« تقوم تسييني كده ؟ ! » .

« أنا قلت إني حاشوفك في الوقت المناسب ! » .

« وهو الوقت المناسب ده ، مايجيش أبداً إلا لما أجوع ؟ ! » .

« وهو إنت جعان ؟ » .

قالها أبو سليم في برودة الصقيع خارج السيارة .

« وأما يبقى ماعيش مارك أتعشى بيه ! » .

« خلاص . . . نتعشى سوا ! » .

وأغلق نبيل باب السيارة ، التي عادت إلى الإنطلاق من جديد .

\* \* \*

« ما سألتنيش أنا جيت لك النهار ده ليه ؟ ! » .

رغم فجاجة السؤال ، فلن نبيل تقبله عن طيب خاطر . . . كان العشاء

فاخراً بحق ، وقع اختيار أبو سليم على مطعم تحوطه حديقة بدت من خلف

زجاج النوافذ كقطعة من الجنة . . . سرى دفء الطعام والشراب إلى أوصال

نبيل فهدأت أعصابه . . . أثناء الطعام حكى لأبي سليم عن كل خطوة خطاها

في الأيام الماضية . . . بالتفصيل كان يحكي ، وكلما غاب عن ذهنه شيء

« آخر ميعاد عشان تتقدم بكره ! » .  
« من الفجر حاتلقاني هناك ! » .  
« علشان كده لازم تنام بدري ! » .  
قال أبو سليم هذا وهو ينهض واقفاً ، فنهض نبيل دون كلمة .  
« مانتاش ناسي حاجة يا نبيل ؟ ! » .  
« حاجة زي إيه ؟ ! » .  
مد أبو سليم إليه يده قائلاً :  
« فين مفتاح الشقة ؟ ! » .  
في لهفة وارتباك ، قدم له نبيل المفتاح ، وكان يشعر أمامه بضعف لا حدود له !

\* \* \*

بدت له عيناها في عمق المحيط ، أطلت عليه من خلف نظارة طبية كأنها السحر ، انسدل شعرها الذهبي كغدير يصب فوق الكتفين ، أنف قبيح بالقياس إلى شفتين مكتنزتين مفترتين عن دعوة دائمة . . . مالت نحوه وصوتها يسبح بينهما .

« سيدي ؟ ! » .  
كأنها نقلته من فوق الأرض إلى ذروة أحلامه . . . كأنه لم يعيش قبل أن يراها ، حاول النطق فضاع صوته في خفقات قلبه . عادت ترسل إليه صوتها السابح :

« سيدي ! » .  
« جئت . . . جئت . . . » .  
تلعثم وهو يجذب عينيه من برائن عينيها بجهد واضح .  
« جئت من أجل الوظيفة الخالية ! » .  
إفترت شفتاها عن ابتسامة كأنها إشراقة صبح في جنة . . . امتدت يدها إلى أحد الأدراج وسحبت منه ورقة قدمتها إليه :

« إملأ هذه البيانات من فضلك » .  
تناول الورقة وتلفت حوله فطوقه صوتها في حنان :  
« تستطيع أن تستعمل المائدة الصغيرة على اليسار ! » .  
خطا كالنائم نحو المائدة التي أشارت إليها فإذا الصوت يضمه من الخلف :  
« إذا احتجت إلى أية مساعدة . . . دعني أعرف من فضلك ! » .  
وكانت نظرة واحدة إلى الورقة كفيلة بأن تؤكد له أنه في حاجة إلى المساعدة فعلاً . . . ما أن رفع رأسه نحوها استجابت دون كلمة ، تخطت الحاجز وخطرت إليه كغزال يتراقص في مرعى يملكه وحده ، انحنت عليه فدثره عطرها بدثار من دفاء نادر ، سرى الخدر إلى أوصاله وراح يكتب كل ما كانت تمليه عليه . . . انتهى من ملء البيانات فتناولت منه الورقة واختفت خلف باب زجاجي . . . تركته خافق القلب مبدد الوجدان فما هذا الذي يحدث له ، تذكر سامية فبدت له باهتة الملامح . . . فتح الباب فانتفض ، تقدمت منه والإبتسامة تملأ وجهها كالشمس في يوم مطير !

« يريد المدير أن يراك ! » .  
خطا نحو باب الغرفة فربت صوتها على كتفه :  
« حظ سعيد ! » .

\* \* \*

« تصور يا أبو سليم ، تصور ! » .  
كان قد التقى به بعد الغروب في مقصف في أطراف المدينة !  
« مش غريبة إن المدير يوصلني لحد باب الأوضة ؟ ! » .  
بدت له ابتسامة أبو سليم غريبة ، وحتى صوته وهو يسأل كان غريباً  
« وحاستلم الشغل من إمتى ؟ ! » .  
« من بكرة . . . بكرة الصبح ! » .  
« طب مش تبعت جواب لسامية تبشرها !! » .

\* \* \*

« والجوابات آهيه ! » .

هكذا قالت سامية فهمي لعادل مكّي في صباح اليوم الثالث وهي تقدم له مجموعة من الخطابات يضمها شريط أزرق اللون . . . تناول عادل الخطابات وهو ينظر إلى وجهها ، كان موقناً أشد ما يكون اليقين ، أنها كانت تقدم له ، وببدها ، قطعة من لحمها !!

\* \* \*

## الفصل التاسع

لويز جولد مانتى تبدأ مرعتها...

كان من الواضح أمام عادل مكّي ، أن سامية فهمي قضت ليلة عصبية بحق . . . سلمته مجموعة الخطابات وكانت تبدو شاحبة شحوباً عظيماً . . . أدرك على الفور أن لا جدوى من الحديث مع هذه الفتاة التي ابتلاها القدر بما لم تتخيله يوماً ، وضع الخطابات فيما بينهما وهو يرسم على شفثيه ابتسامة بلا معنى . . . قال كالمعتذر :

« تعبتي إنتي قوي يا سامية ؟ ! » .

« ماما تعبانة أكثر ! » .

اقتحم الطريق إلى عقلها قائلاً :

« اللي يقرأ لك في المجلة ما يتصورش إنك توصلي للحالة دي ! » .

« أصل مصر غالية قوي يا عادل بيه !! » .

هوت الجملة فيما بينهما فأحس بقلبه يكاد ينفجر لفرط الإشفاق عليها !

« مصر بخير طول ما فيها ناس زيك ! » .

سحت دموعها في صمت فلم تحاول حتى أن تمسحها ، خلعت نظارتها الطبية وتركت العنان للدمع كي ينهمر . . . ساد الصمت طويلاً وكان عادل يدخن في شراة . . . نظرة واحدة منه إلى مجموعة الخطابات كانت كافية لأن تكمل الحلقة وتوضح الصورة ، تذكّر أياماً ذهب فيها إلى ألمانيا ، إلى هامبورج بالذات . . . ذهب كي يُحذّر شاباً مصرياً كان ينزلق إلى هاوية بلا قرار . . . تذكّر كيف كان اللقاء وكيف كان الحوار . . . إستغرق في الذكرى عندما جاءه

صوت سامية وكأنه يأتي من بعد سحيق :

« يوم ماجاني منه جواب بأنه استقر في هامبورج واشتغل في شركة سياحة كنت حاطير من الفرح !! » .

انقبض قلب عادل وسو ينظر إليها بدمعها وحزنها وضعفها فأدرك إنها الآن في سبيلها إلى مواجهة الحقيقة سافرة ! ... بدا له حديثها وكأنها تنعي نبيل سالم تتحدث عنه حديث حي عن عزيز اختطفه الموت فجأة !

« حسيت يومها إنه مخذلنيش ، حسيت إنني فرحانه وعاوزة أقول للناس كلها إن نبيل نجح !! » .

في تلك الأيام التي كانت تتحدث عنها ، كانت سامية فهمي تبدو مشرقة متفجرة بالحياة راحت تبني حلماً فوق حلم حتى صنعت من أحلامها ناطحة سحاب كتلك الناطحات التي كان نبيل يكتب لها عنها ... في تلك الأيام بالذات ، اقتحم عليها فرحتها فريد الشاعر مدير التحرير ... لم يكن فريد بالنسبة لها مديراً للتحرير فقط ، بل كان أستاذاً وصديقاً وأخاً ... كان هو أول من التقت به عندما دخلت مجلة الفجر لأول مرة للتدريب حسب برامج الكلية ... كانت تتعثر خجلاً ورهبةً وحباً لتلك المهنة التي ملكت عليها حياتها ... كان فريد يناقشها ويوجهها ويكشف لها مواطن الضعف والقوة في موضوعاتها ، وحتى في صياغة أخبارها ... ظنت في البداية أن ما كان يفعله فريد الشاعر نوع عصري من الغزل فتأهبت لمعركة لم تقع على الإطلاق ... حتى كان يوم ، وكانا قد أصبحا صديقين حميمين ، حكمت له فيه عن إحساسها نحوه في البداية فضحك فريد قائلاً :

« أصل اللي زيك يا سامية خسارة فيهم الغزل ! » .

أحست بالإهانة فهتفت مغاضبة :

« فريد ! .. »

« ماتفهمنيش غلط ! » .

« طب فهمني ! » .

« اللي زيك يتحب من غير كلام ! » .

يومها أدركت سامية فهمي أن فريد الشاعر مدير التحرير وصديقها الأقرب يحبها ، حقاً ... كانت أعوام ثلاثة قد انقضت منذ أن دخلت إلى المجلة لأول مرة ... نظرت إليه فكانها تراه لأول مرة ، كان فريد بالنسبة إليها مثل صفحة من صفحات المجلة الثابتة ... تتغير الموضوعات وتتلون وتتخذ أشكالاً عدة ، فيما عدا تلك الصفحة ثابتة في شكلها ومكانها وكأنها أبد أو قَدَر ... هكذا فريد الشاعر في حياتها قد أصبح ... هَمَّت بالرد عليه لكنه كان قد انصرف ... هو يعلم أنها تحب نبيل سالم ولطالما حدثته عنه ولطالما تحدثا معاً عنه ... ذات يوم قال لها متفعلاً إنها تحب سراباً ... هي لا تدري كيف قال ما قال ولا لماذا نطق بما نطق به ... لكن كلماته في النهاية أغضبته إلى حد الإحتقان ... لحظ غضبها واحتقانها فقال :

« يا سامية أنا ما أقدرش أكذب عليك ! » .

« وأنا ما طلبتش منك إنك تكذب ! » .

« نبيل اللي في خيالك حاجة ... ونبيل الحقيقي حاجة تانية ! » .

« قصدك إيه ؟؟ » .

في نفاذ صبر وحنان ، مال عليها مؤكداً :

« قصدي إنك بتحبي صورة صنعها خيالك ... مش بني آدم حقيقي ! » .

« إنت بتغير منه يا فريد !؟ » .

« يمكن !! » .

« معقولة !؟ » .

هكذا هتفت فلقد جاءتها الحقيقة هذه المرة سافرة بلا أقنعة من كلام .

« أيوه معقوله ... ليه لأ ؟! » .

« فريد ! » .

« وعلشان أبقي واضح قدامك تمام ، أحب أقول لك إنني باحبك من

زمان ! » .

« إيه اللي انت بتقوله ده ؟! » .

« أنا حبيت قبل كده كثير ... لكن عمري ما فكرت أتجوز واحدة غيرك ! » .

هَمَّتْ بالصراخ لكنه كان قد استدار ومضى ... هكذا هو منذ أن التقت به وعرفته وزاملته وصادقته ، يقول قوله ويمضي تاركاً وراءه عاصفة في رأس محدثه .

حدث هذا في تلك الأيام المعبقة بأريج الأمل وخطابات نبيل تصلها بانتظام وهو يحدثها عن عمله وحياته ويصف لها مسكنه الصغير الذي انتقل إليه بعد إقامة طالت في فندق من فنادق الدرجة الثالثة ... اعترف لها فريد الشاعر صراحة ولأول مرة ، بحبه ... لكنه أبداً لم يذكر حديثهما هذا مرة أخرى ، أبداً لم يذكره ... كان يبدو في تلك الأيام مستغرقاً في العمل إلى حد الانتحار !

... ..  
... ..

« سامية ! » .

في رفق وحنو ناداها عادل مكى ، كان الدمع قد كف وجف وتحولت العينان إلى قطعتين من الزجاج تحجرتا في مكانهما فتحجر معهما كل الجسد فإذا هي تمثال للحزن يجلس !

« سامية ! » .

في ببطء وثناقل رفعت إليه رأسها .

« أظن من الأوفق إنك تروحي النهار ده ! » .

« حاضر ! » .

قالتها في ضعف شرخ قلبه ... تذكرها يوم رآها في قلعة الكيش وهي تدخل البيوت وتناقش السيدات وتحسهن وتعلمهن وتحضهن على العمل في المشغل ... كانت تبدو مثل صاروخ منطلق ليست هناك قوة تستطيع وقفه ، رآها في تلك الأيام التي أعقبت زيارة نبيل للقاهرة مثل زهرة تنشر من حولها

شذى الحياة نفسها فأوقعته في الحيرة ، لكنها انتزعت إعجابه .

« تحبي أبعث معاكى حد يوصلك للبيت ؟! » .

« أنا عاوزه ابقى لوحدي ! » .

نهضت فنهض معها .

« تحب سيادتلك تشوفني إمتى ؟ » .

« لما تستريحى وتستردى ... .. » .

صمت فرفعت إليه رأسها متسائلة :

« أستردي إيه ؟! » .

« تستردى سامية فهمي اللي باقرأ لها ! » .

هزت رأسها في صمت واستدارت نحو الباب فخطا بسرعة في اتجاه الباب كي يفتحه لها ، وضع يده فوق المقبض ثم توقف مستديراً نحوها :

« سامية ... أنا مش محتاج أكاد عليكى ... .. » .

قاطعته :

« ماتخافش يا عادل بيه ... ماتخافش ... محدش حايعرف مني حاجة ! » .

فتح الباب فنفذت منه إلى العمر الطويل ، نادى على أحد رجاله فلبى الرجل النداء :

« أفندم ! » .

« وصل الأنسة لحد البوابة اللي بره ! » .

ظل واقفاً في مكانه حتى اختفت ... كانت تبدو مثل عود أخضر يتمايل في عاصفة هوجاء ظلت تسير مترنحة حتى اختفت ، عاد عادل إلى الغرفة وألقى بنظرة إلى مجموعة الخطابا ... امتدت يده إليها والتفت أصابعه حولها بحرص ... هنا ... هنا بالقطع سوف يجد الكثير مما يبحث عنه ويريد معرفته ... هنا سوف يجد الضوء الذي يكشف بعضاً مما غمض عليه !

\* \* \*



خضعت مجموعة الخطابات التي أرسلها نبيل سالم إلى سامية فهمي ، ما أن غادر مصر وحتى ذلك اليوم ، لعمليات تحليل ودراسة شديدة التعقيد . . . لم يكن المطلوب فقط هو كشف الأسلوب الإسرائيلي في جمع المعلومات ، تجنيد الشباب أو السيطرة . . . كان المطلوب أيضاً أن تدرس خطابات نبيل سالم دراسة نفسية . . .

وكان السؤال الذي وضع أمام واحد من أبرز علماء النفس في مصر ، وبعد تحليل خط نبيل واختلافات انسيابه من خطاب إلى آخر تحليلاً علمياً بواسطة خبير في الخطوط ، هو : لماذا انزلق هذا الفتى ؟! . . . وما الأسباب التي دفعته إلى الخيانة ؟! . . . وهل كان واقعاً تحت ضغط من نوع خاص ، أم أن الضغوط حاصرته من كل جانب ؟! . . . ثم . . . ثم لماذا نبيل سالم بالذات ؟! . . . ولماذا اختير لهذا الدور ؟! . . . وكيف ولم وقع عليه الاختيار ؟! . . . ثم كيف حدد له دوره ؟! . . . أسئلة وأسئلة وعشرات الأسئلة كانت في حاجة إلى إجابات !

وكانت الإجابات تحمل في طياتها أكثر من نذير !

\* \* \*

نحن لا نشك في أن الإسرائيليين عندما جاءوا بفتاتهم المدربة « لوزير جولدمان » - التي عرفت في فرنسا باسم « صوفي جارديني » - إلى هامبورج تحت اسم « شيرلي هايمان » . . . كانوا بارعين في إخفاء شخصيتها . . . غير أن المثير للدهشة في الأمر كله . . . أن نبيل سالم عندما ذهب إلى تلك الشركة السياحية كي يتقدم للإلتحاق بالوظيفة التي أعلنوا عنها ، ثم التقى - أول ما التقى - بشيرلي هايمان ، سقط صريع هواها منذ اللحظة الأولى ، نسي سامية ونسي نفسه بل كاد ينسى أبو سليم دون سبب واضح . . . وحتى عندما سئل نبيل بعد ذلك عما حدث في تلك اللحظات الأولى ، لم يستطع تفسيره . . . بدا له الأمر كنوع من القضاء والقدر ، وكان كل أحلامه في المرأة قد تحققت فجأة عندما وقعت عيناه على تلك الفتاة الإسرائيلية الشديدة الخطر !

غير أن هذه المسألة بالذات - وحتى الآن - تبدو وكأنها ضربة من ضربات

الحظ العجيبة في هذا الحقل ، حظيت بها المخابرات الإسرائيلية من حيث لم تحتسب . . . وحتى القول بأن الأمر كان براعة من رجال الموساد الذين استطاعوا دراسة نبيل سالم دراسة وافية ودقيقة ، ثم اختاروا له تلك الفتاة كي تجسد له أحلامه فتمهد لهم الطريق لتنفيذ ما خططوه ، مردود عليه بأن شيرلي هايمان ، لعبت من قبل أدواراً أكثر خطورة بكثير من دورها هذا الذي يبدو متواضعاً إلى جانب ما قامت به تلك الفتاة في مجالات أخرى . . . وأغلب الظن أن لويز جولدمان التي عرفها نبيل سالم تحت اسم شيرلي هايمان ، قد اختيرت لهذا الدور فقط ، كي تسيطر على الفتى داخلياً . . . بل لتستعمل كل ما دربت عليه حتى تمتلكه امتلاكاً لا فكاك له منه . . . وهي في الوقت نفسه كانت - بحكم تجربتها السابقة مع الشباب الجزائري في باريس - أقدر من غيرها على وضع هذا الشاب النعس تحت مجهر البحث ، وفي سلسلة من الاختبارات كانت تستلزم قدرات من نوع خاص ، حتى إذا جُهِزَ تماماً ، وثبتت صلاحيته ، أطلق إلى المهمة التي اختير لها !

... ..  
... ..

عندما صافح مدير شركة السياحة نبيل مهتاً إياه بالوظيفة الجديدة ، بعد لقاء لم يدم سوى دقائق لم تزد على العشرين ، بدا للشباب وكأن الأمر كله حلم لا حقيقة . . . ولو أن نبيل سالم توقف في ذلك اليوم للحظات أمام ما حدث لاكتشف أن الأمر من أوله إلى آخره كان مدبراً . . . ذلك أن المدير سأل إن كان يتقن اللغة العربية ، وهو يعرف أنه مصري . . . ثم طرح عليه أسئلة تؤكد معرفته الكاملة بإمكانات نبيل مما جعل الأمر يبدو وكأنه الإنسان المطلوب تماماً . . . ونحن نرى أن نبيل سالم كان معذوراً ، فبعد سلسلة الفشل التي عانى منها ، كان لابد له أن يتشبث بالنجاح الوحيد الذي حققه بعد عامين من الضياع لم يحقق فيهما شيئاً على الإطلاق . . . ثم إذا أضيف إلى هذا أن المدير نهض كي يودعه حتى الباب ، ثم إذا ما قال له أن « مس هايمان » بالذات هي التي ستولى تدريبه . . . كان لابد أن يعطش صوابه !

والآن . . . وقد كان جالساً إلى أبي سليم بعد الغروب في ذلك المقصف القائم في أطراف المدينة لم يتبته ولم تلفت نظره - لفرط سعادته وإحساسه بالنجاح - تلك اللهجة التي استجذت في حديث أبي سليم ، وذلك الأسلوب الصارم في الأسئلة التي كان يوجهها إليه عما حدث منذ أن دخل الشركة حتى غادرها . . . لم يتبته نبيل لأنه كان غارقاً في استعجال الغد ، فلقد كان على موعد مع شيرلي التي ضغطت على يده في رفق وهي تصافحه مهتشة وتكسرت نظراتها أمام عينيه التائهتين في ملامحها وهي تهمس :

« في الغد . . . ستجديني في انتظارك ! » .

« قال له أبو سليم وقد لاحظ سهومه :

« أنا عاوز تفتح عينيك يا نبيل للشغل ، ولاحظ إنك كل ما تعلمت بسرعة ، كل ما كان ده في مصلحتك ، ومصلحة شغلنا ! » .  
« شغلنا !! » .

هكذا هتف نبيل الذي كان قد نسي أن ثمة عملاً آخر يربطه بهذا الرجل الذي كان يحكم السيطرة عليه يوماً بعد آخر ، بل ساعة بعد ساعة . . . لم يجبه الرجل عن تساؤله ، بل راح يلقي عليه التعليمات في صرامة وجفاف . . . ان عليه ألا يضيع وقتاً وكفى ما ضيعه من شهور وأعوام فيما لا ينفع . . . ولا بد له من أن يواظب على الذهاب إلى المعهد حتى يتقن الألمانية في أقصر وقت ممكن ، كما أن عليه أن يستعين بهذه الفتاة التي ستتولى تدريسه . . . والتي اسمها اسمها . . .

« قلت لي اسمها إيه يا نبيل ؟ ! » . « شيرلي هايمان ! » .

« حلوة ؟ ! » .

هز نبيل وكان الأمر لا يعنيه :

« يعني !! » .

« المهم حاول تستفيد منها علشان تقوى اللغة بتاعتك ! » .

« ماتخافش عليّ يا أبو سليم . . . أنا . . . . . » .

وصمت نبيل بادي الحيرة :

« إيه مالك ؟ ! » .

« أصلك قلت لي من شويه إن شغلي في الشركة في مصلحة شغلنا مع بعض ! » .

« طبعا ! » .

« طب إزاي ؟ ! » .

رماه أبو سليم بنظرة نارية ، احتدم صوته وهو يميل نحوه متحدثاً في صوت خافت وجاف :

« أظن ان فيه اتفاق بيننا إنك ما تسألش ! » .

« أنا مش بأسأل . . . أنا عاوز أعرف ! » .

« لما يبقى لازم إنك تعرف ، حانبقى نعرفك ! » .

استوقفت نبيل كلمة « نعرفك » لثوانٍ خاطفة لكنه ألقاها خلف ظهره مستجيباً :

« حاضر يا أبو سليم ! » .

« ولازم تفهم ، وبوضوح شديد جداً ، إن أي حاجة في شغلنا . . . أي حاجة مهما كانت هابقة أو صغيرة أو بسيطة ، تعتبر سر على كل الناس إلا أنا وأنت ، كل الناس مهما كانوا قرييين منك أو ثقتك فيهم عالية ، كل الناس . . . كل الناس يا نبيل ما عدا أنا وأنت ! » .

مال نبيل نحوه متبسطاً وهو يقول :

« ما تخافش عليّ يا أبو سليم . . أنا . . . . » .

« لا . . . لا يا حبيبي ، المسألة مش بالبساطة اللي انت متخيلها ، إحنا نلعب في المخدرات يعني أي غلط فيها مؤيد ، أو إعدام ! » .

بدا التذمر على نبيل :

« خلاص يا أبو سليم . . . فيه حاجة ثانية ؟ ! » .

بنظرة كأنها سهم مسموم ، قال :

« أبوه فيه ! » .

« خير ؟ ! » .

« تقوم من هنا على محطة السكة الحديد ، تأجر هناك خزانة وتخلي مفتاحها معاك على طول ! » .

« بسيطة ! » .

« ومش لازم حد في الدنيا يشوف المفتاح ده ! » .

« المهم أنا هاعمل إيه بالخزانة دي ؟ ! » .

« بعدين حاتعرف ! » .

« قال أبو سليم هذا في جفاء وهو ينهض قائلاً :

« المرة الجاية حاتبقى نخط جدول لمقابلاتنا ! » .

« جدول ؟ ! » .

« إحنا مش اتفقنا إن الناس مش لازم يشوفونا مع بعض كثير ؟ ! » .

قال أبو سليم هذا ثم انصرف ذون أن يلقي التحية على نبيل الذي كان واقعاً في حيرة وارتباك لا حدود لهما . . . تركه وقد أفسد عليه أحلامه التي تشبث بشيرلي هايمان .

في تلك الليلة ظل يسير في شوارع هامبورج على غير هدى ، مستغرقاً ، مستعيداً في كل دقيقة ، كل ما مر به مع شيرلي منذ أن رآها وحتى انصرف عنها . . . راح يستعيد الكلمات والجمل والنظرات والإيماءات والإبتسامة وحتى الأنف القبيح بدا له متناسقاً مع الوجه كأحلى ما تكون الأنوف . . . كان نبيل يتذكر ، ثم يحلل ، ثم يفسر . . . كان سعيداً بحق ، وقبل أن يأوي إلى فراشه في تلك الليلة ، كان قد أدرك أنه وقع في الحب من أول نظرة !

\* \* \*

هناك حقيقة لا سبيل إلى إنكارها . . . هذه الحقيقة هي أن نبيل سالم نجح بالفعل في عمله الجديد نجاحاً لم يتوقعه حتى أبو سليم نفسه ! . . . وفي خلال

أسابيع قليلة كان قد التقط كل أسرار الوظيفة من شيرلي هايمان التي أصبحت الآن تمضي معه أغلب أمسياتهما ، وفي خلال تلك الأسابيع نجح في تحصيل كمية لا بأس بها من كلمات اللغة الألمانية وقواعدها وأساليب نطقها وبعضاً يسيراً من آدابها . . . كانت شيرلي ، إذا ما التقت به بعد مغادرته للمعهد ، تصر على ألا تتحدث إليه إلا بالألمانية ، كانت تقول له إن نصف إتقان اللغة - أية لغة - هو في ممارسة الحديث بها . . . وكانت شيرلي الآن قد أصبحت جزءاً من حياته . . . حتى إذا كان يوم ، ولم يكن قد مضى على نبيل أكثر من أربعة أسابيع ، أعلن مدير الشركة أن الهر نبيل سالم سوف يتولى مسؤولية سيارة تحمل خمسين سائحاً ، نصفهم من العرب ، والنصف الآخر من جنسيات أخرى ، لكنهم جميعاً يتحدثون الإنجليزية !

« هر نبيل . . . لعلك تعلم مقدار الأهمية التي نضمها على نجاحك في رحلتك الأولى ! » .

« لا تخش شيئاً سيدي المدير ، ستجدني كما تريد لي بالضبط ! » .

ابتسم الرجل لمجاملة الفتى الذي كان يتفجر بالسعادة أمامه . . . وما أن علمت شيرلي بتلك الترقية حتى قفزت إليه وطوقت عنقه بذراعيها ، وطبعت على شفتيه قبلة حارة . . . فدار رأسه !

« كم أنا سعيدة يا حبيبي ! » .

وكما كانت القبلة التي منحتة إياها هي قبلتها الأولى له ، كانت كلمة « حبيبي » هي الأخرى وكأنها شهادة عقد لم يوقع بعد !

وكم كانت الدنيا زاهية في عيني نبيل سالم !!

... ..

... ..

في صباح اليوم التالي هفتت به شيرلي هايمان :

« أين غاب عنك متتجو السينما أيها الشاب ؟ ! » .

كان نبيل بالفعل وسيماً في اليونيفورم الخاص بالشركة ... اقترب منها هامساً :

« ألا تتمنين لي حظاً سعيداً ؟ » .

« لا تنسى أنك مدعو على العشاء الليلة ؟ » .

« عشاء ؟ .. ومن الداعي ؟ » .

« فتاة أمريكية سعيدة الحظ لأنها عرفتك وهي تريد الليلة أن تحتفل بك ومعك ! » .

كان غزلها رقيقاً ، وكانت تتسرب إلى دماغه يوماً بعد يوم ... تركها على مضض ودلف إلى مكاتب الشركة كي يجهز أوراقه وحقيته ويراجع الأسماء ... دلف إلى أحد المكاتب مندفعاً إلا أنه توقف فجأة وكأنه تسمر في الأرض ... فأمامه مباشرة ، كان أبو سليم يجلس إلى أحد الموظفين وقد استغرقاً معاً في مناقشة حامية حول تأجير سيارات ، ما أن توقف نبيل حتى التفت أبو سليم نحوه ، وكانت نظرة واحدة من الرجل كافية لأن تنبهه فتظاهر كل منهما بأنه لا يعرف الآخر ... ألقى نبيل عليهما تحية الصباح ثم اندفع نحو المكتب الذي خصص له وراح يراجع الأوراق والكشوف ... استخرج من أحد الأدراج حقيبة متوسطة الحجم شديدة الأناقة تحمل اسم الشركة وضعها أمامه وراح يرتب أوراقه مستغرقاً في عمله ... هتف الموظف في أبي سليم أن الفواتير القديمة موجودة ، لكنها في قسم آخر ... وما لبث الرجل ، مع إلحاح أبو سليم أن نهض مغادراً الغرفة .

« ظل نبيل - رغم انصراف الرجل - مستغرقاً فيما هو فيه حتى جاءه صوت أبي سليم :

« بص للشنطة دي كويس يا نبيل ! » .

رفع نبيل بصره إلى الرجل ، ثم انحدر به إلى الحقيبة الراقدة فوق المكتب :

« دي بتاعة الشركة ! » .

« لما تطلع الأوتوييس حاتلاقي فوق الكرسي نمرة ١٢ شنطة زيها بالضبط ! » .

« من بتوع الشركة ؟ » .

« من بتوع الشركة ! » .

« ودي مالها ؟ » .

« ملهاش ... خذ الأوراق اللي حاتستعملها ، وحط شنطتك جنبها ! » .

« ليه ؟ » .

« علشان وإنك نازل لازم تغلط وتأخذ الشنطة الثانية وتسبب دي ! » .

قفز قلب نبيل إلى حلقه ، أضاء النور فجأة على حقيقة لم تغب عنه ، وإن كان قد غيها هرباً ..

« ما هو ... أصل ... يعني لما ... » .

لم يكن يريد أن يقول شيئاً ... كان فقط يبحث عن صوته ، وعندما وجده قال :

« ولما آخذ الشنطة أوديتها فين ؟ » .

« تحطها في الخزانة اللي انت أجرتها في محطة السكة الحديد ! » .

« وإذا حد مسكتي ! » .

« حاتقول إنك أخذتها غلط وإن شنطتك اللي فيها الأوراق في الأوتوييس ! » .

أضاءت وجه نبيل ابتسامة ... ، وزفر .

« وبعدين ؟ » .

« عارف مكتبة فاندوا ؟ » .

« طبعا عارفها ! » .

« في القسم بتاع الروايات والقصص ، في الرف الثالث على يمينك فيه مجموعة أعمال جوته ... عارفه ؟ » .

« ده شاعر ألماني ! » .

« أول مجموعة كتب على الشمال حاتلقاها رواية فاوست ! »  
« رواية فاوست ! »

« أول نسخة في المجموعة دي ، تاخذها ، تقرأ فيها شوية ، وتحط مفتاح  
الخزنة في صفحة ٨٠ - ٨١ وترجع النسخة مكانها بالضبط ، وتمشي على طول  
من غير ما تبص وراك ! »

هم نبيل بالسؤال لكن الموظف عاد مهزولاً وهو يمسك في يده ملفاً قدمه  
لأبي سليم .

« إليك يا سيدي كل ما تريده من فواتير قديمة ! »

استغرق أبو سليم في عمله ، وعاد نبيل إلى ما كان فيه ، لكنه كان الآن  
يشعر بأنه سيخطو خطوته الأولى نحو عالم غامض وغريب ، تفجرت في رأسه  
عشرات الأسئلة ، لكنه كان يعلم يقيناً ، إنه حتى الإجابات لن تشفي عليه ،  
ولن تصل به إلى بر ... فاستسلم لقدره !

\* \* \*

## الفصل العاشر

### الحقيبة والمفتاح !

ليس منطقياً أن نتهم نبيل سالم بالغفلة أو الغباء ... ذلك أن كل الأحداث  
التي مرت بهذا الشاب التمس ، أكدت أنه يدرك معنى الأحداث في حينها ،  
لكنه على حد تعبيره فيما بعد - كان « يطنش » ، ويلقي خلف ظهره بكل ما من  
شأنه أن يجعله يتأمل أو يتدبر أمره !

ويقيناً ... فإن مسألة اختياره لتلك الوظيفة التي أعلنت عنها شركة السياحة  
الأمريكية هذه لم تمر عليه مرور الكرام ، حتى وإن تشبث أمام وعيه بأنهم قبلوه  
لكفاءته ، أو - على الأقل - لأنه كان أصح من تقدم للوظيفة ، فلقد كانت  
الطريقة التي قابله بها المدير ، وتلك الأسئلة الساذجة التي طرحها الرجل  
عليه ، والتسهيلات التي قدمت له ... كل هذا جعله ، ولو في لاوعيه ، يوقن  
بشكل غامض ، أن أصابع أبي سليم كانت وراء هذا الذي حدث !

لذلك ، فهو عندما رأى أبا سليم في أحد مكاتب الشركة يتفاوض ويتناقش  
مع أحد الموظفين ، تصاعد هذا الإحساس إلى وعيه بوضوح ، وعندما غادر  
الموظف الغرفة ، لم يفت نبيل أنه غاب لدقائق كانت كافية لأن يلقي له أبو سليم  
بتعليماته الجديدة حول الحقيبة ... وأنه عاد إلى الغرفة في الوقت المناسب  
تماماً ... لذلك ، فلقد قرر الاستسلام لواقعه ، لأنه لم يكن على استعداد لأن  
يفقد ذلك الواقع الذي كان يتشبث به تشبثاً ملك عليه تفكيره ... فهو - مثلاً -  
لم يكن على استعداد لأن يفقد تلك الوظيفة كي يعود إلى مطبخ مطعم حقير ،  
ولم يكن على استعداد لأن يفقد صلته بشيرلي هايمان التي مثلت له في تلك  
الأيام ذروة السعادة ، بل - ودون مبالغة - ذروة إحساسه بالأمان !!!



كانت شيرلي قد استطاعت أن تحتويه احتواءً كاملاً ، وبالتأكيد ... فإن هذه الفتاة الخطيرة كانت تعرف عنه كل شيء ، كما كانت - في نفس الوقت - قد لُقنت بما يجب عليها أن تفعله معه ... وبخبرتها السابقة مع الشباب الجزائري في باريس ، فلم يكن الأمر يشكل أي نوع من أنواع الصعوبة بالنسبة إليها ... وهكذا وما أن شرعت في وجهه أسلحتها ، حتى سقط نبيل سالم في شراكها ، واستسلم دون مقاومة !

وإذا كان نبيل أحس بهذا وارتضاه ، إلا أنه لم يتساءل عن السبب الذي من أجله اختار أبو سليم ذلك الوقت - الشديد الضيق - كي يلقي إليه بتعليماته فيما يختص بأخطر مرحلة من مراحل تعاونهما معاً ... وحتى إن كان قد تساءل ، فهو بالتأكيد لم يكن ليفهم أو يعي تلك الشراك التي نصبت من حوله كي تسيطر عليه وتسلبه كل إرادة ، وتحوله من إنسان إلى أداة طيعة لا حول لها ولا قوة !

لم يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء ، كي يعلم نبيل أن الحقيقة التي كان عليه أن يأخذها من الأوتوبيس ، كانت محملة بالمخدرات ... ولقد حمد لأبي سليم أنه اختار ذلك الأسلوب الذي قد يجنبه الكثير من المآزق « لو أن الطوبة جاءت في المعطوبة » وقبض عليه ... ففي ذلك الوقت ، لم يكن عليه إلا أن يقول إن لبساً قد حدث ، وإنه أخذ تلك الحقيقة خطأ بدلاً من حقيقته التي كانت موضوعة إلى جوارها ... وعلى كل ، فما أن صعد إلى الأوتوبيس ، وكان السائحون قد سبقوه إليه واحتلوا مقاعدهم ، وما أن ألقى ببصره إلى الرف الذي يعلو المقعد رقم ١٢ ، حتى وجد تلك الحقيقة الأخرى ، فإذا بها نسخة طبق الأصل من تلك التي يحملها ... كان لها نفس اللون ونفس الحجم ونفس المواصفات ... كما كانت تحمل نفس « بادج » الشركة الذي يُحَلِّي حقيقته هو أيضاً !

حمد نبيل سالم لأبي سليم هذا حقاً ، لكن ذهنه أبداً لم يتطرق - ولم يكن ليتطرق - إلى أن الرجل كان قد بدأ تدريبه منذ ذلك اليوم ... فمما لا شك فيه أن تلك الحقيقة الأخرى التي كانت تنتظر نبيل على الرف الذي يعلو المقعد رقم ١٢ في الأوتوبيس ، لم تكن تحوي مخدرات ولا يحزنون ، بل كانت تحوي

بعض أوراق صحف ومجلات ، مما يعطيها نفس وزن الحقيقة لو أنها كانت محملة بالمخدرات فعلاً ... وإن أبا سليم عندما اختار هذا الوقت الضيق كي يلقي إليه بتعليماته ، إنما كان يدرجه على سرعة الاستيعاب دون مراجعة ، ولو أن نبيل أخطأ في استيعابه لتعليمات أبي سليم ، لما حدث ضرر محقق ، ولكن ... كان الأمر سوف يصبح ، بالنسبة إليه ، ذا وجه آخر بكل تأكيد !

وللحقيقة ، ورغم اضطراب نبيل الداخلي ، فإن الأمر بدأ له ، في مراحلهِ المختلفة ، أسهل وأبسط بكثير مما كان يتصور ... فهو ، ما أن لمح تلك الحقيقة ، حتى توجه إلى مقعده بجوار السائق ، وفتح حقيبة أوراقه ، وأخرج منها ما يحتاج إليه من أوراق ، ثم أغلقها وعاد بها إلى حيث كانت الحقيقة الأخرى ، فوضع هذه إلى جوار تلك ، ثم عاد إلى مكانه ، وكان الأمر يبدو طبيعياً للغاية !

قبل أن ينطلق الأوتوبيس ، كانت شيرلي هايمان هناك ، على الرصيف ، تنظر إليه متبعة خطاه ، متطلعة مشرّبة العنق تبدو وكأن السعادة تملؤها ... حتى إذا تحرك الأوتوبيس وأمسك نبيل بالميكروفون ، وألقى بتحية الصباح على السائحين ، رفعت له يدها ملوحة ثم أرسلت له قبلة في الهواء ، علناً وأمام الجميع ، وكأنها تعلن للعالم كله موقفها بوضوح !

... ..  
... ..

ولقد كانت رحلته الأولى ممتازة بكل المعاني ، كان مُوفّقاً في شرح معالم المدينة التي قضى ليالي وليالي في استذكارها ومعرفة تواريخها ... كان يتحدث إلى الفوج بالعربية أولاً ، ثم يعيد الشرح بالإنجليزية في سرعة ولباقة وخفة ظل جعلت الركاب ينجذبون إليه ويمطرونه بالأسئلة والطلبات فقضى معهم يوماً مشهوداً ... حتى إذا ما انتهت الجولة ، وعاد الأوتوبيس إلى مقر الشركة قبل الغروب بقليل ، وراح هو يودع الركاب ويداعبهم أحسن نبيل برضا عن نفسه جعله يمتلئ بالغبطة ... ومع مغادرة آخر الركاب ، جمع أوراقه ، واتجه نحو الرف كي يأخذ الحقيقة ... لم يجد هناك سوى الحقيقة الأخرى ،

أما حقيقته هو ، فكانت قد اختفت !!

أحس وهو يحمل تلك الحقيقة التي كان المفروض أنها محملة بالمخدرات ، أنها في ثقل جبل ... غادر الأوتوبيس فتنجم السائحون من حوله وراحوا يمشطونه بالشكر على اليوم الذي قضاه معهم ، لمح - بجانب عينه - مدير الشركة واقفاً خلف زجاج نافذة مكتبه يرقب ما يجري ، وكانت شيرلي هناك تنظر إليه باسمة ... تبادل معها نظرة سريعة وأسرع إلى حيث كان مكتبه ... أودع الأوراق أحد الأدراج وحمل الحقيقة وهم بمغادرة المكتب عندما اقتحمت عليه شيرلي الغرفة !

« إلى أين أنت ذاهب ؟ ! » .

« موعد سابق مع صديق قديم ! » .

كانت بعينها نظرة عتاب فأوضح :

« أنا لم أنس أنني مدعو الليلة على العشاء ! » .

« ولماذا أنت عصبي ؟ ! » .

أرتج نبيل ، فلم يكن قد انتبه إلى عصبيته ، ولم يكن في انتظار مثل هذا السؤال ، هتف :

« هل أنا عصبي حقاً ؟ ! » .

تجاهلت سؤاله مراوغة :

« موعدنا في الساعة فلا تتأخر ! » .

جاءته لهجتها حاسمة باترة وكأن سلطانها عليه لا شك فيه ... جمد لثوانٍ وراح يتأملها بنظرة إعجاب ، وما لبث أن مال عليها وطبع قبلة فوق وجنتها فتضرج وجهها بلون الدماء ... تبعثرت أنفاسه فخفض بصره متمماً بكلمات اعتذار فهو لم يكن يقصد إلى ما فعل ... فرغم الأسابيع التي قضاه معها ، فقد تجاوز معها إلى ... إلى حد القبلات ... هروا مغادراً الغرفة لا يلوي على شيء ، كان سابحاً فوق السحاب لا يدري أن كل ما مر به لم يكن سوى امتحان

بعد امتحان ... وأن شيرلي هايمان ، بعد ذلك بدقائق ، كانت تقدم تقريراً عما حدث بينهما ، وعن رأيها فيما حدث ، وأنها ختمت تقريرها بالحديث عن تلك القبلة التي طبعها فوق وجنتها قائلة :

« أعتقد إنه انتهى تماماً !! » .

\* \* \*

نَفَذَ نبيل الأوامر التي صدرت إليه تنفيذاً دقيقاً !

وضع الحقيقة في الخزانة التي استأجرها في محطة السكة الحديد !

استقل أحد الأوتوبيسات إلى مكتبة « فانداد » ... دخل المكتبة بحثاً عن قسم الأدب الألماني ... وقف أمام الركن الذي ذكره له أبو سليم ، كانت هناك مجموعة من كتاب « فاوست » للشاعر الألماني « جوته » ، مد يده إلى الكتاب الأول في المجموعة وتذكر قول أبو سليم :

« ..... تحط المفتاح في الكتاب وتمشي من غير ما تبصر وراك ! » .

كان المفتاح الصغير في يده فتلفت حوله وكان يقف في ممر طويل بين أرفف مكدسة بالكتب ... وضع المفتاح بين صفحتي ٨٠ و ٨١ ثم أعاد لكتاب إلى مكانه وغادر المكتبة على عجل !

\* \* \*

كان مواعده مع شيرلي هايمان في أحد المطاعم الصغيرة الذي ارتاحا إليه وتعودا التردد عليه ، استقبلته شيرلي بنظرة طويلة فاحصة ... كان نبيل سالم يبدو الآن وكأنه إنسان آخر ، شيء غريب كان قد تغير فيه ... حتى نبيل نفسه كان قد أدرك وهو يحمل الحقيقة المليئة بالمخدرات إنه أصبح إنساناً آخر ... كان هو نفس الشاب الوسيم المرح المتدفق بالحسوية ... لكن شيئاً ما ، شيئاً غريباً ربما في أعماقه ، أو في روحه ... شيئاً كان قد تغير فغيره !!

فبينما كان يتحدث ويحكي ويقصص ما حدث له في يومه الأول في سعادة ... ورغم أنه كان يتحدث بالألمانية ، فإن حديثه كان متدفقاً ، وذهنه

صاحباً ، وتوتره يتصاعد لحظة بعد لحظة ... حتى إذا ما انتبه إلى أنها تحمّل فيهِ توقف متسائلاً :

« شيرلي ... لمَ تحمّلين فيّ هكذا ؟ » .

مالَت نحوه واضعة عينيها في عينيه :

« لقد كنت مع صديق قديم ... أليس كذلك ؟ » .

اضطرب هاتفاً :

« نعم !! » .

« إذن فأين حقيقتك أيها العزيز ؟ » .

« إنتبه نبيل في لحظة خاطفة إلى أن ثمة شيئاً ما قد غاب عن ذهنه ، فعندما طلب منه أبو سليم أن يضع الحقيبة في خزانة محطة السكة الحديد ، وأن يدس المفتاح في نسخة من نسخ قصة « فاوست » لجوته ... لم يسأله كيف سيذهب إلى عمله في اليوم التالي بلا حقيبة ، وكيف سيسترد حقيته التي أخذت من فوق المقعد رقم ١٢ ... ولقد أصابه إحساسه بالغفلة بإحباط بدا على ملامحه واضحاً ، مما دفع شيرلي هايمان إلى أن تسأله :

« ماذا أصابك يا نبيل ؟ » .

راوغها هارباً مما كان يعتل في نفسه :

« لعلك تشكين في إخلاصي يا شيرلي ؟ » .

« كنت أسألك عن الحقيبة ؟ » .

« هل تغارين ؟ » .

ضحكت - ربما رغماً عنها - ضحكة فيها من السخريّة ما لم يخف عليه ، فزاد هذا من إحساسه بالإحباط ... وما لبثت شيرلي أن قالت :

« نبيل ، لعلك لم تفهم سؤالي ؟ » .

قال :

« فهمته ... ولقد مررت على الفندق قبل أن آتي إلى هنا ، وتركت الحقيبة هناك ! » .

ولقد اكتفت شيرلي بجوابه هذا فمدت يدها وربت على يده في حنان أذابه :

« عليك أن تنتهي من عشائك أيها العزيز ... ولا بد أن اليوم كان مرهقاً بالنسبة إليك ! » .

همُّ بالاحتجاج فأردفت :

« ولا تنس أن لديك موعداً في الصباح الباكر مع فوج آخر ! » .

وهكذا انقضت ليلة عرسه الأول في وجوم ، فلقد راح ذهنه يلوك مشكلة الحقيبة فيزداد قلقه لحظة بعد أخرى ... أخذ يتساءل كيف فات الأمر عليه وكيف سيذهب إلى عمله في الصباح دون حقيبة وكيف غفل أبو سليم عن مثل هذا « المطلب » وهو الذي لا يفوته شيء ... تناول عشاءه فغادرته الفتاة ومضى إلى فندقه غارقاً في حيرة بلا حدود ... لكن حيرته تبددت تماماً عندما فتح باب غرفته ، وأضاء النور كي يجد أبا سليم قد سبقه إليها !

\* \* \*

كانت نظرة سريعة كافية لأن يكتشف أن حقيقته موضوعة إلى جوار أبي سليم !

« كنت فين ؟ » .

في جفاء جاء رده :

« كنت باتعشى ! » .

« لوحذك ؟ » .

« لا ... شيرلي هايمان كانت معايا ! » .

« هادي البنت الأمريكية اللي بتشتغل معاك في الشركة ؟ » .

« أيوه هي ! » .

« ما قتلش يعني أنكوا بقيتوا أصحاب ؟! »  
« وهو أنا لازم أقول لك على كل حاجة ؟! »  
« كل حاجة كبيرة أو صغيرة ، وكل إنسان تشوفه أو تصاحبه أو تصادفه أو تقابله ! »  
« معقول ده يا أبو سليم ؟! »  
« اللي أوله شرط آخره نور ! »  
« دي كانت عازماني على العشا بمناسبة خروجي مع أول فوج لي ! »  
« اتكلمتوا في إيه ؟! »  
« في حاجات كثير ! »  
« سألتك على حاجة ؟! »  
« سألتني واحنا في الشركة رايح فين قلت لها عندي ميعاد مع واحد صاحبي ! »  
« ما سألتكش على حاجة ثانية ؟! »  
« لما رجعت لها سألتني عن الشنطة ! »  
« قلت لها إيه ؟! »  
« قلت لها إني وديتها اللوكانده ! »  
« وديت البضاعة في الخزنة ؟! »  
« وخطيت المفتاح في الكتاب ! »  
« وشنطتك فين ؟! »  
« تدمر نبيل قافراً من مكانه :  
« ما هو ده اللي قلب كياني ! »  
« وكان لازم تأخذ بالك وتسأل ! »  
« مكانش ممكن ! »  
« إحنا ما يلزمناش ناس نايمة ! »  
« لاحظ إنك فاجتني ! »  
« أي تعليمات بالنسبة لأي عملية حاتبقى مفاجأة !! »

« كان لازم أعرف من الأول ! »  
« يعني إنت عرفت دلوقت ؟! »  
« أكيد ! »  
« أشار أبو سليم إلى الحقيبة الموضوعة إلى جواره :  
« الشنطة آهيه ! »  
« شفتها ! »  
« كتبت لسامية ؟! »  
« لسه ! »  
« لازم نكتب لها ! »  
« ليه لازم يعني ؟! »  
« أطلقت عينا أبي سليم تلك النظرة النارية فتراجع نبيل مغمغماً :  
« خلاص ... حاكتب لها ! »  
« مد الرجل يده في جيبه وأخرج رزمة صغيرة من الماركات الألمانية ألقى بها فوق المائدة الصغيرة التي كانت تتوسطهما :  
« ده حسابك في عملية النهار ده ! »  
« نظر نبيل إلى النقود غير مصدق ، قدر عددها وكانت تصل إلى بضع مئات من الماركات اضطرب قليلاً لكنه تماسك ولم يمد يده إليها ... تحرك أبو سليم في مكانه كمن يهيم بالإنصراف ، فهتف نبيل :  
« مش حانتفق ؟! »  
« على إيه ؟! »  
« شنطة الشغل حاتبقى أخذها إزاي بعد ما أوصل البضاعة ! »  
« ابتسم أبو سليم :  
« بدأت تتعلم ! »  
« تلميذك يا أبو سليم ! »

كان الحوار بينهما هذه المرة جافاً . . . لم يكن أبو سليم الذي يجلس أمامه الآن هو أبا سليم الذي تعرف عليه وأحبه وصادقه واستسلم له . . . تركه الرجل ومضى فتناول هذا رزمة الأوراق المالية وكان المبلغ مجزياً بحق . . . أحس نبيل سالم في تلك الليلة فقط أنه من الممكن أن يصنع شيئاً وأن يكون شخصاً له اعتباره . . . تشتت فكره عندما ألحت عليه شيرلي هايمان . . . فكر في الاتصال بها لكنه اكتشف أنه لا يعرف لها عنواناً أو رقم تليفون . . . مثلها مثل أبي سليم الذي طلب منه ذات يوم رقم تليفونه فسأله هذا في جفاء :

«ليه ؟!»

«مش يمكن أحتاج لك ؟!»

«لما تحتاجني حاتلقاني جنبك يا نبيل !!»

قضى تلك الليلة تمزقه أحاسيس متناقضة . . . كان سعيداً بنجاحه في الشركة كما كان سعيداً لحصوله على هذا القدر من المال ، لكنه كان يشعر وكأنه معلق في فضاء لا أرض له . . . كان كل شيء يبدو رائعاً لكنها روعة ناقصة ، معلقة على كف عفريت . . . غامضة غموضاً جعل من نومه رحلة للعذاب !!

غير أن مرور الأيام كان كفيلاً بأن يجعل كل شيء يبدو طبيعياً للغاية . . . وأن يضيء على المسألة كلها طابع الأمان . . . فلقد تعود نبيل سالم أن تأتيه الأوامر من أبي سليم في أية لحظة وبأية وسيلة . . . لم يكن الأمر يحتاج إلا إلى كلمة أو كلمتين كي يجد الحقيقة فوق رف يعلو مقعداً كان رقمه يتغير في كل مرة . . . كما كانت الخزينة هي الأخرى تتغير كل بضعة أسابيع . . . وإذا ما قام بما عليه وجد المال بين يديه سهلاً ميسوراً . . . وإذا كان نبيل قد استغرق في علاقته بشيرلي هايمان استغراقاً جعل الفكاك منها أمراً شديداً الصعوبة . . . فلقد كان مواظباً على الكتابة لسامية فهمي ، وكانت خطاباته في تلك الفترة تبدو لها مشرقة كل الإشراق . . . لم يكن يحدثها بطبيعة الحال عن الحب ، لكنه كان يحدثها عن النجاح الذي أصبح يسير في ركابه . . . وتجمع لديه بضعة ألوف من الماركات دفعته ذات يوم إلى أن يشتري بذلة غالية طالما رآها معروضة في النافذة الزجاجية لأحد المحلات الكبرى والشهيرة . . . لكنه في اليوم الذي

ارتداها فيه لاقى ما لم يتوقعه أو يتخيله . . . كان على موعد مع شيرلي للعشاء في أحد المحلات الراقية . . . دهشت وهي تسأله من أين جاء بالمال كي يدعوها إلى محل مثل هذا . . . لكنه راوغ قائلاً إنه كان يقتصد ويقتر حتى يستطيع دعوتها إلى ذلك المحل . . . في تلك الليلة ارتدى البذلة الجديدة ووقف أمام المرأة يتأمل نفسه في إعجاب عندما دق جرس التليفون وكان أبو سليم هو المتحدث وكان يريد لقاءه في إحدى الحدائق بعيداً عن الأنظار . . . وفوراً !

أسقط في يد نبيل فلقد كان مواعده مع شيرلي اقترب ولم تكن هناك وسيلة للإعتذار فهو لا يعرف كيف يتصل بها ولا أين . . . لكته لم يكن يستطيع أن يناقش أو يجادل أو يعتذر ، لم يكن يستطيع إلا أن يلبي فلبس . . . ما أن رآه أبو سليم حتى بدا الغضب عليه واضحاً :

«إيه ما لك يا أبو سليم ؟!»

«إيه اللي انت لا بسه ده ؟!»

«دي بذلة جديدة اشتريتها من يومين ؟!»

«بكلام ؟!»

ما أن سأله أبو سليم هذا السؤال حتى انتبه إلى ما وقع فيه من خطأ فارتبك وتلجلج وراح يغمغم بكلمات لا معنى لها وإذا بأبي سليم يستطرد محتدماً :

«تفتكر موظف زيك في شركة سياحة ، ممكن يشتري بذلة زي دي ؟!»

ازداد ارتباكاً فتساءل :

«قصداً إيه ؟!»

«قصدي واضح يا نبيل ؟!»

صمت نبيل وقد نبتت قطرات عرق فوق جبهته وإذا الرجل يزمجر :

«مارديتش على سؤالي»

«لا طبعاً . . . مش ممكن !»



« طب حاتقول إيه لشيرلي هايمان لما تسألك جبت فلوس البدلة منين ؟! » .

خفق قلبه فلقد تذكر سؤال شيرلي ، وعاد أبو سليم مردفاً :

« بلاش شيرلي هايمان ... أي حد يشوفك لا بس البدلة دي حاتقول إيه ؟! » .

« وإيه المطلوب مني دلوقت ؟! » .

« زعلت ؟! » .

جاءه السؤال مباغتاً فاختنق .

« أنا خايف عليك يا نبيل !! » .

شحب وجه نبيل شحوباً عظيماً وقد مزقته كلمات الرجل وأسلوبه الذي كان يتراوح ما بين قسوة رهيبة وحنان دافيء .

« تفنكر اللي زينا بيقعوا في إيدين البوليس ليه ؟! » .

نظر إليه نبيل مستفسراً فاستطرد هذا :

« لأنهم ما بياخدوش بالهم من حاجات كثير ... تلاقى واحد خالي شغل ولا بس بدلة ثمنها الشيء الفلاني وبيصرف الفلوس زي التراب ... على طول الناس حاتسأل جاب الفلوس منين ، ويبدأ البوليس يشك ، ويبدأ في مراقبته ! » .

كان حديث الرجل منطقياً ، كما كان مقنعاً !

« وفي حالتك أنت ، الناس مش حاتشك في أنا !! » .

حاول نبيل المقاومة :

« اشمعنى فريدريك بيلبس ويصرف وساكن في شقة محترمة ؟! » .

« ماحنا قلنا من الأول ... فريدريك ألماني ، وممكن تكون له ألف شغلانة وشغلانة ... لكن إحنا أعراب ، وكل شغلانة بنشتغلها لازم إدارة

الهجرة تأخذ خبر بيها ! » .

في استسلام قال نبيل :

« معاك حق يا أبو سليم ! » .

« هتف أبو سليم ضاحكاً وهو يغمز بعينه :

« وعلى كل ... أنا عارف إنك عاوز تسيب اللوكاندة وتسكن في شقة ! » .

« قصدك إيه ؟! » .

« مش المهم قصدي ... المهم إنك عاوز تنتقل فعلاً !! » .

وبالرغم من أن نبيل لم يكن - حتى تلك اللحظة - قد فكر في الأمر، فإن الرجل كان يدفعه بأسلوبه ونبرته الموحية إلى الإستجابة ولقد صاح نبيل مكابراً :

« حقي يا أبو سليم ، حقي ... إنت ماتعرفش أنا تعبت قد إيه في السنين اللي فاتوا ! » .

« طب ما تنقل لشقة كويسة يا أخي ! » .

« إنتقل إزاي وانت واقف لي على الواحدة ؟! » .

« بالعكس ... لو كانت الشقة معقولة مش حاتلفت الأنظار ... وحايقي

أمر طبعي إنك تسكن فيها بعد ما لقيت وظيفة خالية ! » .

« يعني أرمي البدلة دي ؟! » .

« وترميها ليه ... كلها شهرين ثلاثة وتأخذ علاوة وتلبس زي ما انت عاور ! » .

وابتسم نبيل !

ابتسم وقد عاوده الأمل من جديد ... كان قد تعود أن تتحقق كل نبوءات

أبي سليم ... كان عليه في تلك الليلة أن يبدل ملابسه قبل الذهاب إلى شيرلي

حيث كانت في انتظاره متظاهرة بالغضب فصالحها ... أصبح كل همه منذ

اليوم التالي هو البحث عن شقة مناسبة ولم تمض أيام حتى وجدها بمساعدة

شيرلي هايمان . . . كانت شقة صغيرة مؤثثة بأثاث بسيط لكنه أنيق ، وكان فيها كل ما يحتاج إليه وكل ما حلم به . . . أكثر ما أسعده في هذه الشقة . . . أن شيرلي - أحياناً - كانت تقضي الليل فيها معه !!!

لكن نبيل ، لم يكن يدري إنه وهو سابح فوق سحابات سعادته المزيفة تلك . . . كان مسوقاً إلى الخطوة التالية ، كان مسوقاً إلى قدره الذي ارتضاه ، بل وسعى إليه !!

\* \* \*

## الفصل الحادي عشر

### الضربة القاضية !

عندما غادرت سامية فهمي مبنى المخابرات العامة المصرية في ذلك اليوم الثالث الذي التقت فيه بعادل مكّي ، كان الوقت لا يزال مبكراً . . . أوصلها الحارس حتى البوابة الرئيسية فخرجت إلى الطريق لا تعرف إلى أين تذهب . . . قطعت المسافة فيما بين المبنى وميدان القبة في دقائق لا تعرف إن كانت قد طالت أم قصرت ، زحفت في سيرها عابرة مزلقان السكة الحديدية منحدره إلى الطريق الرئيسي الذي يصل العباسية بمصر الجديدة . . . كان الجو حاراً وعدد السيارات قليل والطريق شبه خال والحزن يخيم على المدينة كما كان يخيم على حياتها . . . لا تدري سامية فيم كانت تفكر في ذلك الوقت ولا كيف كانت تفكر . . . ازدحمت الأفكار في رأسها وتلاطمت كموج عاصف في بحر لا يستقر ، أخذت تستعيد ما حدث معها في إيطاليا فتقلصت معدتها وشعرت برغبة شديدة في القيء ، حاولت تفسير ذلك الغموض الذي اكتنف تصرفات نبيل فقادها تفسيرها إلى ما لا تحب ، حاولت أن تجد ، وسط عواصف الأفكار ، مخرجاً دون جدوى ، أدركت في لحظة مخيفة أنها لا تزال تهرب من الواقع فهتفت بصوت مرتفع :

« هو أنا بادافع عنه ليه ؟! . . . إذا كان مذنب يبقى مذنب ولازم ياخذ جزاؤه !! » .  
« أفندم ؟! » .

جاءها التساؤل بغتة من خارجها فالتفتت في ذعر . . . كان ثمة شاب متوسط الطول أسود الشعر واسع العينين راح يحملق فيها ، ارتبكت متسائلة :

« فيه حاجة يا أستاذ ؟! » .

« أبداً .. بس أنا اتهايلي إن سيادتك ناديتي عليّ ؟! » .

أدركت أنها حدثت نفسها بصوت مرتفع فاضطربت :

« لا أبداً ... أنا ... أنا متأسفة ؟؟ » .

همت بالسير وإذا الشاب يرفع يده كمن يحاول أن يمنع شيئاً من السقوط !

« سيادتك مش عاوزة حاجة ؟! » .

« حاجة زي إيه ؟! » .

« أنادي لك تاكسي ؟! » .

أحست بدوار وزحفت الغيبوبة إلى وعيها فخطت نحو شجرة استندت إليها

متمتمة :

« مش عارفة ... مش عارفة ؟ » .

فيما بين اليقظة والغيبوبة جاءها صوته منادياً :

« تاكسي .. تاكسي ؟ » .

توقفت السيارة إلى جوارها واقترب منها الشاب :

« حضرتك رايحه فين ؟! » .

« مجلة الفجر ؟ » .

« تحبي أوصلك ؟! » .

« لا ... شكراً ؟؟ » .

خطت نحو السيارة فأسرع الشاب يفتح لها الباب ، ألقت بنفسها فوق المقعد الخلفي فأغلق الباب ودلف إلى المقعد المجاور للسائق :

« مجلة الفجر يا أسطى ! » .

مالبت إلى الامام مُستَفْزة وهي تسأله :

« حضرتك رايح فين ؟! » .

« نفس الشارع ، إذا ماكانش عندك مانع ! » .

« ارتد إليها وعيها في صدمة أيقظتها تماماً مما كانت فيه ... اعتدلت في جلستها وقد استبد بها الرعب فلقد كانت السيارة قد تحركت فعلاً ... زحفت السيارة عابرة نفق العباسية منحرفة إلى اليمين فقطع الشاب الصمت متسائلاً :

« سيادتك بتشتغلي في مجلة الفجر ؟! » .

« أيوه !! » .

« ممكن أطلب منك طلب ؟! » .

تساءلت في جفاء وهي تتحفز استعداداً لما لا تدري :

« طلب زي إيه ؟! » .

« تعرفي الأنسة سامية فهمي ؟! » .

« هه ؟! » .

« إنتوا مش معاكم محررة اسمها سامية فهمي ؟! » .

« أصبحت في ذروة وعيها ويقتظها وتوترها معاً ... انتبهت كل حواسها وهي تسأله :

« سامية زميلتي . سيادتك تعرفها ؟! » .

« لا ... أنا من قرائها ! » .

« أهلاً وسهلاً ! » .

« ممكن تبلغني إعجابي الشديد بالتحقيقات اللي بتعملها ؟! » .

« كمن يغتسل بعد طول عناء قالت سامية :

« أقول لها مين ؟! » .

« حسنين عبد ربه مهندس زراعي من البحيرة ! » .

« هتفت سامية دون وعي :

« انت اللي اتخانقت مع المحافظ ؟! » .

« بدت الدهشة على وجهه فاستدار نحوها بكلية :

« بصراحة لولا شجاعة الأنسة سامية مكانش ممكن ارجع لمركزي ثاني ! » .

وتذكرت سامية ما حدث منذ شهور قليلة قبل سفرها المشؤوم إلى إيطاليا .

في لحظة أشرقت فيها الحياة في صدرها من جديد تذكرت !

قالت للشاب إنها قرأت خطابه الذي نشرته سامية ، قالت إن الناس يجب أن يواجهوا الخطأ وأن يحاربوه ويعترضوا طريقه مهما كان المخطئ . . . راحت تثرثر معه وقد اجتذبتها حديثه كما اجتذب السائق الذي شارك في الحوار . . . فمنذ شهور جاءها خطاب من مهندس زراعي اختلف مع المحافظ فنقله هذا إلى مكانٍ ناءٍ . . . فما كان منها إلا أن نشرت الخطاب مشفوعاً بتعليق يُذكر المحافظ بأن مصر لم تعد عزبة . . . قبل مضي أسبوع عاد الموظف إلى وظيفته الأولى . . . وها هو ذلك المهندس أمامها بلحمه ودمه وكان سعيداً بما حدث وكانت سعيدة بالحوار فأحست بأن روحها تُردُّ إليها بعد طول غياب ، شعرت أنها تصعد إلى سطح الحياة بعد أن دفعها القدر إلى قاع يأس مدمر . . . توقفت السيارة أمام المجلة فغادرتها وغادرها المهندس الزراعي حسنين عبد ربه ، حاولت أن تدفع أجر التاكسي لكن الشاب أصر على الدفع ضاحكاً :

« أصلنا لا مؤاخذه فلاحين ، وتبقى عيه كبيرة في حقي لو خيلتك تدفمي حاجة ! » .

« ابتسمت شاكرة ومضى التاكسي . . . سألها الشاب فجأة وكأنه يعود بالحديث إلى مساره الأصلي .

« إنتي كويسه دلوقت ؟ » .

نظرت إليه ساهمة فابتسم معتزلاً :

« يظهر إنك كتي تعبانة شويه ! » .

« مش شويه يا باشمهندس ، أنا كنت تعبانة قوي ! » .

« ودلوقت ؟ » .

مدت يديها مودعه :

« الحمد لله . . . أنا متشكرة قوي ! » .

تساءل في خجل :

« طيب . . . مش أشرف بالاسم ؟ ! » .

« قالت في اضطراب :

« سامية فهمي !! » .

ثم استدارت مهرولة صاعدةً درج المبنى .

\* \* \*

« تصوري يا سامية . . . أنا ومراتي كنا في سيرتك النهار ده الصبح ! » .

هكذا هتف أحمد مختار رئيس التحرير عندما دخلت مكتبه .

« خير يا أستاذ أحمد ! » .

« أبدأ . . . كنت باكتب الافتتاحية لما افكرت يوم ٩ يونيو ! » .

وكان الأمر مؤامرة هدفها إعادة التوازن إلى نفسها ، تساءلت وهي تتذكر تلك الليلة العصيبة وما فعلته وما فعله الآخرون وكان الأمر لم يضر عليه عام . . . تجمعوا أمام التلفزيون في قاعة المجلة الكبيرة انتظاراً لخطاب الرئيس جمال عبد الناصر . . . ألقى الرجل خطابه متجنباً عن كل ما يشغله من مناصب . . . هاجت الدنيا وكان الهواء اشتعل بنار غامضة ، تحدث الكل إلى الكل وكانت هي تصرخ : « لا . . . لا . . . لا . . . لا . . . ! » ، اندفعت تشق طريقها وسط المحررين والعمال الذين أوقفوا المطبعة وصعدوا إلى المكاتب هاتفين مطالبين الرجل بالبقاء . . . وصلت إلى باب مكتب أحمد مختار فافتحتمه . . . ما إن خطت إلى الداخل حتى تسمرت في مكانها ذاهلة !!

كان أحمد مختار يجلس على مقعده ملقياً برأسه إلى الخلف ، بجواره كان الراديو لازال مفتوحاً وهو يرسل موسيقى عسكرية . . . على وجنتيه كان الدمع يتحدر في سرعة وغزارة أذهلت سامية لثوانٍ لكنها سرعان ما تساءلت في غضب هائل :

« إيه اللي انت بتبهييه ده يا أستاذ أحمد ؟! » .

التفت مختار نحوها فبدا وكأنه شاخ فجأة ... كأن عشرات السنين قد أضيفت إلى عمره فبدت عيناه غائرتين ... لم يرد عليها فعدت إلى الصراخ :

« إنت بتبكي ؟! » .

جذب صراخها عدداً من المحررين فتجمعوا أمام الباب .

« بدل ما تبكي إنزل الشارع وقول رأيك ! » .

ظل مختار جامداً في مكانه وكأنه تلقى صفعه أدارت رأسه ... اندفعت مغادرة المكتب تشق طريقها وسط الزحام فاصطدمت في اندفاعها بفريد الشاعر :

« على فين يا سامية ؟! » .

التفتت نحوه وكان الجميع يحملقون فيها ، أدارت بصرها فيمن حولها فإذا هناك عيون عيون عيون ... قالت بصوت ثابت وإن اختنق بعبرات صادرتها إرادة بدت للجميع حديدية :

« إذا كان الرئيس عاوز يتنحى هو حر ... بس مش دلوقت . مش دلوقت ! » .

همت بالحركة فصاح فريد :

« رايحة فين ؟! » .

« للناس !!! » .

اتجهت إلى السلم دون انتظار للمصعد ، راحت تهبط مهرولة وكان الجميع يهرولون خلفها هابطين ، هاتفين ، صارخين ... عند باب الدار كان الطريق قد امتلأ بالناس ... دفعها الذين تبعوها فهبطت إلى الشارع وذاب الكل في الكل ... مئات ، ألوف ، مئات الألوف كانوا يزحفون وسط الظلام المفروض على المدينة الحزينة ... لا أحد كان يعرف إلى أين ينتهي الزحف ، فقط ، أكانوا يهتفون ويطلقون الحناجر بالأغنيات الوطنية ... لا أحد يعرف أحداً ، لا

شيء سوى بحر من البشر منبعه في الشوارع والحواري والبيوت ... وصلت إلى ميدان التحرير وكان يفيض بمن فيه ... تعالى صوت أزيز الطائرات الإسرائيلية في سماء القاهرة فازداد حماس الناس وازداد اندفاعهم ... انفجرت لمي السماء بضعة قتابل تطارد الطائرات فلم يتوقف أحد ... ظلوا يزحفون مخترقين المدينة إلى شارع رمسيس ... كان الليل قد أوغل والناس كتلة مترصة تهتف حناجرها مطالبة عبد الناصر بالبقاء ... كانوا الآن قد عبروا نفق العباسية زاحفين نحو منشية البكري حيث يعيش الرجل ، عندما التفتت سامية ذات لحظة ، كي ترى أحمد مختار وسط الناس يهتف وينشد لمصر ... تلاقت العيون في لحظة ، ثم امتدت الأيدي كي تتشابك ، فتشابكت ، على الفور أيدي الجميع .

« كانت ليلة ! » .

هكذا قالت وكان أحمد مختار قابلاً خلف مكتبه يمعن النظر إليها .

« ما لك يا سامية ! » .

كان سؤاله طبيعياً ، وإن كانت قد أحست بضرورته .

« تعبانة قوي يا أستاذ أحمد ! » .

« ما تروحي إسكندرية كام يوم ! » .

« مش عاوزة ! » .

« مش مهم إنتي عاوزة إيه ، المهم إنتي محتاجة لإيه ؟! »

نهضت وهي تشد قامتها وتتنفس ملء صدرها .

« أنا محتاجة إن سامية بتاعة ٩ يونيو ترجع ثاني ! » .

أشرق وجه مختار بابتسامة رأت فيها السعادة مزغردة !

« إنت كنت قلقان علي يا أستاذ أحمد ؟! » .

« لا !! » .

قالها في حسم واضح ... ابتسمت فأردف :



« اللي زيك ما يتخافش عليه يا سامية ! » .

خنقتها العبرات فاستدارت نحو الباب :

« عن إذنك !! » .

.....  
.....

ما كادت تغادر مكتب مختار حتى وجدت فريد الشاعر أمامها ، هتف :

« سامية ! » .

ابتسمت وقد تحجر الدمع في عينيها !

« إنتي فين ؟ ! » .

جاءها سؤاله مغموساً في حب صارخ ، سأله :

« قلقان علي ؟ ! » .

« قوي !! » .

« وإذا قلت لك ما تقلقش ؟ ! » .

« حافلق أكثر ! » .

أدركت سامية فهمي ، الآن ، وهي تقف في أحد ممرات مجلة الفجر ، أنها هُزمت أمام الجميع ، وأن نبيل سالم الذي أعطته ما لم تعطه لأمها ، خذل سنوات حبها بأبشع وسيلة ... راحت تهبط الدرج وفي قلبها حسرة وحزن ... لكنها كانت قد اتخذت قرارها !

• • •

« عادل بيه ؟ ! » .

« أهلاً سامية ! » .

« أنا ممكن أشوف سيادتك إمتى ؟ ! » .

« لما تبقي عاوزه ! » .

« أنا عاوزه دلوقت ! » .

ساد الصمت على الطرف الآخر لثوانٍ ، كانت قد غادرت عادل مكّي منذ أقل من ساعتين جاءها صوته عبر الأسلاك :

« ما ينفعش أشوفك بعد بكرة ؟ ! » .

« ينفع وقت ما تحب ! » .

« استيينا ... بعد بكرة في نفس الميعاد ! » .

أعادت سماعة التليفون إلى مكانها وتنفس الصعداء ... كانت الآن في البيت وحدها ... ملأت صدرها بشهيق عميق ، ثم هتفت بصوت مرتفع :

« دلوقت أقدر أتكلم مع نفسي من غير ما حد يسمعنا ! » .

راقت لها الدعابة فابتسمت وهي تجلس على أقرب مقعد ، عادت إلى الحديث :

« أنا خايفة إلا نبيل يطلع خاين ... مش كده ؟ ! » .

من داخلها اندفع صراخ محموم :

« ما هو خاين يا سامية ! » .

وانفجرت فجأة في بكاء أفرغت فيه كل آلامها !!

• • •

كان عادل مكّي ، عندما طلبته سامية بالتليفون ، غارقاً في تحليل خطابات نبيل إليها ... كانت الأمور تتضح أمامه ودائرة الغموض تتبدد ... أرسل الخطابات الأصلية إلى المعامل المختصة واحتفظ لنفسه بصورة منها فراح يقرأ في ثانٍ !

كان من الواضح له تماماً ، أن الإسرائيليين عرفوا قدرات نبيل سالم منذ البداية ، فراحوا يجهزون له الدور الذي اختاروه له ... سيطرت عليه لوييز جولدمان - أو شيرلي هايمان - سيطرة عاطفية كاملة ... وفي الحقيقة - لأن الحقيقة لا بد أن تذكر - فلقد أحب نبيل تلك الفتاة الإسرائيلية الماكرة حباً ملك عليه حواسه وعقله جميعاً ... كان فاقداً للثقة بنفسه فراح تدفعه إلى

استعادتها رابطة تلك الإستعادة بوجودها ذاته . . . ولقد قال لي عادل مكى شارحاً الأمر : إنه في تلك الفترة كان الإسرائيليون يختبرون قدراته . . . وهو لم يكن يصلح لتسقط الأخبار من مصر ، فهذا يحتاج إلى علاقات واسعة ومتشعبة ، كانت كفيلة بأن تثير الشبهات من حول الشاب الذي لم يكمل تعليمه . . . ولا بد أن علاقة نبيل بموظفي الشركة ، وتلك العلاقات الحميمة التي كان يقيمها مع السائحين حتى أن بعضهم كان يستعين به في قضاء أمور خاصة . . . لا بد أن هذا أوحى لرجال الموساد بقدرة نبيل الفذة على اجتذاب الآخرين . . . وكان هذا بالضبط ، هو ما استقر عليه رأيهم . . . أن يكون « صياداً » ، أو كما يطلقون عليه بالإنجليزية اسم « Spotter » . . . ولقد كان من الممكن أن يبقى نبيل في ألمانيا كي يمارس تلك اللعبة فيها . . . لكنهم ، وقد أعدوا له مخططاً جهنمياً ، فضلوا أن ينتقل بنشاطه إلى مكان آخر ، إلى دولة أخرى . . . وأن يكون أسلوب الانتقال هذا ، هو القيد الحديدي الذي يُقَيِّده إليهم ويربطه بهم ، ويكمل سيطرتهم عليه !!

... ..  
... ..

غير أنه كان لا بد للأمر من أسباب أخرى ، وليست لدينا أدلة قاطعة تثبت هذا الذي نظنه . . . غير أن التحليل والمنطق ، لا بد وأن يصلا بنا إلى نتيجة قريبة من الواقع !

فهل كان من الممكن - مثلاً - أن تظل علاقة نبيل سالم بلويز جولدمان ، التي عرفها تحت اسم شيرلي هايمان ، إلى الأبد ؟!

لم تكن شيرلي - بالنسبة للموساد - فتاة عادية من الممكن أن تؤدي دوراً واحداً ثم تمضي إلى حال سبيلها حتى يحتاجون إليها مرة أخرى ، كما كان الحال مع عشرات الفتيات الأوروبيات اللواتي استعملن - وهن لا يدرين - في تلك السنوات للإيقاع بالشباب العرب . . . لكنها كانت فتاة لها وزن خاص وخبرة ليس من السهل تعطيلها . . . وأغلب الظن أنهم اختاروها لخبرتها السابقة

تلك ، حتى تحكم السيطرة على نبيل إلى أن تحين اللحظة المناسبة . . . ثم إذا ما انفصلت عنه ، بدا انفصالها أمراً طبيعياً لا يثير في نفسه الشكوك !

كان نبيل الآن قد استقر في ذلك المسكن الجديد الذي تحول إلى عش غرام مارست فيه لويز جولدمان كل قدراتها كي يرتبط بها هذا الشاب التعس ارتباطاً لا فكاك منه . . . وكان عمله في الشركة يسير على ما يرام ، فحصل في الأسابيع الأخيرة على مكافأة أضافت إلى رصيده المزدود من الماركات الألمانية . . . أما علاقته مع أبي سليم ، فكانت قد وصلت إلى ذروة في الدقة . . . تعود نبيل أن يطيع أوامر أبو سليم دون مناقشة ، ثم . . . ورغم كل الضغوط التي مارسها شيرلي هايمان عليه ، إلا أنه - أبداً - لم يبح لها بسر حقيقة المخدرات تلك التي كان يلتقطها من الأوتوبيس في أعقاب رحلات معينة يقوم بها مع سائحين من كل أنحاء العالم ، لم يبح بالسر أبداً ، وكان بارعاً في التخلص من أسئلتها التي كانت تلاحقه . . . ولقد جعل هذا ثقة أبو سليم تتأكد فيه ، كما جعلته - من وجهة النظر الأخرى - جاهزاً للخطوة التالية !

غير أن الأمر بطبيعة الحال لم يكن ليقصر عند تهريب المخدرات ، فلقد كان هذا - بالتأكيد - أمراً مزيفاً . . . ولم يكن أبو سليم ليقامر بوضع مخدرات في تلك الحقيبة التي كان نبيل يستبدلها بحقيته في الأوتوبيس السياحي ، فذلك أمر غير وارد بالمرة . . . إنما كان المراد اقناع نبيل سالم بذلك حتى تتم السيطرة عليه - في الوقت المناسب - وبشكل مطلق !

وفي تلك الأثناء ، وقعت حرب الأيام الستة ، وجاءت نكسة يونيو ١٩٦٧ بالنسبة لنبيل وكأنها طوق الخلاص من بقايا ضمير كانت تحيا في وجدانه ، وراح أبو سليم يُعَذِّيه - كسوري وعربي - بكل ما كان عليه أن يردده وسط شباب العرب في هامبورج الذين كان نبيل يلتقي بهم بين الحين والحين ، مما دفع بعض المصريين إلى الاشتباك معه بالكلمات ، ثم بالأيدي !! . . . وعندما قص ما حدث - وكان لا بد وأن يفعل - على أبي سليم ، انهال عليه هذا باللوم والتقريع ، فصاح نبيل :

« إذا كان كل واحد فيهم له رأي . . . أنا رأيي كده ! » .

« احتفظ برأيتك لنفسك يا نبيل ! » .

« يعني أحاربيهم في الكلام الفارغ اللي بيقلوه ؟! » .

« لا تجاربيهم ولا تقف في وشهم ! » .

« يعني إيه ده بقى ؟! » .

« اسمع منهم ، وخليهم يقولوا أكثر ... ولما نتقابل ، تقول لي ! » .

وهكذا راح أبو سليم يعلمه الخطوات الأولى في ذلك العلم المعروف في عالم المخابرات ، وهو علم الإثارة ، الذي يدفع من أمامك إلى قول ما لا يريد أن يقوله أو يوح به إن كان لديه ما يخفيه أو يحرص على كتمانها ... وهكذا انضبطت الأمور تماماً ... وبدت الحياة لنبيل وكأنها تهبط على أرض استقرار دفعه لأن يطلب من شيرلي هايمان الزواج !!

ولست أعتقد أن الأمر كان مفاجأة لتلك الفتاة ، أو لرؤسائها ... وعلى كل ، فهي لم ترفض طلبه ، وإنما طلبت منه مهلة للتفكير !

ولقد مضت أيام بعد أيام وهو ينتظر منها رداً ، حتى إذا كان ذات مساء ، وكانا يجلسان في مسكنه أمام المدفأة بعد أن تناولا وجبة شهية أعدتها شيرلي بيديها ، سأله نبيل عن السر في ترددها ، فغمغمت في صوت متكسر :

« لأنني أخشى أن أفقدك ! » .

صاح نبيل مستكراً :

« تفقديني لأنني أريدك زوجة ؟! » .

« وماذا عن صديقتك المصرية ؟! » .

« قلت لك عشرات المرات إن سامية فهمي ليست سوى العوبة مسكينة ! » .

« ثم إنك مصري ! » .

« هم ، بالحديث فانتفضت وكان هناك ما يعذبها مردفة :

« ومسلم !! » .

« وماذا في ذلك بالله عليك ؟! » .

« فيه إني يهودية الديانة ! » .

مضت لحظة صمت اندفع بعدها نبيل كي يحتويها بذراعيه :

« وماذا في ذلك أيضاً ؟! » .

« إنكم تحاربون قومي في إسرائيل ! » .

« هم الذين يحاربون قومك ، لكنني لا ولن أحاربيهم ! » .

« هل تعد بذلك ؟! » .

« أعد بذلك وأقسم أيضاً أنني أبداً لن أحاربيهم ! » .

..... ولقد صحبتته شيرلي في تلك الليلة إلى جنة لم يحلم بمثلها أبداً ، لم تعلن موافقتها لكنها قادت السفينة إلى حيث تحب وتشتهي ... وفي الصباح التالي ذهبوا إلى الشركة معاً وكانهما يعلنان للناس علاقتهما ، كان نبيل مفعماً بسعادة فاضت بها كل ملامحه ... ولقد كان عدد السائحين في ذلك الوقت من السنة ، بالضرورة ، قليلاً ... كانوا مجموعة من مواطني دول اسكندنافيا جاءوا إلى ألمانيا كي يقضوا بها أياماً في الدفء !!! ... وكان نبيل الآن قد أتقن الألمانية كالإنجليزية وأصبح خروجه مع سائحين من جنسيات مختلفة أمراً وارداً ... انتهى اليوم وكانت هناك حقيقة محملة بالمخدرات استبدلها نبيل بحقيقة أوراقه ... أخذ ينهي إجراءات وصوله استعداداً للذهاب إلى خزانة محطة السكة الحديدية كي يودع الحقيقة بها ... اعترضت لويز طريقه وكان يوم عملها قد انتهى ، بدت له مشوبة العاطفة مقبلة عليه ... سأله إلى أين فحاول الاعتذار بموعد مع صديق لكنها - وقد تظاهرت باشتغال الغيرة في صدرها - أبت أن تتركه - وإذا كان الموعد مع صديق فعلاً فلم لا تذهب معه إلى هذا الموعد الذي يبدو لها شديد الانتظام ولا يأتي إلا بعد جولة يقوم بها مع السائحين والسائحات ولا بد أن في الأمر واحدة من بنات الثلوج في الشمال . أسقط في يد نبيل وقد أدرك أنها لن تتركه ... كان ذهابه إلى المحطة وإيداع الحقيقة في الخزانة أمراً مستحيلاً بكل المعاني ... لم يكن أمامه - في مواجهة إصرار شيرلي الملتهبة بالحب منذ ليلة الأمس إلا أن يؤجل إيداع الحقيقة في الخزانة مع ما في هذا من مخالفة لتعليمات أبي سليم ،

وأن يصحب الفتاة المولعة بحبه إلى مسكنه ... وكانت الحقيبة المحملة بالمخدرات ، في يده !!

... ..  
... ..

كانت ذكرى الليلة السابقة تعطر خياله ، وكانت لويز جولدمان بين ذراعيه تذيقه من رحيق الحب ما كان يجعله أكثر شراهة ... عندما سمع دقاً على الباب !

فكر في ألا يجيب على الطارق لكن الدق عاد من جديد كي يوقظه من أحلامه ... همست الفتاة في شفتيه أن يرى من الطارق حتى لا يزعجهما إلحاحه ... نهض إلى الباب ، وما أن فتحه حتى وجد من يدفعه في عنف وإذا ثلاثة رجال يقتحمون البيت وكانوا يرتدون المعاطف والقبعات ... خطا نبيل إلى الخلف وقد سقط قلبه بين ضلوعه وأدرك أن الضربة القاضية قد حانت وأن عليه أن يقاوم ... سأله كبيرهم في جفاء :

« هل أنت نبيل سالم ؟ » .

« نعم أنا ... ماذا تريدون ؟ » .

« هل تسكن هنا ؟ » .

« نعم !! » .

حاول جاهداً أن يسترد جأشه ولكن الرجل أوماً إلى زميله فأغلق أحدهما الباب ثم اندفعا إلى المسكن يفتشانه ... صاحت شيرلي وهي تلملم نفسها محتجة :

« أنا مواطنة أمريكية ، من أنتم ، وماذا تريدون ؟ » .

أوماً كبيرهم برأسه نحوها سائلاً نبيل :

« هل هذه الفتاة صديقتك ؟ » .

« إنها زميلتي في العمل !! » .

في تلك اللحظة عاد أحد الرجلين إلى الرجل الكبير وهو يحمل في يده

حقيبة المخدرات نظر إليه الرجل طويلاً ثم سأله :

« هل هذه الحقيبة تخصك ؟ » .

صاح صوت نبيل وهو يحاول جاهداً أن يرد :

« لا بد أنها هي !! » .

لمع الشك في عيني الرجل :

« ماذا تعني ؟ » .

ارتبك نبيل ، أرتج عليه ، تلجلج وهو يتمتم بأنها حقيبة أوراقه ، وأنها تخص الشركة !

« هل لك أن تفتحها ؟ » .

ألقى إليه حامل الحقيبة بالحقيبة فحاول أن يفتحها دون جدوى ... كان مدركاً أنه لا يعرف الأرقام السرية الخاصة بفتحها ... صاحت شيرلي :

« هل نسيت أرقام حقيقتك يا نبيل ؟ » .

وكانت نظرتة إليها فيها من الاستعطاف ما لم يخف على الرجل ... صاحت مندفة إليه :

« نبيل ... ماذا في هذه الحقيبة ؟ » .

كاد يصرخ فيها أن تصمت عندما أمر الرجل أحد رجليه بفتح الحقيبة عنوة ! فتحت الحقيبة ، فإذا هي ممتلئة حتى حافتها ، بالمخدرات !

كاد نبيل يسقط مغشياً عليه ، وكان الرجل يقول :

« هر سالم ... إنني اقبط عليك بتهمة الإتجار في المخدرات ، ولعلك تعلم أن من حقك ألا تتحدث إلا في وجود محام ... وأن أية كلمة أو تصرف ، سوف يؤخذان عليك من الآن ! » .

- يليه الجزء الثاني -



مِنْ مَلَفَاتِ  
الْمَخَابِرَاتِ الْمَصْرِيَّةِ

# أَعْنَفُ صِرَاعٍ بَيْنَ الْعَاطِفَةِ وَالْوَاجِبِ

سَامِيَّةٌ فَهْمِيَّةٌ

سَأَلَتْ خَطِيبَهَا - الْخَائِنَ - لِلْمَخَابِرَاتِ الْمَصْرِيَّةِ  
وَكَشَفَتْ أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا

صَالِحٌ مَرْيُومٌ



القاهرة

## الفصل الثالث عشر

### السجن أو القتل ؟

تلك ليلة في حياة نبيل سالم لم ينسها أبداً . . . ليلة ظلت سيفاً مسلطاً فوق عنقه فإذا هو أداة طيعة في يد من أسلمهم نفسه بأبخس الأثمان . . . فما أن فاه ضابط الشرطة الألماني بما فاه به حتى مادت الأرض تحت قدميه ، أحس أنه يهوي من فوق السحاب إلى قاع بلا قرار . . . راح الرجل يقلب في أكياس المخدرات التي ملأت الحقيبة كما ملأت رائحتها هواء الغرفة وسيل من الأسئلة يندفع من بين شفتيه في تلاحق كاد يورثه الجنون . . . حاصرته الأسئلة من كل جانب لكنه تشبث ببقية من إرادة وهو ينفي معرفته بمحتويات الحقيبة نفياً قاطعاً ، قال : إنها ليست حقيقته وأكد أن في الأمر خطأ أو مؤامرة . . . أخذ الرجل يسأله عمن يعمل معه ومن سلمه الحقيبة وإلى من كان ينوي تسليمها ومنذ متى يعمل في تهريب المخدرات وكم يتقاضى من أجر . . . لكن نبيل لم يتزحزح عن موقفه ذاكرة أنه وضع حقيقته - كالعادة - فوق رف الأوتوبيس وإنه يذكر أنه شاهد بجوارها حقيبة أخرى مشابهة لها تماماً ، وإنه عندما انتهت الجولة أخذ الحقيبة وعاد إلى مكتبه دون أن يفتحها ولا بد أن هناك خطأ قد حدث ولا بد أن صاحب الحقيبة سوف يبحث عنها . . . كانت لحظات رهيبة تلك التي عاشها نبيل سالم وهو يجيب على الشرطي محاولاً التماسك بكل ما استطاع من قوة . تذكر قول أبي سليم عندما التقى به في شقة فريدريك لأول مرة وقال له إن الشرطة في ألمانيا غيرهم في مصر ، وإن القوم هنا متحضرون من الممكن التفاهم معهم . . . فهل ينقذه أبو سليم ويتفاهم مع هؤلاء الرجال فعلاً ، أم يتركه لمصير أسود لا يعرف عنه شيئاً . . . التفت الشرطي نحو شيرلي

هايمان التي كانت تقبع في ركن المكان تبدو شاحبة الوجه ضائعة النظرات تتعلق عينها بوجه نبيل في تساؤل صارخ . . . سألها الرجل فجأة :

« وأنت أينها الصغيرة . . . منذ متى وأنت تشتركين في هذه اللعبة الجهنمية ؟ » .

قبل أن تفتح فمها صاح نبيل مدافعاً :

« إن شيرلي لا دخل لها في الأمر ! » .

سخر منه الرجل ملتفتاً إليه :

« كذا ؟ ! » .

« لقد دعوتها إلى العشاء هنا فجاءت وكانت الحقيبة معي ! » .

« إذن فالحقيبة لك ؟ ! » .

« لقد أخبرتك بما حدث وأنا على استعداد لأن أذكره ألف مرة ! » .

« يبدو أنك مصر على الإنكار ؟ ! » .

« أنا لا أنكر شيئاً ولكني أذكر الحقيقة ! » .

« وما هي الحقيقة ؟ ! » .

« لا بد أن خطأ قد حدث وتبادلنا أنا وصاحب الحقيبة الأخرى الحقائق ! » .

« أليست هذه الحقائق من مخصصات الشركة ؟ ! » .

« نعم . . . وهذا ما جعل الأمر يبدو لي طبيعياً ! » .

« إذن فالحقيقة لا بد مملوكة لواحد من زملائك ! » .

« لست أدري . . . ربما . . . لا أعلم ! » .

« ولمن هي إذن ؟ ! » .

كان ضغط الرجل عليه يتزايد سؤالاً بعد آخر فصرخ نبيل :

« لو أنني كنت أعلم لأخبرتك ! » .

« ومنذ متى تتعاون فراولين هايمان معك ؟! » .  
 « ليس لفراولين هايمان أي دخل في الأمر ... وهي لا تتعاون معي إلا في عملنا في الشركة ... وأنا الذي دعوتها إلى العشاء هنا ! » .  
 صمت الشرطي الألماني قليلاً ، التفت نحو شيرلي وقد استغرق في التفكير ... كانت هي لا تزال في مكانها ترتجف رعباً ... سألها :  
 « أليس لك دخل في الأمر حقاً ؟! » .  
 قالت ... وكانت تبدو مسكينة ضعيفة !  
 « لقد ذكر لك الحقيقة وليس لي علم بشيء ! » .  
 « منذ متى وأنتما صديقان ؟! » .  
 « نحن لسنا صديقين فقط ، نحن مخطوبين ! » .  
 دق قلب نبيل فرحاً وطرباً ... هتف في عرفان :  
 « شيرلي ! » .  
 قالت في صوت مرتجف :  
 « إنني أعلم أنك بريء ! » .  
 ساخراً غمغم الشرطي :  
 « يبدو مس فراولين هايمان أنك واثقة من خطيئك ؟! » .  
 في ألمانية طليقة اندفعت في القول :  
 « كل الثقة سيدي الضابط ... لقد عرفته منذ أن التحق بالعمل معنا في الشركة ... ثم إنني كنت معه منذ غادر الأوتوبيس حتى الآن ! » .  
 « ألم تلحظي شيئاً غير طبيعي ؟! » .  
 « بالمرّة ! » .  
 « وأين كنت طوال اليوم ؟! » .  
 « في مقر عملي بالشركة وهناك عشرات الشهود على ذلك ! » .  
 التفت نحو نبيل :

« وأنت ... كيف قضيت يومك ؟! » .  
 « مع فوج سياحي منذ التاسعة صباحاً وحتى عدنا إلى الشركة وجميعهم يشهد بذلك ! » .  
 أوما نحو شيرلي متسائلاً :  
 « إذن فلا دخل لها في الأمر ؟! » .  
 « ولا دخل لي أنا أيضاً !! » .  
 تبادل الشرطي النظر مع واحد من زميليه ثم قال لشيرلي :  
 « تستطيعين الإنصراف إلى بيتك إلى أن نستدعيك لأخذ أقوالك ! » .  
 همت بالحركة عندما استطرد الرجل :  
 « لست في حاجة لأن أذكرك بأنك ممنوعة من مغادرة هامبورج حتى تدلين بأقوالك ! » .  
 هزت شيرلي رأسها إيجاباً وتحركت نحو الباب عندما سمع الجميع دقاً عليه !  
 انتفض الرجال الثلاثة متفرقين في الغرفة ، واندفع أحدهم كي يدس فوهة مسدسه بين ضلوع نبيل وهو يهمس :  
 « حذار أن تأتي بحركة واحدة ! » .  
 ارتدت شيرلي إلى الخلف في خوف ورعب ... وحاصر الشرطي الباب مع زميله الآخر ... أخرج كل منهما سلاحه ملتصقاً بالحائط ... عاد الدق من جديد فأوما الشرطي إلى نبيل كي يتقدم من الباب وهمس الرجل الواقف خلفه :  
 « أي تصرف خاطيء سوف يرسل بك إلى العالم الآخر ! » .  
 عاد الدق مرة ثالثة ، وفي إلحاح ، فتقدم نبيل من الباب ... ما إن فتحه حتى اقتحم أبو سليم الغرفة صائحاً :  
 « إيه نبيل ... إنت كنت فا ... .. » .

بدا الأمر لنبييل وكأنه يشاهد فيلماً بوليسياً ، أو كأنه في حلم مزعج ...  
تنفس الصعداء على كل حال فهي هو القدر يرسل إليه طوق نجاة وعليه الآن  
أن يتعلق به ... ما إن خطا أبو سليم خطوة حتى توقف عن الحديث وقد أحاط  
به الرجال وأغلق الباب فرفع يديه إلى أعلا متسائلاً :

« ما هذا الاستقبال بحق الجحيم ؟ » .

تلقت حوله حتى وقعت عيناه على الشرطي الكبير فهتف :

« هربراون ... ماذا تفعل في مسكن صديقي ؟ » .

أعاد الرجال أسلحتهم إلى مكانها وتقدم هربراون من أبي سليم دهشاً :

« بو سليم ... هل أنت صديق للهر سالم ؟ » .

ضحك أبو سليم ضحكته العريضة المجلجلة تلك وهو يهتف :

« وإلا لما كنت هنا الآن ! » .

قال هذا ثم التفت نحو نبييل متسائلاً :

« ما الذي يحدث هنا بحق السماء يا نبييل ؟ » .

اندفع نبييل يقص على أبي سليم - بالألمانية - قصة الحقيقة التي اختلطت  
بحقيقته ، وشيرلي التي دعاها إلى العشاء ، واقتحام رجال الشرطة للبيت ...  
و ... وكان واضحاً أن لأبا سليم مكانه عند الشرطي المتجهم الذي انفرجت  
أساريه بمجرد رؤيته له ... وما أن انتهى نبييل من حديثه حتى التفت أبو سليم  
نحو الشرطي قائلاً وهو يوميء نحو شيرلي :

« لننظر أولاً في أمر هذه المسكينة ؟ » .

قال هربراون :

« لقد طلبت منها الإنصراف قبل وصولك بثوانٍ ! » .

هتفت شيرلي :

« وهل أستطيع الإنصراف الآن ؟ » .

« بالتأكيد ... على ألا تغادري هامبورج قبل أن نسمح لك بذلك ! » .

همت بالحركة فلاحقها الرجل :

« ولا تنسي أن تتركي عنوان سكنك وعملك قبل إنصرافك ! » .

أخرج أحد الرجلين قلماً وورقاً فالتفت أبو سليم نحو هربراون متسائلاً فقال  
هذا :

« إنه مجرد روتين أبو سليم ... مجرد روتين ! » .

هرولت شيرلي هايمان نحو الباب لكنها قبل أن تنفذ منه التفتت نحو  
نبييل ... ألقت إليه بنظرة حانية ، فشمّلها بعينيه هاتفاً :

« سوف نلتقي قريباً ... أقسم لك سوف نلتقي ! » .

ولم يكن نبييل سالم يعرف - وهو يقسم - أن هذه هي المرة الأخيرة التي تقع  
فيها عيناه على تلك الفتاة الإسرائيلية لويز جولدسمان ، التي عرفها تحت اسم  
« شيرلي هايمان » ... وأن دورها معه قد انتهى تماماً !

\* \* \*

... .. وفي هذه المرة أيضاً ، كان أبو سليم على حق ، وكان  
عند وعده الذي بذله ذات ليلة في شقة فريدريك موزع المخدرات ... فما أن  
خرجت شيرلي هايمان حتى واجه أبو سليم ذلك الهر براون مواجهة صريحة لا  
لف فيها ولا دوران ، وإذا كانت تحريات الشرطة الألمانية قد أنبأت بأن نبييل  
يعمل في ترويج المخدرات أو الإتجار فيها ، فهل هناك دليل على هذا سوى  
الحقيقة ؟ ... وكما قال نبييل فلقد كان عدد السائحين في السيارة أربعة عشر  
سائحاً وسائحة جميعهم من دول اسكندنافيا ، فلم لا يكون أحدهم صاحب تلك  
الحقيقة ... وإذا كانت الحقيقة تخص الشركة ، فإن تقليد مثل هذه الحقائق  
- ناهيك عن سرقة واحدة أو الحصول عليها - أمر بالغ البساطة ... فكيف ترك  
الشرطة للصوص لتجرب بريثاً ؟ ! .

كان الموقف شديد الغرابة ، وكان نبييل يتتبع ما يحدث بإعجاب بالغ وقلبه  
يخفق لأبي سليم بعرفان بلا حدود ... مرة أخرى كان يتنفس على صدره بعد

أن ضاعت أنفاسه لدقائق خالها دهوراً بلا نهاية . . . أخذ الحوار بين الرجلين - أبو سليم وهر براون - يحتدم لحظة بعد أخرى ، وكان أبو سليم قوي الحجة والمنطق والتصرف معاً . . . ففي لحظة من اللحظات النادرة ، أخرج أبو سليم حافظة نقوده المتخمة بالمال وهو يقول زائراً :

« على كل . . . لا بد من وضع حد لهذا الأمر . . . فما قولك أيها العزيز براون ؟! » .

تمتم هذا وعينه معلقتان بالحافظة :

« وهل تضمن هذا السيد ؟! » .

« قلت لك إنه صديقي ! » .

« لكنك تعلم أن ثمة إجراءات ! » .

« ماذا تعني بحق الشيطان ؟! » .

« أعني إنه لا بد من إنهاء الأمر رسمياً ! » .

« حسن . . . وكيف تنهي الأمر رسمياً ؟! » .

« لا بد من حضور هر سالم في الغد إلى إدارة الشرطة لإستكمال التحقيق ! » .

« ليس هذا أمراً عسيراً ! » .

« على ألا يغادر هامبورج قبل الإنتهاء من هذه القضية وإغلاقها تماماً ! » .

« إنني أضمن لك هذا ! » .

لوح الشرطي في وجه أبي سليم محذراً :

« أبو سليم ! » .

« قلت لك إنني أضمن هذا ! » .

زحفت عينتا الرجل إلى الحافظة فأخرج منها أبو سليم كمية لا بأس بها من أوراق النقد الألماني دون عد ، وقدمها للشرطي قائلاً :

« عليك أن تصرف مع زميليك ! » .

تناول الرجل النقود مغمغماً :

« لعلك تعرف صراحة القانون الألماني يا صديقي ! » .

في حدة من نفذ صبره هتف أبو سليم :

« هر براون . . . يبدو أنك لا تصدق أن هذا الشاب المصري صديقي بالفعل ! » .

« ليس الأمر كما تظن !! » .

« إذن تخبرني بما لا أظن ! » .

استدار الرجل نحو نبيل وهو يقول بكلمات بسيطة واضحة وهو يضغط على مخارج ألفاظه :

« لو أن هذا الشاب غادر هامبورج دون إذن ، وقبل أن ينتهي التحقيق تماماً ، فلسوف توجه إليك تهمة الاشتراك في تهريب المخدرات معه ! » .

« إن هذا لم يغب عن ذهني لحظة ! » .

ولم يعد هناك ما يمكن أن يقال . . . أوما الشرطي إلى زميليه فتحركا نحو الباب ، مد يده مصافحاً أبا سليم قائلاً لنيل :

« موعدنا غداً في التاسعة صباحاً أيها الشاب ! » .

« أين ؟! » .

ضحك ساخراً وهو يخطو نحو الباب :

« في إدارة الشرطة طبعاً ! » .

هتف أبو سليم :

« لكنني سوف آتي معه ! » .

« ولا تنسى المحامي يا صديقي ، فإن الأمر سيحتاج إليه بكل تأكيد ! » .

... ..

... ..

ما أن أغلق الباب خلف الرجال الثلاثة ، حتى استدار أبو سليم نحو نبيل فكان الذي يواجه الشاب إنسان آخر . . . كان وجه الرجل متقلص الملامح حاد

القسمات ، تتوسطه عينان تطلقان غضباً كالرصاص ... تراجع نبيل خطوة إلى الوراء وقد انتابه رعب هائل ، سأله أبو سليم بالألمانية :

« والآن ... ما الذي حدث بالضبط ؟ » .

قال نبيل سالم فيما بعد وهو يحكي قصة تلك الليلة المشهودة ، إنه في حياته - أبداً - لم يشعر بمثل الرعب الذي شعر به وهو يواجه نظرات أبي سليم ... قال : إنه لسبب غير واضح ، وجد نفسه يتذكر قول فريدريك بيكر موزع المخدرات إن الرجل الكبير من الممكن أن يرسل به إلى العالم الآخر لأصغر هفوة ... وكأنه موقناً أنه الآن لم يرتكب هفوة صغيرة ، بل ارتكب بالفعل جرمًا لا يغتفر ، جرم أوصله إلى حافة الخطر أو الموت بعد أن صودرت شحنة المخدرات وخسر أبو سليم ما لا يعلم من عشرات الألوف من الماركات الألمانية ... قال نبيل معبراً عما اعتراه ، إنه أحس وكأنه يواجه الموت مواجهة صريحة فلم يكن أبو سليم غاضباً فقط ، بل كان مجنوناً ، وكان في صوته الحاد صليلٌ يبعث الرعب إلى قلبه وضاع صوت نبيل وتبددت الكلمات وهو يقص على الرجل ذلك الذي حدث منذ أن دخل الشقة مع شيرلي وحتى وصول رجال الشرطة ...

تركة أبو سليم يكمل حديثه ويسترسل فيه كيفما شاء له الإسترسال ، حتى إذا ما انتهى قال هذا بصراحة :

« ليس هذا ما سألتك عنه هر نبيل !! » .

هكذا هو إذا ما غضب واحتدم استحالت ملامحه إلى نتوءات صخرية في وجهه جرائتي التصميم وكان سداً سميكاً قد هبط بينه وبين الرجل الذي أسلمه قياده وربط مصيره وجعل حياته معلقة بكلمة منه ، أو بحكم يصدره عليه بالحياة أو الموت أو السجن ، همّ بالمراوغة فأوقفته كلمات أبو سليم الهادئة :

« ليس هذا ما سألتك عنه هر نبيل !! » .

وها هو يكرر - للمرة الثانية - اسمه مصحوباً بكلمة « هر » أي السيد ، فماذا وراءه ؟

« أبو سليم ... أنا عارف إنني غلطت ، لكن ... » .  
في صلف قاطعه الرجل هادراً :

« إنني أتحدث إليك بلغة فلا تحدثني بلغة أخرى ! » .

اختلطت الكلمات في ذهنه بمعانيها ولم يعد يعرف ماذا يقول ... لآك لسانه بضع كلمات بلا معنى فحدد له هذا الطريق :

« لماذا لم تضع الحقيبة في الخزانة أيها السيد ؟ » .

« لأن شيرلي ... » .

« دع شيرلي هايمان هذه جانباً فحسابي معك بخصوصها لم يأت أوانه بعد ! » .

« أبو سليم ... لقد أخطأت ، غير أنني كنت في موقف حرج فلم أجد مخرجاً إلا المعجيء إلى البيت حتى لا تكتشف الفتاة الأمر ! » .

صمت الرجل لثوانٍ وكأنه يتدبر الأمر ثم قال :

« على كل ليس هذا وقت الحساب ! » .

« أبو سليم ... أرجو أن ... » .

نظر الرجل في ساعة يده مغمماً بالعربية :

« حضر شنتتك بسرعة ! » .

« شنتتي ؟ ! » .

« طبعاً يا أستاذ ... انت عارف المخدرات التي أنت ضيعتها دي ثمنها كام ؟ » .

كمن يفرقه في ماء يغلي ثم يخرجها إلى ماء متجمد ، أطل الرعب عليه من بين شفتي الرجل الذي أردف :

« وعارف المنظمة ممكن تعمل فينا إيه ؟ ! » .

« منظمة ؟ ! » .

« طبعاً ... إئت متخيل إنني باشتغل لوحدي ؟ ! » .



ضاح نبيل وفوهة عذاب مرعب تُفْتَحُ تحت قدميه .

« المنظمة مش حاتحاسبك إنت لوحدك ، إنما حاتحاسب اللي شغللك  
واتحمل مسؤوليتك ! » .

« يعني إيه !؟ » .

« يعني حاتحاسبني أنا كمان يا نبيل ! » .

« وإنت ذنبك إيه !؟ » .

في سخرية مريرة هتف أبو سليم :

« ذنبي إني قدمتك ليهم وشغلتك واستأمتك على بضاعة بالشيء  
الفلاني ! » .

أذاب الحديث بالعربية كثيراً من الثلوج الرابضة فوق صدر نبيل فهتف :

« أنا مستعد أتحمل المسؤولية كلها ! » .

« قدام مين !؟ » .

« المنظمة ! » .

« والبوليس !؟ » .

أسقط في يد نبيل أحس أنه محاصر إلى الاختناق . . . أضاء في ذهنه فجأة  
ما كان أبو سليم يسعى إليه ، وما عناه عندما طلب منه تجهيز الحقيبة . . . ساد  
الصمت لثوانٍ قال بعدها الرجل :

« انت عارف إيه اللي حايجصل بككرة لو دخلت إدارة البوليس  
برجلك !؟ » .

توسل نبيل واستعطف :

« يا أبو سليم أرجوك المسألة . . . » .

« مش حاتخرج منها قبل خمسة وعشرين سنة ! » .

« أنا تحت أمرك ! » .

هكذا استسلم دون شرط . قال الرجل :

« لازم نسيب البلد ! » .

« والهـر براون !؟ » .

« إحنا مش حانسيب هامبورج . . . إحنا حانسيب ألمانيا كلها ! » .

فَغَرَّ نبيل فاه دهشة ، فلاحته كلمات الرجل بالألمانية :

« عليك أن تجهز حقيقتك ، ثم تطفيء جميع الأنوار وكأنك ذهبت إلى  
هراشك . . . وعندما يتتصف الليل تماماً أنظر من النافذة دون أن تضفيء  
النور . . . فإذا أتاكَ ضوء سيارة يضفي وينطفيء مرتين متتاليتين ، فغادر البيت  
على مهل . . . ارتد معطفاً وقبعة تداري بها ملامح وجهك . . . سر حتى ناصية  
الشارع دون أن تلتفت هنا أو هناك حتى لا تثير الرية . . . عند الناصية ، وإذا  
انحرفت إلى اليسار فلسوف تجد على بعد خمس خطوات لا أكثر ، سيارة  
زرقاء اللون . . . إسأل السائق عن الساعة ، فإذا ما طلب منك أن تركب  
فاركب دون كلمة ! » .

« وإذا لم يطلب مني الركوب !؟ » .

« عد إلى البيت مرة أخرى . . . وعلينا أن نتنظر مصيرنا معاً !! » .

قال أبو سليم هذا وهو يستدير منصرفاً دون كلمة . . . وجد نبيل نفسه يقف  
في مسكنه وحيداً ، مهدداً بالسجن أو القتل ، ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن  
يطيع أبو سليم ، وأن يتبع خطاه !

\* \* \*

كان الوقت قد تخطى منتصف الليل بدقائق قليلة عندما مال نبيل على سائق  
سيارة كانت تنتظره في شارع جانبي خافت الضوء ، سأل الرجل عن الساعة  
فزمجر هذا :

« اصعد ! » .

قبل أن يفتح الباب الخلفي للسيارة زار الموتور ، وما أن دلف إلى الداخل  
حتى انطلقت السيارة لا تلوي على شيء . . . ما أن استقر في المقعد حتى  
ارتطم كتفه بمن كان يجلس على يمينه ، إلتفت فإذا أبو سليم يجلس في  
انتظاره !

ولساعات طالت ، كان الصمت هو اللغة السائدة داخل السيارة التي غادرت هامبورج وكأنها تفر من أشباح تطارد مَنْ فيها . . . ننان أبو سليم - بين الحين والحين - يلتفت إلى الخلف ويتبادل مع السائق كلمات حول ما إذا كانوا متبوعين بسيارة أخرى . . . عندما انطلقت السيارة في الطريق السريع ، واطمأن الرجلان إلى أن أحداً لا يتبعهم ، غطس أبو سليم في مقعده ، هبط بقبعته فوق عينيه ، وسرعان ما علا شخيرته !!

... ..  
... ..

مع خيوط الفجر الأولى وصلت السيارة إلى مدينة فرانكفورت ، حاول نبيل طوال الطريق أن يغفو قليلاً دون جدوى ، كانت الأفكار تصطرع في رأسه بعنف وهو لا يدري إلى أين هو ذاهب ولا ما الذي حدث وكيف انزلق إلى مثل هذا الطريق الذي يبدو له بلا نهاية . . . لاح للبصر مطار فرانكفورت على البعد ، عندما التفت نحوه أبو سليم متسائلاً :

« أين جواز سفرك ؟! » .

قدم له نبيل جواز السفر فدمسه الرجل في جيبه مقدماً له جوازاً آخر . . . في دهشة معقود اللسان تناول نبيل الجواز الجديد ، قلب صفحاته على ضوء النهار الخافت ، فإذا به أمام مفاجأة مروعة !

كان جواز السفر الذي بين يديه مصرياً ، وكان يحمل صورته ، كما كان يبدو مستعملاً يحمل عدداً لا بأس به من أختام مطارات دول مختلفة . . . شيء واحد توقف أمامه نبيل خافق القلب ، ذلك هو الاسم المدون في الجواز . . . كان الاسم هو : جيزاوي . . . نبيل .

« إيه الاسم ده يا أبو سليم ! » .

في لا مبالاة سأله أبو سليم وهو يتطلع فيما حوله من معالم المدينة :

« إنت اسمك إيه بالكامل ؟! » .

« نبيل سالم مصطفى ! » .

زمجر الرجل في ضيق :

« أنا باقول اسمك بالكامل يا نبيل ؟! » .

« نبيل سالم مصطفى عبد الله ! » .

في نفاذ صبر التفت الرجل نحو نبيل وهو ينظر إليه نظرتة تلك المخيفة ، فابتلع هذا لعبه وسرى الخوف في أوصاله قاهراً وهو يغمغم :

« نبيل سالم مصطفى عبد الله جيزاوي ! » .

« يبقى إحنا ما غلطناش ! » .

« مش فاهم !! » .

رغم أن اسم « جيزاوي » كان هو اسم العائلة حقاً . . . إلا أن نبيل تعود منذ نعومة أظفاره ، أن يكون اسمه نبيل سالم مصطفى . . . هذا كان اسمه في المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة ، ثم هو اسمه في البطاقة الشخصية وجواز السفر جميعاً . . . ولقد عرف في إحدى سنين عمره أن أباه أسقط اسم العائلة من اسمه واسم ابنه لخلاف لم يفهم طبيعته ولم يهتم بتقصي الأمر من حوله ، وإن كان - بشكل غامض - قد عرف أن السبب كان خلافاً بين أبيه وبين عائلته حول زواجه من أمه !

فمن أين عرف أبو سليم اسم العائلة وهو لم يذكره له ؟!

لم يكن الأمر سرّاً يخفيه على أحد ، لكنه لم يذكر الحقيقة ، بل ربما لم تخطر بباله . . .

وعلى كل ، فما أن قال إنه « مش فاهم » ، حتى اعتدل أبو سليم بكليته نحوه كانت السيارة قد وصلت الآن إلى موقف السيارات في المطار ، وكانت نوافذها مغلقة والجو دافئ والسائق تحول منذ ساعات في وعي نبيل ولا وعيه معاً ، إلى مجرد آلة تجلس خلف عجلة القيادة ، وثمة خدر يتسلل إلى أعصاب نبيل وأعضائه مع رغبة عارمة في النعاس تجتاحه اجتياحاً ، سأله الرجل :

« عاوز تفهم إيه ؟! » .

« عاوز أفهم اللي بيحصل يا أبو سليم ! » .

أوماً أبو سليم نحو جواز السفر متسائلاً :

« الباسبور اللي في إيدك ده فيه حاجة ؟ ! » .

« لا ! » .

« مصري ؟ ! » .

« طبعاً ! » .

« إذا كان على الاسم ، لازم تعرف إننا غيرناه علشان الأتربول ! » .

رفع نبيل حاجبيه دهشة عندما استطرد الرجل :

« تفكر هر براون حايعمل إيه لما يستناك بعد كذا ساعة ولا

تروحش ؟ ! » .

« أكيد حايدور علي ! » .

« ولما يكتشف إنك هربت من ألمانيا ؟ ! » .

في ضياع نبيل :

« حايلف الأتربول ! » .

« بس حايلفغه باسم نبيل سالم ، مش نبيل جيزاوي ! » .

عاد الصمت كي يلف السيارة كأعصار ... لم يكن هناك الآن ما يمكن

قوله ، عاد أبو سليم إلى الحديث في تراخ :

« إحنا حانركب الطائرة اللي رايحة برن في سويسرا ... والتذكرة بتاعتك

آهيه ! » .

ناولته التذكرة فتناولها في صمت .

« أول ما نسيب العربية محدش فينا حايكلم الثاني ، ولا حانقعد جنب

بعض ، ولا كائننا شفتنا بعض أو نعرف بعض قبل كده ! » .

هز نبيل رأسه إيجاباً .

« ولما ننزل مطار برن ... أنا حابقى أتصرف ! » .

« وهو كذلك ! » .

هم نبيل بمغادرة السيارة فأمسك صوت أبو سليم بخناقه :

« اتصرف بشكل طبيعي جداً ... فاضل على الطائرة ٤٥ دقيقة ، وفاصل

على ميعادنا مع هر براون ثلاث ساعات وشوية ! » .

زحفت عينا نبيل نحو جواز السفر وفي رأسه ألف خاطر وخطر فابتسم أبو

سليم مردفاً :

« وبالنسبة للباسبور ماتخافش ، محدش ممكن يكشفه ! » .

... و ... و ... ومرة أخرى يصدق أبو سليم ، فلقد مر نبيل سالم من

الجوازات بسهولة شديدة ، وعندما صعدت به الطائرة إلى الجو تنفس

الصعداء ، فها هو شبح السجن يتعد عنه وكان موقناً أن أبا سليم يجلس معه في

نفس الطائرة فوق مقعد ما لم يحاول أن يعرف مكانه ... قليل من الراحة تسلل

إلى نفسه ، لكن كثيراً من الغموض والقلق راحا يجتاحانه بعنف ...

غير أن نبيل سالم ، رغم كل شيء ، لم يكن يدري ، ولم يخطر بباله ، أن

ما سوف يلقيه في الساعات القليلة القادمة ، أكثر هولاً مما مضى عليه .

\* \* \*

## الفصل الثالث عشر

### الهروب المزيّف!!

يبدو لي أنه لا بد لنا هنا وقفة نلقي فيها الضوء على بعض الجوانب الخفية من تلك القصة . . . وإذا كانت سامية فهمي عندما لجأت إلى جهاز المخابرات المصري حاملة في صدرها تلك الشكوك المدمرة حول حبيبها ، دون أن تعلم أن تلك الشكوك كانت واقعاً يعيشه الرجال هناك . . . وأن عادل مكّي بالذات كان يعرف الكثير . . . فإن السؤال المطروح يصبح :

كيف عرف الرجال بقصة نبيل سالم ؟!

كيف اكتشفوها وتابعوها ؟!

سؤالان يستلزمان منا العودة قليلاً إلى الوراء . . . إلى الساحة التي شهدت تلك الأحداث . . . عودة لا استطراد فيها ولا تزيد ، وإنما - فقط - كي توضع النقاط فوق حروفها الصحيحة ، حتى تكتمل الصورة !

... ..

... ..

قال لي ضابط المخابرات المصري عادل مكّي وهو يجمع أطراف تلك القصة المحزنة لذلك الشاب التعسّ نبيل سالم . . . أن نبيل - وهو جالس في الطائرة التي أقلته من فرانكفورت حتى مدينة برن السويسرية . . . لم يكن يعرف أن كل ما مرّ به من أحداث ، لم يكن سوى تمثيلية متقنة ، وضعتها عقول مدربة ، ثم أخرجها على الطبيعة ذلك الذي أطلق على نفسه ، أو أطلقوا عليه ، اسم « أبو سليم » !

وإذا كان من المرجح ، بل من المؤكد - هكذا قال عادل مكّي - إن الحقيقة التي

كان نبيل يأخذها من الأوتوبيس - بعد الجولة السياحية - إلى تلك الخزانة التي استأجرها في محطة سكة حديد هامبورج . . . لم تكن تحوي مخدرات . . . إلا أنها في تلك المرة الأخيرة التي استعملت فيها لويز جولدمان كل إمكانياتها ، كي تدفعه إلى التخلي عن حرصه والتزامه بوضع الحقيقة في الخزانة فوراً والذهاب بها إلى مسكنه والحقية معه بطبيعة الحال . . . كانت بالقطع تحوي كمية لا بأس بها من المخدرات التي يصبح من السهل التعرف عليها حتى من غير خبير مثل نبيل المسكين ، بحيث إذا ما داهمه رجال الشرطة المزيّفين هؤلاء ، وفتحت الحقيقة أمامه ، لا يساوره أدنى شك في حقيقة ما كان يحدث له أو من حوله !!

كان المطلوب - منذ البداية - أن يقع نبيل ، الذي أبدى التزاماً صارماً بتعليمات أبي سليم ، في خطأ واحد . . . خطأ يضعه بين فكي كماشة لا يستطيع منها فكاًكاً مهما حاول . . . ولقد وقع نبيل في الخطأ لحظة أن ضعف أمام إلحاح لويز جولدمان ومحاصرتها إياه ، فذهب معها إلى سكنه حاملاً حقية مليئة بالمخدرات !

كانت تلك إذن تمثيلية متقنة ، فلم يكن الرجال الثلاثة الذين داهموا مسكن نبيل ، سوى ثلاثة من عملاء المخابرات الإسرائيلية - وليس مستبعداً أن يكونوا ألماناً بالفعل ! - أدوا أدوارهم ببراعة ، كما أدت الفتاتان مارتين وصديقتها مع فريدريك بيكر موزع المخدرات ، أدوارهم أمام ذلك الشاب المصري ببراعة قادته إلى أول خطوة في طريقه هذا الشائك !

وهكذا ، وببساطة ، وضع ذلك الداهية - أبو سليم - نبيل سالم في مأزق جعله طوع بئانه . وجعل الفكاك منه أمراً مستحيلاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى !!

... ..

... ..

عبثاً حاولت أن أعرف من عادل مكّي - رغم العلاقة الحميمة التي ربطت بيني وبينه بمرور الوقت - الاسم الحقيقي لهذا الضابط الإسرائيلي الداهية الذي

أطلق على نفسه اسم « أبو سليم » ... ولقد طال بيننا الجدل حول السبب وراء إخفاء اسمه ... وعندما ذكرت أمامه اسم « ميخائيل باريهودا » - ذلك الداهية الذي أوقع في برائته الكثيرين في أوائل الستينات ... وأفلت من بين مخالبه الكثيرون أيضاً ، وما إن ذكرت اسم باريهودا أمامه ، حتى أطلق ضحكة أوقعني في الحيرة ، فهي تحمل من السخرية بقدر ما تحمل من المرح ... ولقد قال بعدها :

« لا ... مش هو !! » .

نظرت إليه نظرة من يسر غور صاحبه فصاح :

« ميخائيل باريهودا في الوقت ده مكانش بيشتغل في هامبورج ! » .

مرت لحظات صمت غمغم بعدها مؤكداً :

« ثم إن باريهودا كان بيشتغل في روما قبل كده بسنين ! » .

وكان هذا صحيحاً تماماً ، فلقد كان ميخائيل باريهودا في بداية الستينات يخوض صراعاً عنيفاً ومريراً مع رجال المخابرات المصرية في روما ... وبالرغم من ذلك ، فإن السؤال الذي يظل مطروحاً على الذهن : ما الذي يمنع من انتقاله - أي انتقال باريهودا - لبعض الوقت من إيطاليا إلى هامبورج من أجل صيد ثمين مثل نبيل سالم ؟!

ثم ... ما الذي يمنعه من النشاط في سنوات ما بعد النكسة إذا كان لم يعتزل ؟!

وعلى كل ... فإذا كان أبو سليم هو باريهودا أو أي رجل مخابرات آخر ، فلا بد لنا من تجميع تلك الخيوط المتعددة والمتشابكة ، لتلك القصة الغريبة التي وقعت في السنوات القليلة التي سبقت ، ثم أعقبت ... حرب يونيو ١٩٦٧ .

... ..

... ..

عندما أنشئت تلك الشركة السياحية الأمريكية في هامبورج ، وكان هذا في

منتصف الستينات على وجه التقريب ... كان نشاط المخابرات الإسرائيلية في أوروبا ، يتزايد بشكل يدعو إلى الدهشة ... وإذا كان إنشاء فرع صغير لشركة أمريكية كبيرة في أية مدينة أوروبية أمراً طبيعياً للغاية ... إلا أن الرجال في جهاز المخابرات المصري ، وبحسبهم المتزايد بخطورة الأعباء الموساد وتنوعها ... وضعوا تلك الشركة تحت الأنظار لمعرفة حقيقة النشاط الذي أنشئت من أجله ... وأكد أقول ، إن مثل هذا الأمر ، بالنسبة لجميع أجهزة المخابرات في العالم ، وليس جهاز المخابرات المصري وحده ، يعتبر من « روتين العمل » المتعارف عليه ... غير أنه - للحقيقة - وكما نجحت لوزير جولدلمان في الشهور الأولى في إبعاد الشبهات عنها ... فإن نشاط الشركة بدا طبيعياً للغاية وغير مشير لأي نوع من أنواع الشكوك ، خاصة وأن تلك الشركة السياحية بالذات ، لم تلعب بالسائحين العرب الذين كانوا يلجأون إليها ، تلك اللعبة التي اشتهرت بها الموساد في تلك السنوات وهي لعبة بيوت المملذات التي كانت تقود شباب العرب إلى بيوت تمتلئ بكل ما يصبو إليه شاب يمتلك مالا يريد أن ينفقه في ملذات رخيصة وليال مشتعلة بالجنس والمخدر والميسر جميعاً ... ثم يفرغ ما لديه من معلومات - مهما كانت تافهة - أثناء غيبوبة مؤقتة ، أو غيبوبة قد تدوم لسنوات !!!

لم تلعب الشركة ذلك الدور أبداً ، بل حافظت ، وبشكل صارم تماماً ، على مظهرها المحترم ... وهكذا ، وبعد مضي أسابيع ، كان لا بد وأن يتوقف البحث بالنسبة للشركة ، ولتلك الفتاة الأمريكية شيرلي هايمان !

لم يكن معنى هذا التوقف أن الرجال قد نفضوا أيديهم من الشركة والفتاة ، ففي مثل هذه الحرب السرية ، يصبح « النفس الطويل » - إن صح التعبير - أسلوباً يجب الحذر منه ومتابعته بين الحين والحين ، يصبح الغريمان في مثل هذا الموقف ، وكأن كل منهما يتربص للآخر داخل حقل أذرة ... ولقد يصبح الكف عن البحث أو التحري تكتيكاً يلجأ إليه الجهاز المعادي وهو هنا - بالنسبة للشركة وشيرلي - جهاز المخابرات المصري ... حتى إذا ما حدث نوع من الإطمئنان ، فلا بد ، وبالضرورة ، يحدث معه نوع من الاسترخاء ، ويصبح

التصرف أكثر طبيعية وأكثر بساطة . . . حتى إذا ما وقع خطأ ما ، أي خطأ مهما كان صغيراً ، نشط الجهاز للبحث والتحري وجمع المعلومات والسعي وراء الحقيقة من جديد !!

ولقد وقع هذا الخطأ !!  
وقع عندما بدأ نبيل خطواته الأولى في تلك الشركة !  
فكيف ؟!

... ..  
... ..

في ظني أن كثيراً من الأسئلة المطروحة سوف يظل بلا إجابة محددة لوقت طويل خاصة بالنسبة لرجل المخابرات الإسرائيلي « أبو سليم » ، أو حتى بالنسبة للوزير جولدمان ، التي اختفت بعد سفر نبيل ببضعة أسابيع من هامبورج دون أن يعرف مخلوق إلى أين ذهبت . . . وإذا كانت المخابرات المصرية لم تضع يدها على لوزير جولدمان في شهورها الأولى في هامبورج ، رغم تعاملها معها في باريس وروما تعاملًا يجعلها معروفة للرجال تماماً . . . فلقد كان هذا راجعاً للساتر المتقن - وهي شركة السياحة - الذي وقفت خلفه هذه الفتاة المدربة ، وللتصرف الشديد الانضباط الذي التزمت به في كل تحركاتها حتى في حياتها اليومية ، قبل أن تلتقي بنبيل سالم ذلك اللقاء الذي أودى به إلى التعامل مع الشيطان في سبيل نجاح زائف . . . بل ، إننا نستطيع أن نستنتج - دون خوف من الوقوع في خطأ - أن نبيل سالم هو الآخر لم يكن موضع اهتمام الرجال القابعين خلف أسوار الصمت في كوبري القبة ففي ذلك الوقت والشهور طالت . . . وحتى عندما كان على علاقة شبه يومية مع فريدريك بيكر موزع المخدرات ، لم تجعل له أهمية من نوع خاص .

كان الخطأ الأول الذي وقع فيه أبو سليم - أو من خطط لتجنيد هذا الشاب لحساب المخابرات الإسرائيلية - هو ذلك الانتقال المفاجيء من حالة بؤس كامل وشامل كان يعيشها نبيل . . . إلى حالة استقرار كامل وشامل أيضاً ، وبلا مقدمات !

غير أنه يصبح تجاوزاً للحقيقة لو أننا ادعينا أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الأنظار تلتفت ليعرف الرجال ما الذي يتم بالضبط ، فلقد كانت هناك أسباب أخرى ، ربما تبدو للمراقب أكثر أهمية !!

كان أمراً طبيعياً أن يجد شاب مصري عملاً في فرع صغير في ألمانيا ، لشركة كبيرة وذات سمعة لا بأس بها في الولايات المتحدة ! . . . ولكن أن تنشأ تلك الصداقة الحميمة بين نبيل وبين شيرلي هايمان ، وبمجرد التحاق نبيل بالشركة . . . فهذا هو ما كان لا بد وأن يلفت الأنظار ويشير العديد من الأسئلة والكثير من الشكوك !!  
لماذا ؟!

لأن تلك الفتاة التي شوهدت من قبل مع فريدريك بيكر مرات عديدة دفعت بالتساؤل إلى أذهان الرجال حتى انتهى الأمر إلى القول بأنها مدمنة مخدرات ، تلتقي مع هذا الشاب الألماني لقاءات تشوبها السرية ، لأنها حريصة على مركزها الاجتماعي وصورتها الوقورة أمام الناس . . . وكان قد لوحظ أيضاً أن مس هايمان الأمريكية ذات السلوك الشديد الانضباط ، لم يكن لها من صديق أو حتى صديقة طيلة تلك الشهور التي سبقت لقاءها مع نبيل . . . وهو أمر يبدو غير طبيعي بكل المقاييس بالنسبة لفتاة أمريكية أو أوروبية في مثل سنّها وجمالها . . . ولست أعتقد أنني أذيع سرّاً إذا ما قلت إن بعض الشباب - ومن بينهم شاب ألماني شديد الوسامة والجاذبية ، ويتمتع بسحر خاص أرجعه البعض ممن يعرفونه معرفة عائلية ، إلى أصله المصري !!! - حاولوا الاقتراب من شيرلي ، أو إنشاء علاقة صداقة معها ، ففشلوا جميعاً بما فيهم ذلك الدون جوان المولود من صلب مصري ، وردتهم الفتاة رداً رقيقاً يتفق مع شخصيتها تلك التي ظهرت بها في هامبورج ، مما أكد الظن - في تلك الأيام - بأن الإدمان على المخدرات كان وراء العزوف عن مصادقة الفتيان والفتيات معاً . . . فكيف ، ولماذا وقعت - فور التحاق نبيل بالشركة - في براثن حبه دوناً عن جميع رجال الأرض ، ومنهم من يفوقه وسامة وجاذبية وسحراً ومالاً ومركزاً ؟!!

ثم . . .



ثم كان هناك خطأ آخر . . . وهو انقطاع شيرلي هايمان عن لقاء فريدريك بيكر فجأة ودون مقدمات ، وقبل التحاق نبيل سالم بالشركة ، بفترة وجيزة للغاية . . . وإذا كان المطلوب في البداية هو الإيحاء بأن تلك الفتاة مدمنة مخدرات ، فإن انقطاعها عن لقاء ذلك الشاب الألماني يصبح أمراً مثيراً للريبة تماماً . . . خاصة وأنها لم تلجأ ولم تبحث عن موزع مخدرات آخر !

وفي الحقيقة ، فلقد أدهشني أمر لقاء لويز بفريدريك وبدا لي الأمر غريباً . . . فلماذا كانت لويز جولدمان تلتقي أصلاً بفريدريك ؟! . . . وما هو الدافع وراء تلك اللقاءات ؟!

وعندما سألت عادل مكّي عن هذا الأمر . . . وهل كان هذا ضعفاً في أداء المخابرات الإسرائيلية ، أم أنه كان ثغرة لم ينتبه لها رجال الموساد ؟!

أجاب عادل إن الأمر لم يكن هذا أو ذاك . . . فمن ناحية كان هناك اطمئنان عند رجال الموساد بعدم وجود نشاط يذكر للمصريين في هامبورج ، إلا بعض النشاطات المحددة التي لا يمكن لأصحابها أن يتابعوا نشاط الإسرائيليين في هذه المدينة . . . كان الإسرائيليون - بالقطع - يظنون أن النشاط المصري في تلك المدينة ضعيف وغير مؤثر أو قادر على كشف تحركاتهم !

وكان هذا خطأ فادحاً وقع فيه الإسرائيليون خاصة بعد نكسة ١٩٦٧ ، ذلك أن المصريين عندما تجمعت لديهم المعلومات بأن الشركة والفتاة شيرلي هايمان ، لا غبار عليهما . . . كمنوا تماماً ، وركنوا إلى هدوء ظاهري ، وإذا كان لهذا الكمون أو الهدوء أساليب متعددة ، فلقد اتبع المصريون أبسط تلك الأساليب وأقلها تركيباً . . . واختفى من هامبورج ، بعد فترة بدت ملائمة تماماً ، عدد بسيط من الرجال الذين حامت حولهم الشبهات بأنهم يعملون لحساب المخابرات المصرية ، وهم في واقع الأمر لم يكن لهم أية علاقة ، لا من قريب أو من بعيد ، بالمخابرات المصرية .

هكذا ابتلع الإسرائيليون الطعم ، ووقعوا في خطأ كلفهم الكثير فيما بعد . . .

فلماذا ما تحدثنا عن السبب الذي من أجله كانت لويز جولدمان تلتقي فريدريك بيكر موزع المخدرات . فلقد كان بالقطع لدراسة شخصية نبيل دراسة كاملة وشاملة ، ومعرفة مواطن الضعف في شخصيته حتى تسهل السيطرة عليه . . . حقاً كان هذا ممكناً من خلال التقارير أو الدراسات التي وضعت حول شخصية نبيل . . . لكنه يبقى دائماً ، أن اللقاء المباشر ، خاصة إذا كان تحت مظلة مقنعة - كمظلة الإيحاء بإدمان المخدرات مثلاً !! - من الممكن ، بل من المؤكد ، أن يكون ذا فائدة عظيمة تختصر الوقت والجهد معاً ولقد يبدو غريباً لكل الغرابة ، أن الأمر لم يقتصر على هذا . . . فبرغم الدقة والبراعة التي تميز بها رجال الموساد في إنشاء الشركة واستجلاب لويز جولدمان . . . إلا أن الأخطاء - أثناء التنفيذ - أخذت تتوالى !

فلقد اختفى فجأة موزع المخدرات فريدريك بيكر !

اختفى الشاب فجأة من هامبورج ، ولأسابيع طالت أكثر مما ينبغي ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه علاقة لويز جولدمان بنبيل سالم . . . وعندما تساءل البعض - خاصة من زبائن فريدريك المدمنين أو أصدقائه المقربين - عن سر اختفائه ، وإن كان قد قبض عليه ، جاء الرد بالنفي القاطع . . . وقيل - ضمن ما قيل عن سر هذا الاختفاء - إنه سافر في رحلة سياحية إلى جنوب إيطاليا !

فلماذا اختفى فريدريك ؟! . . .

وما الذي واكب اختفاؤه من هامبورج من أحداث ؟!

وهل هناك علاقة بين اختفائه وبين تلك الصداقة التي ازدهرت فجأة بين شيرلي هايمان ونبيل سالم ، وقد كان ذلك الشاب الألماني ، صديقاً للإثنين معاً ؟!

وهكذا وجد الرجال أنفسهم يبحثون عن إجابات على تلك الأسئلة التي بدت في تلك الفترة ذات رائحة خاصة . . . فاكشفوا أثناء البحث مزيداً من الأمور الغامضة ، ووجدوا أنفسهم أمام مزيد من الأسئلة ، وإن كانت من نوع آخر !

وعلى سبيل المثال ... لوحظ أن نبيل سالم - بعد فترة وجيزة من التحاقه بالشركة استأجر خزانة بمحطة سكة حديد هامبورج ... ومن المعروف أن من يفعلون ذلك ، لا بد وأن يكون لديهم ما يحرسون عليه ... فإذا كان نبيل ما كان في تلك الأيام ، فما هو الشيء الهام الذي استأجر من أجله تلك الخزانة ؟! ... ولماذا كان ذهابه إليها يأتي بعد خروجه مع فوج من أفواج السائحين ؟!

كان هذا أيضاً سؤالاً مثيراً للدهشة ... لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ... فلقد أعقب السؤال سؤال آخر عن السبب الذي كان يدفع هذا الشاب المصري إلى تغيير الخزانة كل بضعة أسابيع ، بخزانة أخرى في نفس المحطة ، كي يفعل نفس الشيء !!؟

تلك أسئلة ظلت تطرح نفسها سؤالاً بعد الآخر دون أن تجد ، فيما هو ظاهر ، إجابات مقنعة عليها ... وفي مثل هذه الأحوال ، يصبح البحث عن إجابة أمراً ضرورياً ، بل واجب لا بد من القيام به ... خاصة وأن هذا الشاب المصري كانت له ظروف صعبة يعرفها كل المصريين وربما العرب الذين كانوا يقيمون في هامبورج !

هنا ... كان لا بد من تجميع الخيوط ، وكان طبعياً إذا ما تجمعت ، أن تتجمع معها سحب الشك في الشركة والفتنة ونبيل جميعاً ... و ... و ... و ... و ... فـلقد كانت هذه هي الخطوات الأولى التي كشفت عن ذلك المخطط الجهنمي الذي لم يكن يستهدف نبيل وحده بطبيعة الحال - وهذا ما نود هنا أن نسجله وأن نلح عليه وننبه له !! - بل أعقبته ، وربما واكبته ، عمليات أخرى اتسمت بقدر كبير من الخطورة ، وإن كان الوقت لم يحن بعد للكشف عنها !!

ثم كان يوم ...

كان هذا يوم من أيام خريف ١٩٦٧ ، ومصر تظللها سحابة من حزن وضياح بلا حدود ولقد وصلت في ذلك اليوم برفقة - أو الأغلب أنها رسالة - شفرية تحكي في كلمات موجزة ، عن التقاتل قام به رجل المخابرات الإسرائيلي « أبو سليم » ، لشاب مصري اسمه نبيل سالم !!!

جاءت هذه البرقية - أو الرسالة - وكأنها إجابة على كل سؤال ، ومفتاح لكل لغز ...

قال لي عادل مكي إن أبا سليم لم يكن مقيماً في هامبورج في ذلك الوقت ، بل كان مركز نشاطه في عاصمة أوروبية أخرى رفض أن يوح لي باسمها ... وإنه كان يذهب إلى هامبورج في زيارات خاطفة لا تستمر لأكثر من يوم أو يومين ينجز خلالها ما يريد إنجازه مع نبيل سالم أو غيره ، ثم يعود إلى مقره مرة أخرى دون أن يشعر مخلوق بأنه غادر المدينة أو حتى الدولة كلها ... وكانت هذه بالقطع براعة لا بد من الاعتراف بها ... ذلك أن أحداً لم ينتبه إلى تلك الزيارات ، وبالتالي ، فلن تواجهه في هامبورج كان بعيداً بالفعل عن الأذهان !

هكذا ... فإننا نستطيع أن نرجح أن المخابرات المصرية لم تكن تعرف شيئاً عن لقاءات نبيل بأبي سليم السابقة ... وقد يخامرنا الظن بأن المرة الأولى التي شوهدا معاً فيها ، هي مرة من تلك المرات التي كان نبيل يلتقي فيها بأبي سليم كي يأخذ منه حقية أوراقه الخاصة بالشركة ، بعد إيداع حقية المخدرات المزعومة في تلك الخزانة بمحطة سكة حديد هامبورج ... وإذا كانت البرقية الشفرية قد تحدثت عن « التقاتل » قام به ضابط مخابرات إسرائيلي لشاب مصري ، فإن هذا الأسلوب في اللقاء كان معروفاً بالنسبة لعدد كبير من أجهزة المخابرات ، خاصة المخابرات المصرية بعد أن اكتشفت واحداً من أخطر الجواسيس في القاهرة أثناء عملية التقاتل معاملة !

لم يكن أبو سليم - بعد أن يودع نبيل الحقية في الخزانة - يلتقي بهذا الشاب بأسلوب واحد بطبيعة الحال ، كان الأسلوب يتغير في كل مرة ... ولقد كانا - مثلاً - يلتقيان أحياناً في شقة نبيل الجديدة ، ومرة أخرى في واحد من تلك المحلات الهادئة الخافتة الإضاءة ... ومن أساليب اللقاء ، كان ذلك « الالتقاط » الذي تحدثت عنه البرقية ... فكان يكفي أن يغادر نبيل البيت في ساعة معينة وكأنه في طريقه لشراء شيء يحتاجه ، وقد يشتري بالفعل أي شيء ، ثم وعندما يطمئن تماماً إلى أن أحداً لا يتبعه - كان أبو سليم بالقطع قد

دربه على هذا - توقفت إلى جواره سيارة ما ، ذات علامة خاصة أو لون خاص أو رقم خاص ، وما كان عليه إلا أن يدلف إلى السيارة بسرعة وبشكل طبيعي تماماً ، كي تنطلق به إلى بعيد !

أغلب الظن أن علاقة نبيل بأبي سليم قد اكتشفت في إحدى تلك المرات ... وكان يكفي أن ترسل صورة أبو سليم ، أو حتى أوصافه ، حتى يتعرف عليه الرجال في الحال !

ومن المؤكد أن نبيل سالم في ذلك الوقت لم يكن يعرف شيئاً عن طبيعة عمل أبو سليم ، أو من يكون ، أكثر من أنه تاجر مخدرات داهية ... ولذلك ، فبعد بضعة أيام من وصول تلك البرقية إلى القاهرة ، هبط إلى هامبورج شاب مصري في مقتبل العمر ، وقيل وقتها إنه نقل إلى فرع من فروع شركة ملاحية مصرية أنشئ هناك لخدمة السفن المصرية التي كانت ترسو في ذلك الميناء الألماني الشهير والكبير ، وسرعان ما عُرف هذا الشاب وسط تجمعات المصريين والعرب في تلك المدينة ... وعندما التقى ذات مرة بنبيل سالم ، كان لقاؤهما حاراً ، وإذا كان نبيل يعمل في شركة سياحية ، فإن تلك الشركة المصرية كانت تبحث عن ركاب أو سائحين يستعملون سفنها ذات الأسعار الرخيصة ، إما في السفر ، أو في جولة سياحية تطوف فيها بركابها موانئ جنوب أوروبا أو إفريقيا حتى تصل في النهاية إلى الإسكندرية ، ثم تعود بهم على نفس الخط ، إلى هامبورج من جديد ... وهي رحلات اشتهرت كثيراً في الستينات ، وكان زبائنهم عادة من المحالين إلى المعاش أو من الشبان والشابات الصغيري السن الذين يرغبون في رحلة تمتد إلى شهور ... ولا يدفعون فيها كثيراً !!

ويبدو أن صداقة ما قد نمت بين هذين الشابين المصريين فلقد كانا يلتقيان دائماً ، ثم انقطعت علاقتهما فجأة عندما اتهم نبيل ذلك الشاب بأنه يريد أن يخرب عليه عمله !!

حدث هذا عندما راح ذلك الشاب الوافد على هامبورج - والذي لا أستبعد أن يكون عادل مكى أو واحداً من مساعديه - يبصر نبيل بخطورة التعامل مع

شركان غامضة الأهداف ، عارضاً عليه وظيفة في شركة الملاحة المصرية ... لكن جهود الشاب كللت بالفشل ، فلقد هتف به نبيل ذات مرة :

« بقي أنا هربان من مصر ، عاوز أنت تجيبها لي هامبورج ؟ ! » .

ولست أدري إن كانت هناك محاولات أخرى قد بذلت كي يتجنب مصيره ذلك التعس ... لكن المؤكد أنه رفض أية نصائح همس بها مخلصون في أذنه ، ورفض كل العروض التي قدمت له !!

وهكذا ، وبمحض اختياره ، سار نبيل في الشوط حتى نهايته ... وحتى وجد نفسه يجلس في إحدى الطائرات ، في طريقه من مدينة فرانكفورت في ألمانيا الغربية ، إلى مدينة « برن » السويسرية ! ... مطارداً من البوليس الألماني ، مستعملاً لجواز سفر مزور !

\* \* \*

كانت المضيئة تبدو أوروبية تماماً ... هي شقراء ، جميلة ، ذات جسد متناسق وعينين زرقاوين وحركة رشيقة شأنها شأن المضيفات في شركات الطيران العالمية ... وكانت أمامه طوال الوقت منذ أن غادرت الطائرة مطار فرانكفورت دون أن يبدو عليها أية علامة تنبئ أنها تعرفه ... حتى إذا أعلن في ميكروفون الطائرة ، عن قرب هبوطها في مطار برن ، وطلب من الركاب أن يربطوا الأحزمة ويكفوا عن التدخين ... مالت عليه تلك المضيئة الحسنة كي تساعد في ربط الحزام وإعادة المسند المقعد إلى وضعه الرأسي ، لكنها ، وبطريقة بدت لنبيل مذهلة لفرط بساطتها ، أسقطت في حجره ورقة صغيرة وهي تهمس بعربية ذات لكنة لبنانية :

« أبو سليم بيريدك تروح هادا العنوان أول ما تغادر الطائرة ! » .

كانت الليلة قد انقضت دون أن يذوق فيها نبيل للنوم طعماً ، وهو لم يكن يدري إلى أين هو ذاهب ، أو ما الذي سوف يحدث في الساعات القادمة ... انصرفت الفتاة فور إلقاء الرسالة إلى عملها في نشاط ، وامتدت يد نبيل إلى الورقة التي تحوي العنوان فقبض عليها ثم دسها في جيبه وهو يتذكر - بقليل من

القلق - إنه إذا كان سوف يدخل سويسرا ، فلا بد وأن يكون حاصلاً على تأشيرة دخول . . . فهل استطاع أبو سليم أن يحصل على هذه التأشيرة ، في ذلك الوقت من الليل ؟!

أخرج جواز سفره المزور وراح يقلب صفحاته التي امتلأت بتأشيرات لبلاد أوروبية عديدة ، ثم توقفت عيناه عند صفحتين متقابلتين ، كانت الأولى تحمل تأشيرة دخول إلى سويسرا ، والثانية وضع عليها خاتم القنصلية الإيطالية في هامبورج !!

إجتاحت الدهشة جوانح نبيل سالم فراح يقلب الأمر في ذهنه ، ثم تخلص من الحيرة عندما تذكر النقود التي أعطاها أبو سليم للشرطي الألماني ولا بد أن لهذا الرجل صلات غير عادية . . . ولقد حاول نبيل - قبل مغادرته الطائرة - وعند نهوض الركاب وزحفهم نحو الباب ، أن يرى أبو سليم أو يلمحه دون جدوى . . . وحتى عندما نفذ إلى صالة الوصول بالمطار ، لم يكن عدد الركاب كبيراً ، لذا . . . فلقد راح مرة أخرى يبحث عن أبي سليم دون أن يعثر له على أثر ، مما بعث بالقلق إلى نفسه ، لكنه لم يكن يملك سوى اتباع تلك التعليمات التي وصلته من مضيقة الطائرة . . . فما أن غادر المطار حتى ألقى بنفسه داخل أقرب سيارة أجرة صادفته ، أعطى للسائق العنوان محاولاً الحديث معه بالألمانية تارة وبالإنجليزية تارة أخرى . . . حملته السيارة إلى المدينة مخترقة شوارعها حتى أوصلته إلى بيت صغير يقوم في شارع شديد الهدوء . . . غادر التاكسي حاملاً حقيبتة الصغيرة ناظراً في العنوان المكتوب في الورقة ، رافعاً رأسه نحو رقم البيت ، وما أن همَّ بالاقتراب من باب البيت حتى سمع من خلفه صوتاً يناديه :

« تعالى يا نبيل ! » .

التفت نبيل وفرغ ، كان التاكسي قد مضى إلى حال سبيله وسيارة أخرى تقف الآن في مكانه وكأنها جاءت سابحة في الهواء بلا صوت . . . داخل السيارة كان أبو سليم يقبع في المقعد الخلفي فدلف نبيل إلى جواره ، وانطلقت السيارة بهما فوراً .

« إحنا رايعين فين يا أبو سليم ؟ » .

هكذا سأل نبيل فغمغم الرجل في لا مبالاة :

« دلوقت تعرف ! » .

وعاد الصمت من جديد !

كان من الواضح أن السيارة تخترق المدينة في طريقها إلى الطريق السريع . . . ولقد كان نبيل في تلك الساعات ، ورغم الإجهاد والتعب وقلة النوم ، يلوك في ذهنه أسئلة راحت تتفجر واحدة بعد الأخرى . . . وبصرف النظر عن ذلك السؤال الملح عن كيفية حصول أبو سليم على تأشيرتي الدخول إلى سويسرا وإيطاليا بمثل تلك السرعة التي تم بها الأمر . وفي مثل ذلك الوقت الذي يستحيل فيه الحصول على التأشيرة من القنصلية . . . بصرف النظر عن هذا السؤال الكبير ، فلقد راح يتساءل ، وقد رأى تأشيرة الدخول إلى إيطاليا ، وأدرك أنهم في طريقهم إلى الحدود السويسرية الإيطالية ، فلماذا لم يركبا الطائرة من فرانكفورت إلى إيطاليا مباشرة ؟!

فيما بعد فسر له أبو سليم تلك النقطة بالذات بأنها زيادة في الحيلة . . . وإذا كان ذلك الشرطي الألماني قد أدخل سبيله على أن يذهب إليه في صباح اليوم التالي ، فإنه أمام القانون لم يكن يملك شيئاً ، وكان لا بد من إحالة الأمر إلى القضاء ، ولما كان أبو سليم غير مستعد للتضحية بصديقه لخمس وعشرين عاماً قادمة يقضيها نبيل في السجون ، فلقد كان لا بد من تهريبه . . . ولكن من يدريه أن هر براون لم يرسل خلفه من يتتبع خطاه ويراقب بيته . . . ولذلك ، كان لا بد لمسار الرحلة أن يتنوع حتى يضمن أبو سليم تماماً ، أن أحداً لا يتبعهما !!

هكذا فسر أبو سليم الأمر فيما بعد لنبيل ، لكنه بالقطع لم يذكر له السبب الحقيقي وراء سفرهما ، وليومين متتاليين ، قرابة ألف ميل بوسائل مواصلات مختلفة ودون توقف أو راحة أو نوم .

وقف عقل نبيل عن الحركة عندما حملتهما السيارة من برن إلى جنيف ،

ومن جنيف إلى الجنوب حيث عبر الحدود السويسرية الإيطالية ، ثم انحدرنا إلى « ميلانو » عاصمة الشمال الإيطالي ، وفيها تناولنا وجبة سريعة ركبا بعدها القطار إلى روما ، وفي روما استقلنا سيارة إلى نابولي حيث كانت نهاية المطاف !!

... ..  
... ..

قال نبيل فيما بعد ، إنه ما تمنى شيئاً في حياته بنفس القوة والحرارة التي تمنى بهما في ذلك اليوم أن يغفو عيناه للحظات ، سواء في الطائرة ، أو السيارة ، أو القطار ... رافقه أبو سليم في بعض من الطريق ، وانفصل عنه في البعض الآخر ... وصلت السيارة إلى نابولي بعد منتصف الليل ، كان الإجهاد قد أخذ منه الآن كل مأخذ فبدأ له الأمر كله وكأنه حلم أو كابوس ظل يضغط عليه لحظة بعد أخرى ... وكان مما ضاعف توتره طوال تلك الرحلة المضنية ، أن أبا سليم راح يتعامل معه بجفاء شديد ... وكان الصمت هو اللغة الغالبة بينهما حتى صاح نبيل ذات لحظة :

« يا أبو سليم أنا حاتجن ، كلمني ، اشتمني ، اعمل أي حاجة بس بلاش الأسلوب ده ! » .

كان نبيل ينزلق ، في كل لحظة ، إلى حالة رهبة من الإنهيار كان مطلوباً أن يصل إليها ... وفي أحد شوارع نابولي الجانبية ، في حي من أحيائها المتوسطة ، توقفت السيارة أمام بيت مكون من طابقين ... بدا البيت في ظلام الليل كالشبح الرابض في انتظار فريسة ... بجوار باب الحديقة من الداخل كان ثمة كشك خشبي يجلس بداخله عملاق طمست ظلال الضوء الخافت في الكشك ملامح وجهه ، وإن بدا جسده - على البعد - كالطود الهائل يكاد يشغل فراغ الكشك كله ... التفت نبيل نحو أبو سليم الذي قال :

« شايف الراجل اللي في الكشك ده ؟ ! » .

« أيوه ! » .

« قول له إنك عاوز تشوف سنيور جيوفاني ! » .

قال أبو سليم هذا فأحس نبيل بالحيرة :

« وبعدين ؟ ! » .

« ولا قبلين ... هو حايقول لك على كل حاجة ! » .

« ومين سنيور جيوفاني ده ؟ ! » .

أطلقت عينا أبو سليم نظرة صاروخية بعثت بالرعب إلى قلب الشاب الذي كاد يسقط في مكانه من فرط الإعياء والقلق معاً ، من بين أسنانه قال الرجل :

« من غير أسئلة ... اللي أقول لك عليه عمله ، ولا تنساش إن جوازات السفر اللي معاك مزورة ، وإنك ضيعت على المنظمة كذا مليون ليرة لمجرد إنك ما سمعتش الكلام ولا نفذتش التعليمات ! » .

مضت لحظة صمت قذفه بعدها أبو سليم بكلمة كالحجر :

« اتفضل !! » .

ووجد نبيل نفسه يغادر السيارة حاملاً حقيته دون كلمة ... خطا نحو باب الحديقة خطوتين ثم عَنَ لهُ ، من فرط الرعب ، أن يسأل أبا سليم متى سيراه مرة أخرى ، غير أنه ما أن استدار نحو السيارة حتى رآها وهي تنطلق بسرعة مبتعدة عنه ... ووجد نبيل نفسه يقف في مدينة لم تطأها قدمه من قبل ، ولا يعرف فيها أحداً ولا يملك من عملتها فلساً ... وكان جائعاً ، والليل قد انتصف منذ ساعة أو يزيد قليلاً !

... ..  
... ..

تقدم من العملاق الجالس في الكشك ودق بأصبعه على الزجاج النافذة على الطريق ، فالتفت هذا إليه ، ورفع نبيل يده بتحية لم يردها الرجل ، مال على النافذة وكان لا بد له أن يصيح حتى يصل الصوت عبر الزجاج إلى الرجل ، فسأل عن سنيور جيوفاني ... كشر الرجل عن أنيابه وقال كلاماً لم يسمعه نبيل ، لكن ما لبث أن فتح النافذة مزجراً :

« ماذا تريد في مثل هذه الساعة بحق الشيطان ؟ ! » .



قالها الرجل بالإيطالية فلم يفهم نبيل شيئاً لكنه عاد فسأل عن سنيور جيوفاني بالإنجليزية . . . تهللت أسارير العملاق وهو يهتف متسائلاً :

« سنيور نبيل !؟ »

« سي . . . سي ! »

وهكذا أغلق العملاق النافذة ورفع سماعة تليفون كان إلى جواره وتحدث ببضع كلمات أعاد بعدها السماعة ، وفتح النافذة وهو يطلب من نبيل الدخول !

تحرك نبيل نحو باب الحديقة المغلق ، لكنه ما أن اقترب منه حتى فتح الباب فأدرك أن ثمة زراً كهريئاً يتحكم فيه داخل الكشك . . . لم تكن حديقة البيت كبيرة أو واسعة وهي أيضاً لم تكن مضاعة . . . ففيما عدا مصباح صغير خافت كان معلقاً عند باب البيت ، لم يكن هناك ضوء على الإطلاق فكان الظلام دامساً والسماء ملبدة بغيوم الخريف الكثيفة . . . وكان الطريق المؤدي إلى البيت عبر الحديقة مرصوفاً بحجر ذا ألوان طمسها الظلام . . . قبل أن يصل إلى نهاية الممر يبضع خطوات فتح باب البيت ونفذ منه عملاق آخر يرتدي ملابس السهرة ، وقبل أن يفتح نبيل فمه بالسلام أو السؤال أشار له العملاق إلى الباب المفتوح فدلف هذا منه كي يجد نفسه في بهو متوسط الإتساع لكنه يحمل كل عراقة العمارة الإيطالية . . . في الصدر ، إلى اليسار قليلاً ، سلم عريض يؤدي إلى الطابق العلوي . . . على يمين الداخل رأى نبيل باباً مفتوحاً نفذ منه العملاق طالباً منه أن يتبعه . . . قادهم الباب إلى سلم ينحدر إلى أسفل ، في نهاية السلم كان ثمة باب حديدي يؤدي إلى قبو مليء ببيراميل النبيذ وزجاجاته . . . زكمت رائحة القبو أنف نبيل لكنه تبع الرجل دون كلمة وكأنه مشدود إليه بقوة قاهرة . . . في نهاية القبو نفذ العملاق من باب انحنى حتى يستطيع المرور منه فتبعه نبيل ، ما أن نفذ من الباب حتى وجد نفسه في بهو متوسط الإتساع يكاد أن يكون خالياً تماماً من الأثاث . . . على جنبات البهو كانت هناك أبواب مغلقة ، في الصدر لاحظ نبيل باباً مفتوحاً لإحدى الغرف . . . أشار العملاق إلى ذلك الباب طالباً من نبيل الدخول . . . تقدم نبيل نحو الباب وهو يظن أنه سوف يلتقي في تلك الغرفة بالسنيور جيوفاني ،

لكنه ما كاد يخطو فيها خطوة واحدة حتى تسمر في مكانه وكأنما أصابته صاعقة . . . كانت الغرفة شديدة الضيق مرتفعة السقف ملساء الحيطان عارية الأرض . . . على ارتفاع ما يقرب من ثلاثة أمتار كان ثمة نافذة تتخللها قضبان حديدية . . . ارتد إلى الوراء ملتفتاً نحو العملاق فواجهته لكمة هائلة أطاحت به عبر الغرفة إلى الجدار المقابل للباب . . . ارتطم جسد نبيل بالجدار ، وقبل أن يتنبه أو يفيق مما حدث . . . كان الباب قد أغلق عليه ، وصنع صوت المزلاج في الخارج ، دويماً كان له في صدره صدى الموت نفسه !

• • •



## الفصل الرابع عشر

### البقاء للزكّاء !

اختفى نبيل سالم فجأة من مدينة هامبورج . . . وعثاََ حاول المصريون أن يعثروا له على أثر ، أو أن يعرفوا مصيره . . . وعندما ذهب بعض أصدقائه للسؤال عنه في شركة السياحة التي كان يعمل بها كان منهم مصريين كما كان من بين الذين سألوا عنه ، شاب ألماني صارم التقاطيع اسمه هانز ، وقال هانز هذا إن نبيل سالم مدين له ببعض المال !! - استقبلتهم شيرلي هايمان بفتور قائلة في اقتضاب : « إن هر سالم قدم استقالته ورحل دون أن يترك عنوانه قبل الرحيل ! » .

وعندما ذهب بعضهم إلى مسكنه لم يكن حظهم أحسن حالاً . . . فلقد كان المسكن لا يزال باسمه . . . وقالت مديرة البيت : إنه كان موجوداً حتى ثلاث ليال مضت وكان معه بعض الأصدقاء ، لكنهم غادروه قبل منتصف الليل . . . ثم غادر هو البيت بعد ذلك ، ولقد ظنت أنه خرج لأمر ما كعادته ، وإنه لا بد سيعود قبل الصباح ، لكنه لم يعد . . . وعندما همّ الصديق بالإنصراف ، لاحقته السيدة قائلة :

« عليك أن تنذر صديقك بأنه إن لم يعد خلال أربعة أيام ، فلسوف أؤجر المسكن لشخص آخر ! » .

وهكذا أدرك المصريون ، أن الأمر لا يحتمل سوى شيء من اثنين :

إما أن نبيل طوال الفترة الماضية ، كان يُعَدُّ للقيام بدورٍ ما في مكان آخر ، وهو الاحتمال الذي كان غالباً . . . وإما أن مكروهاً قد وقع له فاختفى دون أن يترك أثراً وراءه !!

وفي حقيقة الأمر ، فلقد كان هذا الاحتمال الأخير واهياً تماماً ، بل لا يكاد يستند إلى دليل أو حتى فكرة منطقية . . . ذلك أنه من غير المعقول أن تتم مثل تلك السيطرة على شخصية مثل شخصية نبيل ، ويُبدل معه كل هذا الجهد ، وعلى مدى شهور طالت ، ثم يتم بعد ذلك التخلص منه لأي خطأ مهما كان . . . ولذلك ، فلقد ساد الاحتمال الأول ، فكان لا بد من الاستعداد له ، بسرعة !!

وفي ظني - وهذا تقدير شخصي لا يستند إلى معلومات ! - أن عادل مكى نفسه طار إلى هامبورج عندما وصله خبر اختفاء نبيل المفاجيء . . . وإذا كان عادل قد استبعد أن يكون سبب اختفاء نبيل هو حدوث مكروه له . . . فلقد كان على هذا الضابط الشاب ، أن يباشر الأمر بنفسه ، وأن يعيش في الساحة التي تمت فيها كل تلك العمليات المُركَّبة والتي كان الآن يعرف بعضها ويتكهن بالبعض ويجهل البعض الآخر . . . خاصة ، وأن أبا سليم ، ولأسبوع انقضى منذ اختفاء نبيل ، كان قد اختفى هو الآخر ولم يعد يظهر في هامبورج . . . وعندما تجمعت كل المعلومات التي أمكن الحصول عليها ، وجد عادل نفسه أمام أمر واحد لا مفر منه . . . وهو مراقبة لوريز جولدمان - وكان الآن قد اكتشف من تكون تلك الفتاة الغامضة والخطرة - مراقبة دقيقة لا تجعلها تغيب لحظة عن عينيه ! . . . ذلك أنه - بحس المدرّب - شعر أن في الحركة القادمة لتلك الفتاة ، يكمن مفتاح السر الذي سوف يشير إلى مصير نبيل أو مكانه !

... ..

... ..

إذا كان هناك من يقول بأن البقاء للأصلح ، وهناك من يرد بأن البقاء للأقوى . . . فإن عادل مكى كان من الذين يؤمنون بأن كلا القولين كانا نتاجاً لفلسفات انقرضت ، وأن البقاء في العصر الحديث سيكون من نصيب الأكثر ذكاءً . . . ذلك أن تلك اللعبة الجهنمية التي كان يخوض غمارها منذ سنوات هي في الأصل لعبة « ذكاء » ، وعليه . . . فلقد كان لا بد له من أن يشحن كل أسلحة ذكائه وفطنته ، حتى لا يفلت نبيل من يديه ، وحتى لا ينتصر العدو !!

وهكذا . . . وفي غرفة بسيطة في مسكن بسيط لموظف صغير في فرع  
خامل من فروع إحدى الشركات المصرية القليلة في هامبورج ، جلس عادل  
مكي ذات ليلة كان البرد فيها قارساً ، مع ثلاثة من الشباب المصري . . . كان  
أولهم صاحب المسكن ، أما الثاني فكان رث الملابس يعمل ساقياً في حانة من  
حانات الميناء اشتهرت بروادها من العرب . . . وكان الثالث يبدو صغير السن  
أكثر مما ينبغي ، أنيق إلى حد الإفراط ، كان يبدو وكأنه ابن لأحد الأثرياء جاء  
يدرس في أحد معاهد تلك المدينة الشهيرة . . . وكان على عادل مكي الآن أن  
يضع معهم خطة محكمة لمراقبة كل خطوة وكل حركة لتلك الفتاة لويز  
جولدلمان . . . ولأن عادل كان في مرحلة من المراحل قد تعامل معها ، فلقد  
راح يشرح للثلاثة كل شيء عنها . . . وانخرط الجميع بعد ذلك في مناقشة  
الخطوات اللازمة لمراقبة تلك الفتاة التي كانت الوحيدة التي بقيت في المدينة  
بعد اختفاء أبطال اللعبة واحداً بعد الآخر : فريدريك أولاً ، ثم نبيل سالم وأبو  
سليم معاً !!

« غير انه لا بد لنا أن نطرح هنا حقيقة هامة . . . وهي أن عادل مكي ، في  
الأسابيع التي انقضت منذ شهود نبيل سالم مع أبي سليم ، كان قد عرف عن نبيل  
في مصر ، كل شيء منذ أن ولد وحتى سافر هرباً من فشله إلى حيث لم يكن يدري  
وإلى حيث ألقاه طموحه . . . ولقد قال لي ذات مرة إن كل العناصر التي تجمعت لديه  
في القاهرة ، كانت تبدو طبيعية ومنطقية ، فيما عدا عنصر واحد استوقفه . . . ذلك  
العنصر هو علاقة نبيل سالم بسامية فهمي ، وذلك الحب الغريب الذي كانت تكنه  
تلك الفتاة الملتهبة بالوطنية لذلك الشاب الذي لم يكن يعنيه شيء في الدنيا سوى  
الحصول على نجاح مزيف . . . وهو ، في أول الأمر ، لم يفاجأ بأن سامية على علاقة  
عاطفية مع نبيل سالم ، لم تدهشه العلاقة في البداية . . . لأن بعضاً من العملاء  
والجواسيس ، يبدون في حياتهم المرثية والمعلنة ، من أشد الناس حماساً للعمل  
الوطني ، ويصبح طبعياً أن تدفعهم حماسهم وعملهم الدائب ، إلى فروع عديده  
لنشاطات مختلفة ومناطق حساسة ، ويكون الغرض من كل هذا هو الحصول على  
المعلومات . . . ولذلك فلقد وضع سامية تحت بؤرة رقابية شديدة الصرامة . . . لكن  
الأيام أثبتت له شيئاً آخر غير ما ذهب إليه ظنه ، أثبتت له الأيام أن سامية عنصر

يختلف ، وأن حب الوطن يسري في عروقها مسرى الدم . . . وكان هذا - بالقطع -  
من دواعي سعادة غمرته !!

. . . . .  
. . . . .

بالرغم من أن لويز جولدلمان - أو شيرلي هايمان - عادت إلى حياتها  
الطبيعية - تلك الحياة التي كانت تحياها قبل أن تلتقي بنبيل سالم - دون أدنى  
قدر من التغيير ، إلا أن عادل مكي كان موقناً من أنها ستغادر ألمانيا بعد  
أسابيع ، وربما بعد أيام لن تطول !

كان تقديره للموقف الآن ، أن الخطوة الأولى في تجنيد نبيل سالم  
والسيطرة عليه قد تمت على أكمل وجه ، وأنه الآن انتقل إلى خطوة أخرى ،  
هي خطوة ممارسة ما كانوا يعدونه له . . . وإذا كان عادل مكي يستطيع أن يث  
عيونه في كل عواصم أوروبا حيث تجمعات المصريين في بعض من مدنها  
الشهيرة ، حتى يعثر على نبيل سالم . . . إلا أنه كان موقناً من أن الخطوة التالية  
للويز جولدلمان ، هي التي ستحدد بالضبط إن كان على صواب فيما ذهب إليه !  
ولقد قال في تلك الليلة القارسة البرد ، للشبان الثلاثة الذين اجتمع بهم ،  
إن أي خطأ مهما كان بسيطاً ، كفيل بأن يشير إلى وجود المصريين في  
هامبورج ، وهذا ما يجب أن يتجنبه كل منهم بأقصى ما يستطيع من حرص حتى  
لا يشتد الغموض كثافة ، ويصبح العثور على نبيل سالم كالعثور على إبرة  
ضاعت في كومة من القش !

طال بينهم الجدل حول بعض الخطوات ، حتى إذا أصبح كل شيء واضحاً  
ومحدد . . . سمعوا على باب البيت دقات معينة ، التفت بعدها صاحب البيت  
نحو عادل قائلاً :

« هانز وصل ! » .

وكان هانز هذا هو نفس هانز الذي ذهب إلى شركة السياحة للسؤال عن  
نبيل . . كان شاباً ألمانياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، وكان فناناً يرتاد

« لأن لويز جولدمان ساعة ما تحب تسبب البلد ، مش حاتسافر زي ما هي ... لازم تغير شكلها علشان يبقى صعب التصرف عليها ، وبالتالي ، معرفة البلد اللي هي راياها ! » .

وهكذا ... راحوا جميعاً يدرسون تلك الإمكانيات التي تصورها هانز لتتكرر لويز جولدمان ... وأخذوا يتبادلون اللوحات ويتنازلونها من واحد إلى آخر ، ويناقشون الأمر فيما بينهم وقد استغرقوا فيه تماماً !

\* \* \*

قبل أن ينقضي نهار اليوم التالي لتلك الليلة ، كانت هناك مفاجأة في انتظار عادل مكى ... فلقد ظهر مرة أخرى - فجأة - موزع المخدرات الألماني فريدريك بيكر ، عاد من أسبانيا - التي قيل إنه ذهب إليها في إجازة ، والغريب ، أن التحريات أثبتت أنه بالفعل كان في إحدى مدن أسبانيا الجنوبية ! - عاد متورداً الوجه أسمر البشرة مشرق مرح كعادته ... ولقد قال لي عادل مكى وهو يحكي لي عن تلك الفترة ، إنه كان قد استعد للعودة إلى القاهرة في اليوم التالي تاركاً الأمر للرجال هناك ... لكن ظهور - أو عودة - فريدريك بيكر الذي أثبتت التحليلات ثم التحريات وجود علاقة بينه وبين أبي سليم ، جعله يعدل عن السفر ليوم آخر أو يومين ، فلقد كان في عودة ذلك الشاب الألماني المبكرة ، إشارة صريحة إلى غفلة الإسرائيليين عن وجود المصريين هناك ، كانت عودته إشارة إلى إحساسهم بأنهم يقفون في الملعب وحدهم !!! - ولقد عاد فريدريك كي يمارس نشاطه بشكل طبيعي تماماً ... ومنذ اللحظة الأولى عدلت خطة المصريين ، فلقد كان لا بد لهم من حصاره هو الآخر ومتابعته لعلهم يعرفون منه شيئاً ... لكن فريدريك لم يسأل إطلاقاً عن نبيل سالم ولم يذكره - وكان هذا بالقطع مما يلفت النظر !! - وعندما قيل له ذات مساء في أحد تلك المواخير التي كان يرتادها بعد منتصف الليل إن نبيل قد اختفى فجأة ، هز كتفيه ومطّ شفتيه ولم يبد عليه أي نوع من أنواع الاهتمام وكأنه لم يعرفه ولم يلتق به يوماً ... ليس هذا فقط ، فلقد راحت أخطاء الإسرائيليين تتوالى نتيجة ذلك الإحساس الواثق بعدم وجود المصريين ...

الحانات ويتخذ من بعض روادها نماذج للوحات ، وكان بالفعل قد التقى نبيل في إحدى تلك الحانات وصادقه ثم فترت العلاقة بينهما بعد ذلك ، وقال نبيل يومها معللاً الأمر : إن أشد ما يعيب هانز أنه « ألماني جداً » ، إلا أنه صارم في معاملاته مع الناس ، منضبط كالساعة ، صلب الرأي ... لكن أكثر عيوبه بالنسبة لنبيل ، أن التعامل معه صعباً ، فهو لا يتقن غير الألمانية ، ولا يعرف كلمة واحدة من أية لغة أخرى غيرها !!

لكن الشيء الغريب الذي حدث في تلك الليلة ، أن هانز - منذ أن دخل المسكن - راح يتحدث بالعربية بلهجة مصرية وكأنه تربى في شوارع القاهرة وحواريها ... وعلى كل ، فلقد كان عادل مكى قد عهد إلى هانز بمهمة جاء هذا كي يعرض عليه نتائجها !

« إيه الأخبار يا أخ هانز ؟ ! » .

هكذا سأل عادل فرداً على الفور :

« أنا جاهز ! » .

« طب نتفرج !! » .

فتح هانز دوسيه كبيراً من تلك التي يستعملها الفنانون وأخرج منه ست لوحات لفتاة واحدة !! ... كانت اللوحات الست التي رسمها هانز للويز جولدمان أو شيرلي هايمان ... غير أن كل لوحة كانت تمثل شخصية قائمة بذاتها ... مع اللوحات تساقطت صور عديدة لشيرلي هايمان في أوضاع مختلفة وهي ترتدي نظارتها الطبية وتعقص شعرها إلى الخلف ، فهكذا كانت منذ ظهرت في هامبورج ... لكن اللوحات الست كانت مختلفة ... فواحدة منها كانت لشيرلي هايمان وهي ترتدي نظارة شمسية وجونلة شديدة القصر - ميكرجوب - وجاكت سميك ذا ياقة من الفراء ... وكانت اللوحة الثانية لفتاة سمراء الشعر لها مواصفات مختلفة ... و ... والثالثة ... والرابعة ... و ... وكان هذا هو التصور الذي وضعه الفنان الألماني هانز لشيرلي هايمان إذا ما أرادت التتكر ... ولقد ألقى عادل مكى نظرة فاحصة على تلك اللوحات ثم قال للشبان الثلاثة إن عليهم أن يدرسوا تلك اللوحات بعناية شديدة ...

ذلك أن لويز جولدمان ، وقد كانت تلتقي بذلك الشاب الألماني تلك اللقاءات السرية الشبه منتظمة ، ثم انقطعت عن لقائه بعد التحاق نبيل سالم بشركة السياحة ، لم تفكر ، ولم يحدث أن التقت بفريدريك بعد عودته ولا مرة . . . بل ، وعندما تصادف أن التقيا ذات مرة في أحد المطاعم ، تجاهل كل منهما الآخر وكأنه لا يعرفه !

بعث كل هذا بالأمل إلى نفس عادل مكى ، فلم يكن له معنى سوى أن الإسرائيليين كانوا موقنين أن المصريين لا يعرفون شيئا ، بل يكاد يعني ، أنهم كانوا موقنين أن المصريين ليس لهم أي نشاط يعتد به في هامبورج . . . وهذا ما كان عادل مكى يريده بالضبط ! ، فلقد جعل الأمر أكثر سهولة بالنسبة إليه !

ولقد حدث ما توقعه تماماً فما أن مضى أسبوع وبضعة أيام ، حتى شوهدت لويز جولدمان وهي تغادر مسكنها ذات مساء إلى المطار . . . كانت في تلك الليلة تبدو وكأنها فتاة أخرى تماماً ، تغير كل شيء فيها ، لم يكن هناك مكياج أو باروكة وضعتها فوق رأسها ولا شيء من هذا القبيل ، بل فقط . . . خلعت نظارتها الطبية وغيرت تصفيف شعرها وارتدت بنطلون جينز فوقه جاكيت جلدي سميك ، فبدت أصغر من سنها بعشر سنوات على الأقل !

ولقد قال ذلك الشاب - وهو واحد من الثلاثة الذين اجتمع بهم عادل مكى - الذي تبعها في تلك الليلة حتى رآها بعينه وهي تدخل إلى طائرة شركة العال ، الإسرائيلية المتجهة إلى إسرائيل ، قال ضاحكاً فيما بعد : إن الهيئة التي خرجت عليه بها لويز جولدمان ، لم تكن تشبه أية صورة من تلك اللوحات الست التي تخيلها الفنان الألماني هانز . . . لكنه اعترف بعد قليل من المداعبة ، إنها بدت له في لحظة ، وكأنها أخذت من كل صورة من تلك التي رسمها هانز شيئاً ما ، ثم كونت من اللوحات الست شخصية أخرى لتصبح لتلك الفتاة التي رآها تغادر بيتها إلى المطار في بساطة من لا يخشى مراقبة على الإطلاق !

وهكذا ، تيقن عادل مكى أن الإسرائيليين غافلون عنه تماماً ، وأن عليه أن يخطو خطوته التالية باطمئنان أكثر !

كان معنى سفر لويز جولدمان إلى إسرائيل أنها لن تلتقي بنبيل سالم بعد ذلك على الإطلاق ، فلقد أدت مهمتها على أكمل وجه ووجب أن يفترقا إلى الأبد . . . هذا هو القانون وهذا هو العرف وهذا هو التصرف الصحيح ، ثم ، إن هذا هو أسلوب المخابرات الإسرائيلية الذي بدا له عتيقاً غير متطور . . . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن عودة لويز إلى إسرائيل تعني عودتها إلى القاعدة كي تستعد لجولة جديدة مع ضحية جديدة أو عملية جديدة ، تماماً مثلما حدث بعد وجودها في فرنسا وفي إيطاليا وقبل أن تظهر في هامبورج بألمانيا الغربية . . . وكان معنى هذا أيضاً ، أن نبيل سالم قد انتقل الآن إلى مدينة من تلك المدن التي يستطيع أن يمارس فيها نشاطه - كان عادل مكى قد وضع عيونه في مطار القاهرة الدولي خشية أن يكون نبيل قد عاد إلى مصر ، لكن متابعته للأمر نفت تماماً عودته ! - وكانت تلك المدن بالقطع ، هي التي يكثر تجمع العرب فيها ، خاصة المصريين . . . وكانت هذه المدن معروفة في أوروبا تماماً . . . أشهرها بعد هامبورج كانت نابولي وجنوا في إيطاليا ، وأثينا وبيرييه في اليونان . . . بل إن تقديره للموقف ، جعله يضع احتمالين لا ثالث لهما ، ولذلك ، فلقد راح يُحكّم البحث في نابولي وأثينا بالتحديد !

« كان عادل مكى في تلك السنوات ، واحداً من المصريين الذين ترددوا أكثر من مرة على أثينا عاصمة اليونان بالذات ، لكنه وحتى لا يشطح الخيال ببعض من تستهويهم الإستنتاجات - لم يكن ذلك الذي انتحل اسم « الرئيس زكريا » في المسلسل التلفزيوني « دموع في عيون وقعة » الذي اشتهر في العالم العربي باسم بطله « جمعة الشوان » !! .

وهكذا عاد عادل مكى إلى القاهرة كي يبدأ خطوته التالية ، وهي البحث عن الشاب المصري نبيل سالم ، الذي كان يتوقع ظهوره في نابولي أو أثينا ، كي يلعب دوراً لم يكن قد اتضحت له أبعاده بعد !!

• • •

في تلك الأيام كان نبيل سالم - ومنذ وصوله إلى نابولي - يحيا حياة لا علاقة لها بالواقع الذي عرفه من قبل . . . ضغطت عليه تلك المعاملة التي عومل بها



ضغطاً جعله يظن أنه يعيش كابوساً راح يتلهف كي يصحو منه ، كان يقضي يومه كله جالساً في تلك الغرفة العارية الأرض والجدران ، والتي ألقى فيها ... في انتظار أن يفتح عليه الباب مرة ، أية مرة !

لم يكن هناك من يحدثه أو يتحدث إليه ، لم يكن هناك من يلقي عليه تحية الصباح أو المساء ، لم يكن يعرف أين هو أو ماذا سوف يصنعون به ... في صباح اليوم التالي لوصوله ، فتح باب الغرفة - أو الزنزانة كما أطلق هو نفسه عليها فيما بعد - عن عملاق شرس التقاطيع صخري الوجه ، ألقى بطبق فيه كسرة من خبز وقطعة من جبن على الأرض ، ثم وضع بجوارها إناء امتلأ نصفه بالمياه ... أعلن نبيل عن رغبته في الذهاب إلى الحمام فصحبه الرجل - دون كلمة - إلى حمام صغير في صدر المكان بلا باب !! وظل واقفاً أمامه جامداً حتى إذا انتهى صَحبته مرة أخرى إلى غرفته وأغلق الباب من جديد !

في المساء ظهر عملاق آخر كي يصنع نفس الشيء ، كسرة خبز وقطعة جبن وقليل من الماء !!

ولسته أيام متصلة لم يسمع نبيل سالم كلمة واحدة من حراسه رغم كل محاولاته وتوسلاته ... حتى إذا كان الصباح السابع ، كان الغضب والهلع قد أخذ منه كل مأخذ وهو عائد من الحمام ، فما أن وصل إلى باب الغرفة حتى استدار نحو حارسه وهو يصرخ كمن فقد عقله : إنه يريد أن يرى أبو سليم أو ذلك السنيور جيوفاني ، وما شعر بعدها إلا بلكمة رهيبية ترتطم بفكه وتدفع جسده عبر الغرفة في عنف كي يرتطم بالحائط ويسقط فوق الأرض ... وقبل أن يفيق أو ينتبه لما حدث ، كان الباب قد أغلق من جديد ، وصنع صوت المزلاج دويّاً بعث الرعب في نفسه أكثر !

غير أن الشيء المؤكد ، أن تلك العزلة قد دفعت نبيل سالم طوال ذلك الأسبوع العصب إلى التفكير ... ولقد أدرك بوضوح ، ومنذ البداية ، إنه إن قُدِّر له أن يخرج من محبسه هذا حياً ، فإن عليه الإمتثال لكل أمر يصدر له من أبي سليم ... لكن الغريب في الأمر ، أنه قال فيما بعد وهو يحكي قصة تلك الأيام بالتفصيل ، إنه كان يشعر حقاً بالضيق ، بالخوف ، بالرعب ،

بالضيق ... لكنه أيضاً كان يشعر - رغماً عنه ولدهشته البالغة - بسعادة خفية تغمره !!

وكان سر تلك السعادة الدفينة والخفية التي أدهشته ، أنه أدرك أنه يعمل مع منظمة قوية بحق ، منظمة لها فروع في دول شتى ، كما أن لها رجالاً في كل مكان ، وطقوس لا بد من اتباعها ، منظمة تستطيع في بساطة أن ترشو ضابط شرطة ألماني ، وأن تهرب مطلوباً للعدالة ، وأن تجهز له جواز سفر في ساعات جد قليلة ، وأن تحمله إلى بعيد ... أدرك نبيل سالم أن هذه المنظمة لو أنها أرادت التخلص منه أو قتله ، لما تجشمت عناء نقله إلى دولة أخرى ، بل تخلصت منه في هامبورج ببساطة شديدة ... وكان المعنى الوحيد لتفريجه أن هناك أمل في معاودة التعاون معه ، وأنها ترى فيه عنصراً صالحاً بالرغم من أنه أضعاف بحماقته ، مخدرات بمئات الألوف من الجنيهات ... فمن تكون تلك المنظمة الخرافية القوة والقدرات سوى المافيا !!؟

هكذا كان نبيل سالم يفكر ، وهكذا استراح لما وصل إليه ، فقبع في غرفته تلك العارية الأرض والجدران القارسة البرد ينتظر الخطوة التالية ، أصبح موقناً أنهم أبقوا عليه لأنهم يحتاجون إليه ، أو لأن أبا سليم قد شفع له عندهم !!

قال نبيل سالم يصف حالته أثناء وجوده في تلك الغرفة في قبو ذلك القصر الذي دخله في نابولي ذات ليلة ... إنه راح يفكر ، ويسترجع الأحداث ، ويقارن ويحلل ويبحث عن معنى لكل ما مرَّ به ... وكان يصل إلى نتائج أثبتت له الأيام أنها خاطئة ، لأنه ، فقط ، كان يسير في الاتجاه الآخر !!

... ..  
... ..

في صبيحة اليوم التاسع ، فتح الباب وظهر فيه أبو سليم !

انتفض نبيل لرؤية الرجل الذي كان يمثل بالنسبة إليه طوق نجاته الوحيد مما هو فيه ، وظل أبو سليم في مكانه جامداً وهو ينظر إلى نبيل والشرر يتكاثر من عينيه ، كان واضحاً أن الغضب قد استبد به استبداداً لا يدع للحلم طريقاً

إليه . . . وبالرغم من أن نبيل كان قد وطّد نفسه على تقبل كل شيء ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع الخوف من أن يجتاحه اجتياحاً . . . بعد ثوانٍ من الصمت نهض واقفاً لاستقبال الرجل الذي نظر خلفه نظرة سريعة فإذا الحارس يدلف إلى الغرفة كي يضع بجوار الباب مقعداً من الخشب . . . وضع الحارس المقعد ثم انصرف وأغلق الباب وارتفع صوت المزلاج حاداً فكانه صوت مقصلة تهوي فوق عنق نبيل الذي استشعر خطراً لم يتوقعه ، فقال بصوت متوسل :

« شوف يا أبو سليم ، أنا غلطت ومستعد أدفع ثمن غلطتي ! » .

قال أبو سليم وهو يخطو كي يجلس فوق المقعد متحفظاً :

« مستعد تدفع ربع مليون مارك يا نبيل !؟ » .

« مستعد لأي حاجة تقولها ! » .

« أي حاجة !؟ » .

« أنا بصراحة يا أبو سليم ماكتش فاهم ! » .

« ودلوقت !؟ » .

« فهمت » .

« فهمت إيه !؟ » .

ارتبك نبيل ، ابتلع لعابه ، أرتج عليه ، تلعثم وهو يقول :

« ال . . ال . . . المنتظمة يعني !؟ » .

من بين أسنانه راح أبو سليم يقول :

« إنت عارف أنا تعبت قد إيه علشان أقنعمهم بيك !؟ » .

« غلطة ومش حاتكرر ثاني !؟ » .

« قعدت تتحايل على فريدريك ، وتقول له إنك عاوز تعيش ! » .

« غلطة . . . صدقني إنها غلطة ! » .

« والفلوس !؟ » .

« حاعمل كل حاجة وأي حاجة علشان أسددها ! » .

« ولو ما سددهاش !؟ » .

« أعمل في اللي يرضيك ! » .

« ما هو إنت لو ما سددهاش ، أنا اللي لازم أسددها ! » .

« يا أبو سليم . . . . . » .

ما كاد نبيل يهتف باسم الرجل حتى نهض هذا من مكانه مزمجرأ وقد احتدمت ملامحه بغضب هائل :

« أنا اللي لازم أدفعهم يا نبيل وإلا إحنا الإثنين حانروح سوا في مشوار لحد الآخرة ! » .

« طب عاوزني أعمل إيه !؟ » .

قال نبيل هذا وهو يلتصق بالحائط متراجعاً أمام تقدم الرجل الذي كان يتنوي شراً :

« عاوزك تدفع لي ربع مليون مارك ألماني ثمن الشحنة اللي ضيعتها علشان حنة بنت لا راحت ولا جت !؟ » .

« يا أبو سليم . . . . . » .

ولم يكمل نبيل جملة ، فلقد صعقته قذيفة رهية من قبضة فولاذية أدارت رأسه . . وفيما بين اليقظة والإغماء استولت الدهشة على نبيل وسؤال يتصارخ في رأسه ، من أين لأبي سليم بمثل هذه القوة الرهية . . . دارت رأسه وتهادى جسده فراح يقاوم السقوط بالإستناد إلى الحائط ، فعاجلته لكمة أخرى في بطنه أورثته سقماً انتشرت آلامه في صدره كاسياخ من نار !

« حاتجيب الربع مليون مارك منين !؟ » .

أراد نبيل أن يقول شيئاً لكنه لم يستطع ، كان يتلوى دائر الرأس مُضَيِّع الحواس . . . من بعيد جاءه صوت الرجل يتساءل في غل :

« إيه اللي ما خلاش تحط الشنطة في الخزينة !؟ » .

أراد أن يقول إن شيرلي هايمان حاصرته ولم يرد أن يكشف لها أمره فطاوعها مرغماً ، وجاءه على الفور صوت أبي سليم وكأنه استمع إلى خواطره :



« وخضعت لها ليه ؟! » .

هز رأسه نفيًا ، أراد أن يقول إن الأمر لم يكن خضوعاً فجاءه الصراخ هامساً :

« وليه تخضع لها من الأساس ؟! » .

هوت صفعه على صدغه كادت تخلع رأسه وانثقت الدماء من فمه فانتشرت رائحتها في خياشيمه فأراد أن يتوسل لكن أبو سليم عاد إلى الزمجرة :

« ومن امتى شيرلي هايمان بتروح معاك البيت ؟! » .

فتح فمه ورغبة رهيبه في التقيؤ تتابته لكن الصراخ عاد :

« ولما انت بتأخذها معاك البيت ليه ماقتلش ؟! » .

لم تطاوعه معدته فاعتصر المخص أمعاءه وسقط على ركبتيه وهو يتلوى !!

« طبعاً كل حاجة لازم أعرفها ، كل كبيرة وصغيرة ، كل تصرف وكل بني آدم بتشوفه وكل كلمة بتقولها وأي كلمة بتسمعها من ساعة ما تصحى لحد ما تنام ! » .

أخيراً وجد صوته ... قال :

« حاضر ... حاضر !! » .

وكانت كلمة « حاضر » هذه ، هي أول ما فاه به نبيل ، فعاد أبو سليم إلى مقعده !!

\* \* \*

## الفصل الخامس عشر

### القيء الأخير !

لا بد لنا هنا ، من إلقاء نظرة ولو سريعة ، نستكشف بها كيف كان يفكر ضابط المخابرات الإسرائيلي ، الذي أطلق على نفسه اسم أبو سليم ، وبالتالي كيف كان يفكر جهاز المخابرات الإسرائيلي ... حتى تستقيم الأمور ، وتتضح الخيوط ، كل الخيوط ، أمام من يريد أن يعرف كيف كانت العقلية الإسرائيلية تفكر وتحرك في تلك الحقبة الخطيرة والمشحونة ، التي أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وكيف كان الغرور الإسرائيلي وذلك الصلف الذي تسلموا به ، سلاحاً استعمله الرجال ، وحاربوا به مع أسلحة كثيرة كلفتهم من الجهد والعرق الكثير !!

وإذا كان هذا النوع من النشاط الإنساني له قوانينه وقواعده التي لا تختلف في أصولها وجذورها من دولة إلى دولة ، أو من جهاز إلى آخر ... إنما يأتي الاختلاف في التفاصيل التي تخضع - مع الظروف الموضوعية المحيطة بكل حالة - للتقدير الشخصي لضابط هذه الحالة ... وقد لا يكون الاختلاف من جهاز إلى جهاز آخر فقط ، بل ربما كان بين ضابط وآخر في الجهاز الواحد ... إن التصرف هنا - أو كما يطلقون عليه التكنيك - هو أقرب إلى بصمة الفنان منه إلى أي شيء آخر !

ولقد يخرج الباحث من هذه القضية - أو الحالة - بأن نظرة أبي سليم إلى نبيل سالم ، كانت قد تبلورت - في تلك الأسابيع الأخيرة التي سبقت سفره إلى إيطاليا - مؤكدة صلاحيته للعمل مع الموساد ، بل - ربما - استعداداه الكامل للتعاون معه ... كما أكدت ، أنه ، من وجهة نظر أبي سليم ، نجاح نبيل

سالم في العديد من الاختبارات التي وُضع تحتها ... فهو قد احتفظ - مثلاً - بسر حقبة المخدرات المزعومة ، وكان منضبط الحركة والتصرف فلم يقع في خطأ ولم يبح لشيرلي هايمان التي كانت قد استولت على عواطفه وحياته استيلاءً كاملاً ، بسرّه ، رغم محاولاتها المتعددة !

فإذا كانت خطة أبي سليم قد بنيت على وقوع نبيل - بالضرورة - في خطأ يجعله تحت السيطرة الكاملة له ، فلقد كان لا بد إذن من البحث عن هذا الخطأ الذي سوف يقوده إلى قيود لا يستطيع منها فكاًكاً ... وبالطبع ، لم يكن هناك من يستطيع دفعه إلى الشرك المنسوب ، سوى شيرلي هايمان ... وهكذا ، فلقد راحت تلك الفتاة المدربة تخطو نحو مهمتها بحذر وحرص .

كانت تعرف بالقطع - في تلك الليلة التي حدث فيها ما حدث - أن الحقيقة هذه المرة مليئة فعلاً بالمخدرات ، وكانت تعرف كيف تضغط على نبيل حتى تدفعه إلى عدم الذهاب إلى محطة السكة الحديد لإيداع الحقيقة في الخزانة في الموعد المحدد ... كان لا بد لها أن تنجح في مهمتها التي من أجلها جاءت إلى ألمانيا ... وهكذا ، وضعت لويز جولدمان - أو شيرلي هايمان - نبيل في موقف من لا يستطيع الرفض ... بل إنها عندما طلبت منه الذهاب - معه إلى البيت - شوقاً وحباً ورغبة !! - وعندما حاول هو التملص من الدعوة بحجة موعد مع صديق صاحبت فيه ذات لحظة وفي نبرة تصرخ بالشك :

« لست أدري أي صديق هذا الذي تلقاه دائماً بعد انتهائك من كل جولة تخرج فيها مع بعض السائحات المجائز ؟ » .

كانت تُلَمَح بالغيرة ، لكن اللهجة - وربما نظرة سريعة إلى الحقيقة التي كان يحملها - كانت توحى بشكوك أبعد من هذا ، مما جعل نبيل سالم يرضخ لها محاولاً إرضائها !!

وقد يعنّ للبعض هنا أن يتساءل : إذا كان تجنيد نبيل أو إتمام السيطرة عليه من قِبَل المخابرات الإسرائيلية يعتمد على قدرة لويز جولدمان على التأثير على هذا الشاب التمس ، فماذا لو لم يخضع نبيل لها ولم يذهب معها إلى البيت ؟!

ولا بد لنا من الإنتباه إلى أن البدائل تبدو كثيرة ، بل كثيرة جداً ... بل إننا نستطيع أن نجزم ، إنه من الضروري أن يخطر مثل هذا السؤال على ذهن ضابط المخابرات الإسرائيلي ، وأنه لا بد وأن يضع في اعتباره كل الاحتمالات ... ولذلك ، فلا بد - مرة أخرى ! - وأن تكون البدائل قد وضعت بالفعل ، بحيث إذا فشلت خطة ما أو أسلوب معين ، انتقل الجميع فوراً إلى البديل الجاهز ... وفي مثل هذه الحالة ، فإن الظن يذهب بنا إلى أن البديل الذي وضع - وهو بالضرورة يخضع لأسلوب الموساد في السيطرة على عملائها - كان جاهزاً للتنفيذ في نفس تلك الليلة ، وقبل أن يسودع نبيل الحقيقة الثمينة في الخزانة ! ... خاصة ، وأن نبيل سالم - كخامة صالحة - كان جاهزاً تماماً !!

وعلى سبيل المثال ... فلو أن نبيل استطاع التخلص من شيرلي هايمان ، لما كان صعباً على أبي سليم ، وكان رجاله الذين مثلوا أدوار رجال الشرطة الألمانية جاهزين بالطبع ، أن يوقف سيارة بجوار نبيل وهو يسير في الطريق العام نحو محطة السكة الحديد ، وأن يهبط منها ، نفس الرجال الثلاثة الذين داهموا مسكن نبيل ، وأن يوقفوه طالبين منه اصطحابهم إلى السيارة !!

إن الأمر هنا ، رغم خطورته ، يبدو بسيطاً للغاية ... ذلك أن نبيل بالقطع كان موقناً أنه يحمل حقبة مليئة بالمخدرات ، ولو أن هذا حدث له ، لأصابه الارتباك - مهما كانت قوة أعصابه - وفقد السيطرة على نفسه ولو لشوان كانت كافية تماماً لأن يدفعه الرجال إلى السيارة دون أن يشعر أحد من المارة بشيء على الإطلاق ... ثم ، لم يكن صعباً ، مع بعض التعديلات البسيطة ، أن يذهبوا به إلى مسكنه بحجة التفتيش ، ثم يكتمل السيناريو بحذافيره بعد ذلك !

... ..

... ..

كانت كلمة « حاضر » التي نطق بها نبيل سالم وهو فيما بين اليقظة والإغماء ، في تلك الغرفة العارية الأرض والجدران ، وبعد أن أهده أبو سليم عدداً من اللكمات كان عنفها مفاجأة حقيقية له ، بمثابة توقيع نبيل على عقد يضمن لضابط المخابرات الإسرائيلي طاعة عمياء ... وعلى ذلك ، فما أن فاه

نبيل بتلك الكلمة ، حتى أخرج أبو سليم من جيبه إيصالاً مكتوباً بلغة لم يفهما  
نبيل - وإن كان قد رجح فيما بعد أنها الإيطالية - ثم دفع إليه ، مع الإيصال ،  
بقلم وهو يقول :

« خذ ... امضي لي على الوصل ده ! » .

كان نبيل لا زال يتلوى من الألم ، ويرتجف من الخوف ... رفع رأسه  
هاتفاً :

« إيه ده يا أبو سليم ؟ ! » .

« وصل بالربع مليون مارك ! » .

فغر نبيل فمه دهشة ورعباً ولم يفه بحرف ... بل إنه - على حد قوله - أفاق  
تماماً من آثار الضرب أو الألم ، وعاد أبو سليم يقول في غلظة :

« ده الحل اللي قدرت أوصل له معاهم ، ومكانش فيه سكة ثانية  
غير ... » .

قاطعته نبيل وهو يتناول القلم والورقة :

« خلاص ... حاضر ... حاضر !! » .

الغريب ، أن لهجة الرجل تغيرت فجأة وقبل أن يعيد الإيصال إلى جيبه ،  
لانت كلماته وهو يعاتب نبيل لأنه « قصر رقبته » أمام المنظمة ووضعه في موقف  
لا يحسد عليه ، ولولاه - لولا أبو سليم - لكان مصير نبيل شيئاً آخر ... عاتبه  
- مثلاً - لأنه لم يذكر له أن شيرلي هايمان كانت تذهب معه إلى البيت !

« وهو أنا لازم أقول لك على خصوصياتي كمان يا أبو سليم ؟ ! » .

« طبعاً ! ... » .

بدت على نبيل الدهشة فأردف أبو سليم :

« اللي بيشتغل شغلة زي شغلتنا مش لازم تبقى له خصوصيات ! » .

صمت لثوان ثم استطرد :

« ده علشانك وعلشان مصلحتك وحمايتك ! » .

لزم نبيل الصمت فعاد الرجل يقول :

« كل حاجة في حياتك مهما كانت تافهة أو صغيرة لازم أعرفها ! » .

غير أن المشكلة التي شغلت نبيل لم تكن في هذا ، ذلك أنه كان الآن على  
استعداد كامل لأن يطيع الأوامر الصادرة إليه دون سؤال ، وكان شيخ التهمة التي  
وجهت إليه في ألمانيا ، مضافاً إليها ذلك الإيصال الذي وقعه منذ دقائق ، سيفاً  
مسلطاً على عنقه ... كانت المشكلة في نوعية العمل الذي سوف يعهد  
إليه ... وهو عندما سأل هذا السؤال لأبي سليم ، لم يجبه هذا ، بل سأل  
بدوره :

« إنت مش جعان ؟ ! » .

كان نبيل قد نسي الجوع والعطش ، ولم يعد مهماً بالنسبة إليه أن يأكل أو  
يشرب ، بل كان المهم أن يخرج من سجنه هذا وأن يستنشق هواء الحرية !  
« يالله بينا ! » .

هكذا قال أبو سليم بعد أن أجابه نبيل بأنه لم يذق من الطعام طوال عشرة  
أيام سوى كسرة من خبز وقطعة من جبن !

« على فين ؟ ! » .

« الأول تخرج من هنا ، وبعدين يحلها ربنا !! » .

\* \* \*

في أعقاب نكسة ١٩٦٧ ، شهدت دول أوروبا جحافل من الشباب  
المصري الذي خرج إلى الدنيا الواسعة بحثاً عن الذات في أعقاب هزيمة كان  
تأثيرها النفسي مدمراً بكل ما تحمل الكلمة من معنى ... لكن الظاهرة التي  
لفتت الأنظار ، وكانت محل مناقشة وبحث لفترة ليست قصيرة ، هو ذلك الإقبال  
الغريب على شراء السيارات المستعملة من الخارج ... وفي تلك السنوات  
شهدت اليونان وإيطاليا وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة ، أنماطاً بلا حصر من  
المصريين الباحثين عن سيارة يشترونها بثمن رخيص ، كما شهدت تلك الدول  
العديد من الشباب المصري الباحث عن عمل ، أي عمل ... وكان طبعياً أن

تولد مع الظاهرة أنماط من البشر تستفيد منها وتروج لها ، فظهرت طائفة من السماسرة المصريين والمتصرين والأجانب الذين عاشوا في مصر لسنوات ثم عادوا إلى بلادهم . . . وكان ملائماً لأصحاب الجراجات الهائلة التي تتكدس فيها السيارات ، أن يستعينوا بهؤلاء السماسرة الذين يستطيعون التفاهم مع المصريين ، خاصة في إيطاليا وألمانيا ، ذلك أنه كان معروفاً أن المصريين في الغالب يتقنون عدداً من اللغات الأجنبية ، الإنجليزية والفرنسية . . . وكما رحب أصحاب تلك الجراجات بالسماسرة ، رحب بهم المصريون الذين كانوا في حاجة إلى تفاهم واضح حول الثمن والجودة والشحن وما إلى ذلك من إجراءات كانوا في حاجة إلى من يعرف مسالكها ودروبها في دول لا يعرفون لغاتها !!

من هذه الطائفة من السماسرة ، ظهر اسم نبيل سالم ، الذي أصبح اسمه الآن : نبيل الجيزي - وهو الاسم المدون في جواز سفره المزور والذي أمده به أبو سليم قبل مغادرته ألمانيا - الذي ذاع صيته في مدينة نابولي الإيطالية . . . والتي كانت تمثل للمصريين واحدة من أفضل المدن لشراء السيارات . . . ففوق كثرة الجراجات أو المخازن التي تكدست فيها السيارات المستعملة ، فهي ميناء يستطيع من يشتري سيارة منها أن يشحنها على سفينة متجهة إلى الإسكندرية ، وأن يسافر معها على نفس السفينة أيضاً !!

في تلك الأيام كانت الفرصة مواتية للمخابرات الإسرائيلية كي تدس عملاءها في كل مكان ، ولقد شهدت مدن أوروبا في تلك السنوات نشاطاً محموداً يستهدف هؤلاء المصريين الذين كان البعض منهم يثرثر فيما يعلم وما لا يعلم ، وأصبح الواجب على رجال المخابرات المصرية ثقيلاً ومركباً . . . ففوق مطاردة عملاء إسرائيل ، كانت هناك محاولات لحجب المعلومات المتسربة إلى العدو عن طريق الثروة أو القنوط أو اليأس أو . . . أو . . . أو عشرات العوامل النفسية التي تولدت مع انفجار الهزيمة الرهيب !

غير أن ظهور نبيل سالم - الذي كان عادل مكبي يتوقعه ويتنظره في نفس الوقت ، ليس فقط من أجل نبيل ، وإنما أيضاً من أجل الكشف عن شبكة من

أخطر شبكات التجسس التي أنشأها الإسرائيليون - قد تأخر بعض الشيء ، وكان هذا ، من وجهة نظر عادل ، أمراً طبيعياً !

قال نبيل سالم فيما بعد وهو يقص ما حدث له في تلك الأيام ، إن أبا سليم راح يستخدم في حديثه معه بعد خروجه من سجنه هذا ، تلك الألفاظ الخالصة المصرية ، والتي تنبئ عن حنان دافق ووَدٍّ شديد . . . قال إنه عندما غادر باب ذلك القصر الصغير إلى الحديقة التي عبرها منذ عشرة أيام ، ظل لدقائق غير قادر على مواجهة ضوء النهار وأشعة الشمس بعد تلك الأيام التي قضاها في غرفة شبه مظلمة لمح في طريقه بعضاً من العمالقة الذين ذاق من أيديهم لكلمات كمطارق الحديد . . . كانت في انتظارهما سيارة قادها أبو سليم بنفسه ، خرجا إلى طرقات حاول نبيل عبثاً بعد ذلك ، وعندما استقر به المقام وازدادت فيه الثقة ، أن يعرف أين هي وفي أي حي من أحياء نابولي دون جدوى . . . اخترقت السيارة شوارع المدينة ثم غادرتها إلى ضاحية تبعد عدداً لا بأس به من الكيلومترات حيث وصلت إلى بيت صغير يقوم في حضن جبل شاهق الارتفاع . . . كان الجو في إيطاليا بطبيعة الحال أكثر دفئاً من جو ألمانيا القارس . . . دلفا إلى البيت فاستقبلتهما سيدة تناهز الأربعين من العمر ، ومشوقة القوام حادة الحركة مثل شرطي يؤدي واجبه ، في وجهها مسحة من جمال غابر ، وفي عينيها نظرات نافذة ، ولقد صاح فيها أبو سليم فور دخوله وبالعربية :

« الحمام جاهز يا راشيل ؟ ! » .

انتبه نبيل وانتبهت حواسه جميعاً ، أحس بشكل غامض أن أبا سليم يريد منه أن ينتبه لشيء معين ، أوحى إليه اسم السيدة بفكرة راودت مخيلته من قبل لكنه لم ييقها أو يستيقها أو يفكر فيها ، هز كتفيه وقتها ومضى إلى حيث قاده لا مبالاته إلى ما كان فيه الآن . . . رحبت السيدة راشيل بنبيل سالم ترحيباً حاراً تكسوه طبقة سمينة من جليد خفي ، راحت تتحدث بالعربية المغموسة في تلك اللكنة التي تميز بها يهود مصر على طول العصور . . . قالت إن كل شيء جاهز ، وطلبت من نبيل قبل أن يدخل الحمام أن يلقي بملابسه كلها في سلة

كانت هناك ، وإنه سوف يجد بديلاً عنها . . . ورغم أن الوقت كان صباحاً إلا أن أبا سليم صب لنفسه كأساً من زجاجة كانت موضوعة فوق مائدة في ركن من المكان ، رشف من الكأس رشفة ثم قال :

« يا لله يا بلبل خذلك حمام واحلق دقنك على الفطار ما يجهز ! » .

كان المكان بالتأكيد رائعاً، والبيت ذا طبيعة خاصة تضيء عليه سحراً من نوع خاص . . . وجد نبيل في الحمام كل ما كان يحلم به ، دمعت عيناه وهو يخطو إلى البانيو الذي امتلأ بمياه دافئة تعلوها طبقة ناعمة من رغوي الصابون المعطر . . . غاب في الحمام ساعة كاملة ، وخرج منه يرتدي ، فوق ملابسه الداخلية الجديدة ، روباً من الحرير دثره بحنان . . . كان أبو سليم الآن يحقق لنبيل سالم كل أحلامه بلا نقصان . . . جلسا إلى المائدة وكانت عامرة بالطعام والفاكهة والعصائر ، استأذنت راشيل لبعض أمرها وتركتها معاً . . . حدثه أبو سليم عن حبه له الذي دفعه إلى بذل جهود جبارة من أجل حمايته . . . قال إن هذه المرة ، ومع هذه المنظمة ، لن تحتل خطأ جديداً . . . بعد الإفطار ارتدى نبيل في غرفة قادته إليها راشيل ، بتطلوناً جديداً وقميصاً فاخراً وبلوفر من الصوف الإيطالي الفاخر ، انتقلا إلى شرفة تطل على حديقة صغيرة ويرتفع أمامها الجبل شامخاً ، راحا يدخنان ويحتسيان القهوة الإيطالية القوية . . . قال له أبو سليم إن أمامه الآن بضعة أيام يقضيها في إجازة . . . سأله عن عدد ما يملك من ماركات ألمانية ثم استبدلها له بليرات إيطالية . . . قال له إنه سيقى في هذا البيت إلى أن يستقر الرأي في المنظمة حوله ويعثرون له على مسكن يتناسب مع عمله الجديد . . . ثم قال له إنه طوال إقامته في تلك الجنة المؤقتة ، سوف يجد عند راشيل كل ما يحتاج إليه ، فسأله نبيل في خبث محاولاً أن يستظرف :

« كل حاجة يا أبو سليم !؟ » .

« شوف يا نبيل . . . أنا عاوزك ترتاح خالص ، عاوزك تنام وتبسط ولا تفكرش في حاجة على الإطلاق لحد ما أرجع لك ! » .

« وحاترجع إمتى !؟ » .

« لما ترتاح ! » .

« وياترى أقدر أخرج !؟ » .

ابتسم أبو سليم علامة الرضا ، فلقد بدا السؤال وكأنه استجابة كاملة من نبيل . . . قال :

« تقدر تخرج بالليل بس ! » .

« إشمعنى بالليل يعني !؟ » .

لم يجب على سؤاله دائماً استطرد :

« ولا تروحش دلوقت الحتت الزحمة ولا اللي فيها مصريين أو عرب ! » .

« مش فاهم ! » .

« إنت نسيت إن الأنتربول بيدور علينا يا نبيل !؟ » .

في وجل سأله نبيل :

« الأنتربول !؟ » .

« تفكر البوليس الألماني ممكن يسكت بعد ما يكتشف إننا هربنا منه !؟ » .

« طب والعمل !؟ » .

« سيب الموضوع ده عليّ ! » .

« لحد إمتى يا أبو سليم !؟ » .

كان الذعر بادياً على نبيل بوضوح ، فأجاب الرجل :

« لحد المسائل ما تهدى شوية ونقدر نرتب الأمور هنا والدار تبقى أمان ! » .

هم نبيل بالحديث لكن أبو سليم استطرد :

« وعلى ما تتعلم لك كام كلمة طلياني علشان لما تنزل الشغل ما تبقاش زي الأطرش في الزفة » .



« ومين اللي حايعلمني ؟! » .

« راشيل طبعاً ! » .

مضت لحظة صمت أردف بعدها أبو سليم :

« راشيل بتعرف ست لغات ! » .

« بس فيه حاجة يا أبو سليم ! » .

« إيه هي ؟! » .

« إذا كان الأنتربول بيدور علينا ، تبقى المسألة ممكن

توصل مصر ! » .

« ده مش ممكن ... ده أكيد ! » .

هتف نبيل في فرع لم يخف على أبي سليم :

« طب والعمل إيه في الحكاية دي ؟! » .

« وهو إنت فين ومصر فين ؟! » .

« إفرض إني حبيت أنزل مصر في إجازة كام يوم ؟! » .

« وقتها يبقى يحلها ربنا ! » .

« إزاي ؟! » .

صعقته نظرة أبي سليم تلك المخيفة ، تراجع إلى داخله ، غمغم معتذراً

وهو يتذكر رزمة الأوراق المالية التي دفعها أبو سليم للشرطي الألماني أمام

عينيه ... عاد يسأل متعثراً :

« طب يا ترى ... » .

لكنه لم يكمل فاستحبه أبو سليم :

« عاوز تقول إيه ؟! » .

« أنا حاشتغل نفس الشغلانة ؟! » .

« لأ طبعاً ! » .

« آمال حاشتغل إيه ؟! » .

« لسه ما اعرفش هم اختاروا لك إيه ؟! » .

صمت نبيل وهو ينظر إلى أبي سليم في تساؤل وتوسل ... وسرعان ما  
استجاب هذا لنظرته ، فلقد اعتدل في جلسته قائلاً :

« على العموم اطمئن ، أنا كل اللي أعرفه إنك خرجت من لعبة المخدرات  
دي نهائي ! » .

« ما هو أنا ممكن أغلط في الشغلانة دي كمان ! » .

« وتغلط ليه ؟! » .

« جل من لا يخطيء يا أبو سليم ! » .

« إذا سمعت كلامي مش ممكن تغلط ! » .

هم نبيل بالحديث لكن الرجل أردف :

« لو كنت سمعت كلامي والتزمت بالتعليمات وإنت في هامبورج ، مكانش  
حصل اللي حصل ! » .

بدا الرجل لنيل على حق فيما يقول ، فغمغم :

« بس يا أبو سليم ... » .

« على العموم إحنا لسه على البر ! » .

هكذا هتف أبو سليم مقاطعاً الشاب الذي كان يشعر بالتمزق يدمر كل  
كيانه ، اضطرب نبيل اضطراباً شديداً للهجة التهديد التي تحدث إليه بها  
الرجل ، هتف متسائلاً :

« يعني إيه الكلام ده بقي يا أبو سليم ؟! » .

« يعني إذا مكانش عاجبك ... إنت حر ! » .

« برضه يعني إيه ؟! » .

« بين البايع والشاري يفتح الله ! » .

صرخ نبيل بصوت مبدد :

« وحاجيب لك الريع مليون مارك منين ؟! » .

« ده شغلك يا حبيبي مش شغلي ! » .

« طب أعرف بس أنا حاشتغل إيه ؟! »  
« المفروض إنك تشتغل أي حاجة ، وكل حاجة ! »  
« حتى ولو كانت حاجة ما اعرفهاش ؟! »  
« إذا كنت ماتعرفهاش حاعلمك !! »

تبدد الحلم وتحولت الراحة إلى قلق حاد ، احتدم بينهما الحوار وكان أبو سليم كمن يلقي به في ماء ساخن ، ثم يخرج منه كي يلقيه في محيط من الثلج ، فإذا هو ككرة من مطاط تتقاذفها أقدام لا ترحم . . . لم يعد هناك ما يقال وقد انتصف النهار فغادره أبو سليم تاركاً إياه يضرب أخماساً في أسداس ، عادت راشيل من الداخل متفجرة بالحياة والأنوثة وكان وجهها مشرقاً وعيناها تلتمعان وفي يدها أوراق لعب راحت تفردا أمامها على مائدة صغيرة في أشكال منتظمة !

« إنتي بتشوفي البخت يا راشيل ؟! »  
هكذا سألها متوجساً لكنها ابتسمت وهي تجيب :  
« لا . . . دي لعبة ممكن تلعبها لوحذك ! »  
« اسمها إيه ؟! »  
« الصبر !! »

كان لتلك الكلمة البسيطة مذاق شديد الحرارة . أحس بالاختناق فنهض إلى الباب ، ما إن فتحه حتى سأله راشيل :

« على فين ؟! »  
« حاتمشى في الجنينة شوية ! »  
« بس ماتبعدش عن البيت علشان ماتتوهش ! »

رغم بساطة الكلمات إلا أنها كانت تحمل شحنة آمرة لم تخف على نبيل ، التفت نحوها فإذا عيناها وكأنهما فوهتان لمسدسين على استعداد للانطلاق . . . خرج إلى حديقة البيت وراح يجول ببصره في المكان الذي يحميه الجبل من الخلف في شموخ أخاذ . . . خطا إلى الطريق وسار وسط الأشجار والطبيعة

الخضراء ولم يكن هناك غيره ولم يصادف إنساناً . . . كان يشعر وكأن عقله قد توقف تماماً عن التفكير ، أحس أنه محاصر حصاراً محكماً ولا طريق أمامه سوى الطاعة أو السجن ، فماذا لو قبضت عليه الشرطة الإيطالية واكتشفوا أن جواز سفره مزور ، إن أبسط ما يمكن أن يفعلوه هو تسليمه للسفارة المصرية وهذه هي الفضيحة التي كان على استعداد لأن يدفع عمره بالكامل ثمناً لكيلا تحدث . . . لم تكن سامية فهمي قد غابت عن ذهنه طوال تلك الأيام التي مضت ، كان إذا ما تذكرها أدرك أنها كانت على حق في كل ما قالت وفعلت . . . إلا أن حالة مكثفة من الاكتئاب وضيق الصدر والغضب كانت تنتابه في تلك الأوقات . . . فلقد كان نجاحها يواجه فشله ، وقوتها تواجه ضعفه ، ووضوحها يواجه التوابع ، إخلاصها يواجه خيانتها . . . كانت سامية تعزّيه أمام نفسه ، ضاق صدره بالسير فعاد إلى البيت كي تستقبله راشيل في ترحاب ، قدمت له كأساً وصبت لنفسها آخر وجلست قبالة وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة متلاشئة . . . في صوت متكسر سأله :

« عاوز تتعشى إيه النهار ده ؟! »

أدارت معه حديثاً عرف منه أنها ولدت في مصر وعاشت في الإسكندرية وتربت في حارة اليهود المتفرعة من شارع الميدان . . . لم تكن في حاجة إلى ثورية ، بل ربما كانت متعمدة الحديث حول الموضوع بوضوح ، حكّت له كيف كانت تعيش في أمان ورفضت الهجرة من مصر إلى أن جاء العساكر - هكذا كانوا يلقبون رجال الثورة - فأصبحت الحياة كابوساً لا يمكن احتمالها .

« وسبتي مصر ؟! »  
« أول ما ادوني التأشيرة ! »  
« جبتي على إيطاليا ؟! »  
« قعدت فيها يومين ! »  
« وبعدين ؟! »  
« رحنت إسرائيل طبعاً ! »  
« وسبتيها إمتى ؟! »

« وأسيبها ليه ؟! » .

أسقط في يده ... سألها :

« آمال إنتي هنا بتعملي إيه ؟! » .

« جايه تبع الشركة اللي باشتغل فيها ! » .

وأمسك نبيل عن الكلام ، أدرك أن لا جدوى من اللف والدوران ، وأن هذه السيدة الجالسة أمامه ألقت من الأضواء ما يكفي لكي يفهم ، خطرت له تلك الفكرة التي راودته ذات مرة فلم يبقها أو يستبقها أو يفكر فيها ، عاد يخوض في الحديث معها حول أمور شتى مبتعداً قدر طاقته عن الموضوع !

مضى أسبوع لم يظهر فيه أبو سليم ولا مرة ... غادر البيت عدة مرات في المساء وكان يعود كي يجدها في انتظاره ، علمته لعبة الصبر وكانا يقضيان الوقت في لعب الورق أو مشاهدة التلفزيون ، وكانت دروس اللغة الإيطالية تتم في وقت منتظم لا يتقدم ولا يتأخر ولا يتأجل ... خلقت تلك السيدة بينهما نوعاً من الألفة كان يهدده في أحيان ، ثم يفيق منه على واقع فريد في مرارته ... لم يكن ما تعلمه من الإيطالية كثيراً لكنه كان كافياً لأن يتفاهم به مع الناس ... عندما عاد أبو سليم ذات صباح بعد غيبة أسبوع كامل ، بادره نبيل قائلاً :

« إنت فين يا بو سليم ؟! » .

« كنت بادور لك على شقة تسكن فيها ! » .

« ولقيت شقة ؟! » .

« طبعا ! » .

« كويسة ؟! » .

« لا !! » .

« ليه ؟! » .

رماه أبو سليم بنظرته تلك النارية ثم زمجر :

« ثاني يا نبيل ؟! » .

تذكر نبيل ما قاله له في هامبورج من أنه يجب أن يعيش في مستوى العمل

الذي سيشتغله حتى لا يرتاب فيه أحد فهتف :

« خلاص . فهمت . فهمت ! » .

« أنا مش عاوزك تفهم بس ... أنا عاوزك تتعلم بقى ! » .

« حاضر ... حاضر ! » .

نهض الرجل واقفاً وهو يقول :

« إذا كان ليك هدوم هنا خدها معاك ويالله بينا ! » .

وهكذا كان على نبيل سالم أن يغادر البيت بعد دقائق ، وأن يودع راشيل التي صافحته في برود من لم يره من قبل ولم يعرفه أبداً ... وكان وهو يخطو خارج هذا البيت المنعزل ، يخطو خطوته الأولى نحو طريق محفوف بالمخاطر ، والخيانة ... طريق جعل منه عدواً لأهله !!

\* \* \*

## الفصل السادس عشر

### المواجهه !

تتميز ميناء نابولي بطابع خاص يعطي لحضارة الجنوب الإيطالي نكهة لا يمكن للإنسان أن يخطئها . . وفيما حول الميناء الكبير - حيث المدينة القديمة - تتكدس البيوت والمباني في ازدحام يجعل الشوارع مجرد شقوق بين الحيطان والجدران . . . في واحد من تلك الشقوق أو الأزقة ، بيت يتكون من ثلاثة طوابق ، كل طابق فيه مكون من ثلاث غرف وحمام يشترك فيه سكان الطابق جميعاً . . . في واحدة من تلك الغرف ، استقر نبيل سالم .

كان - وهو يركب السيارة إلى جوار أبي سليم بعد مغادرته لذلك البيت الهاديء - يفكر فيما آل إليه حاله . . . ساد الصمت بينهما لدقائق طالت ، فراح يضغط عليه حتى كانت لحظة سأل ، وكان متردداً :

« إحنا رايعين فين يا أبو سليم ؟ » .

« مانا قلتلك إننا رايعين بيتك الجديد ! » .

ران الصمت مرة أخرى لدقائق لم تطل ، فلقد استطرد أبو سليم :

« ماتنساش إن اسمك دلوقت نبيل الجيزي ! » .

تلملم نبيل في جلسته فلقد راحت الأسئلة تتزاحم في رأسه . . . نظر إليه الرجل بجانب عينه .

« ما لك يا نبيل ؟ ! » .

هتف نبيل في توسل :

« وإذا قابلت حد من المصريين اللي يعرفوني ! » .

« ودي فيها إيه ؟ ! » .

« فيها إنهم يعرفوني باسم نبيل سالم ! » .

« وماله ! » .

هتف نبيل في قلق :

« وحكاية نبيل الجيزي دي إيه ؟ ! » .

« ده الاسم اللي الطلاينة لازم يعرفوك بيه ، علشان الأنتربول لو سأل عن نبيل سالم مايلقاهوش ! » .

هم نبيل بالحديث لكن أبو سليم استطرد :

« ثم إن المصري اللي عارف إن اسمك نبيل سالم ، مش حايقول لك هات الباسبور بتاعك علشان أظمن على اسمك فيه ! » .

كان منطلق الرجل قوياً فلزم نبيل الصمت ، وعاد أبو سليم إلى الحديث :

« وحتى إذا فرض وحد سمع من المصريين واحد طلياني بيقول لك سنيور جيزي ، لازم تفهمه ببساطة أن الغرب كله بينادي البني آدم باسم عيلته ، وانت عيلتك اسمها جيزي فعلاً ! » .

كان الحل مرضياً تماماً لنبيل ، فغمغم :

« ماتزعلش مني يا أبو سليم لما أسأل ! » .

« بالعكس . . . أنا بافرح ! » .

رفع نبيل حاجبيه دهشة ، فابتسم أبو سليم موضحاً :

« لأنك كل ما تسأل حاتعرف ، وكل ما تعرف حاتتعلم ، وكل ما تتعلم حاتكسب ، وكل ما تكسب حاتسدد إللي عليك ، وأبقى أنا عملت اللي علي ! ! » .

قال هذا وأطلق ضحكة من ضحكاته المرححة تلك التي أسرت نبيل في بداية تعارفهما . . . ثم التفت إليه مداعباً إياه في مرح :

« وأنا عاوزك تكسب أوفات يا بلبل ، عاوزك تكسب - على الأقل - ربع مليون مارك ألماني ! » .

مثل تلك اللحظات كانت تمزق نبيل تمزيقاً لا رحمة فيه ، فبقدر ما كانت سعادته غامرة إذا ما عامله أبو سليم تلك المعاملة الرقيقة ... بقدر ما كان هدوءه ينقبض إذا ما ذكره بذلك الدين الذي يقيد به بقاءه من فولاذ ... ولقد استدار الآن في مقعده كي يواجه أبا سليم تماماً وهو يقول :

« ودلوقت ... إيه المطلوب مني بالضبط ؟ ! » .  
« ولا حاجة ... إنت حاتنزل البلد ، وتلف وتشوف وتدرس ... تدور على شغل يعني ! » .

« شغل زي إيه ؟ ! » .  
« ده يتوقف عليك ! » .

زفر نبيل وقد تذكر ما قاله له أبو سليم في هامبورج ، قال :  
« يعني المهم إن الناس تشوفني وأنا بادرور على شغل ... مش كده ؟ ! » .

« عشرة على عشرة ! » .  
« إلا قول لي يا أبو سليم ، إنت مصري والأ سوري ؟ ! » .

ضحك أبو سليم في مرح وقد لمعت عيناه ببريق غريب :

« وهي تفرق ؟ ! » .  
« أيوه ... في اللهجة ! » .  
« تحب أكلمك مغربي ؟ ! » .

وتوقفت السيارة في أحد شوارع نابولي المحيطة بالميناء ، غادرها نبيل مع أبي سليم إلى مسكنه الجديد ... ولكن ، بالرغم من امتعاضه من المسكن ، ذلك الامتعاض الذي لا بد وأن يكون أبو سليم قد انتبه إليه ولم يعره اهتماماً ، إلا أنه لم يعترض ولم يفه بحرف ... عندما استقر بهما المقام في الغرفة ، وتسلم نبيل مفتاحها من مالك البيت الذي كان بحاراً مخضرمًا اعتزل البحر وكان

هذا البيت هو كل ما يملك هو وزوجته النحيفة السليطة اللسان والتي لا تكف عن الشجار مع النزلاء أو الجيران أو زوجها أو حتى نفسها ... عندما استقر بهما المقام في الغرفة سأل نبيل :

« وحاشوفك إمتى يا أبو سليم ؟ ! » .  
« ده يتوقف عليهم !! » .

نظر إليه نبيل نظرة تمزقها حيرة بلا حدود ، وخوف من مجهول كان يدهمه لحظة بعد لحظة دون أن يستطيع دفعه ، فما كان من أبي سليم إلا أن ابتسم مرتباً على كتفه وهو يقول :

« إنت متخيل إن اللي زيي واللي زيك بتبقى لهم كلمة في . المنظمة ؟ ! » .

« يعني إيه ؟ ! » .  
« مش عارف بصراحة يا نبيل ... كل اللي أعرفه إنهم وافقوا على إنك تسيب بيت راشيل وتسكن لوحذك ! » .  
« وبعدين ؟ ! » .

رماه أبو سليم بنظرة غاضبة وهو يقول :  
« يظهر إنك مش عاوز تتعلم ! » .

أسقط في يد نبيل ، كان يشعر بمرارة لا توصف ، وإحساس رهيب بالدونية ، كان الآن بلا حول ولا طول ولا قدرة حتى على التفكير أو التصرف ... أخرجته أبو سليم مما هو فيه قائلاً :

« على العموم حاول تتعرف على الحطة اللي انت ساكن فيها في الكام يوم اللي جاين ، وابعد بقدر الإمكان عن الأماكن اللي فيها مصريين أو عرب ... اتفرج وادرس المنطقة لحد مانشوف هم عاوزين منك إيه بالضبط ! » .

كانت لهجة أبو سليم الآن ودودة مما دفع بالراحة إلى نفس نبيل بعض الشيء ، غادره الرجل فجلس في الغرفة وحده ، حاول النوم فلم يستطع ،



استشرف الجوع فعافت نفسه الطعام ، هم بالخروج فلم يجد لديه رغبة في الحركة ، فاستلقى على الفراش وراح يحملق في السقف خاوي الذهن والوجدان معاً !

... ..  
... ..

ولقد مضت أيام ثلاثة لا يعرف نبيل كيف قضاها ، كان الخيط الوحيد الذي يربطه بالحياة هو أبو سليم الذي لم يكن يعرف له عنواناً أو رقم تليفون أو حتى اسم ... فكر في الهرب على إحدى السفن المقلعة إلى الإسكندرية ثم طرد الفكرة من رأسه فوراً وهو يتذكر أن رجال الشرطة في الميناء سوف يكونون في انتظاره ... فماذا لو اكتشفوا - مثلاً - أن جواز سفره مزور ، وهل يستطيع في مصر أن يخفي جواز سفره ؟ ... ثم ، ماذا لو أنهم قبضوا عليه بناء على تبليغ الأنتربول ؟ !

ثلاثة أيام مضت وهو يجول في شوارع المدينة وأزقتها وحواريها ، فإذا ما كان الصباح الرابع دق الباب ، وعندما فتح ، كان أبو سليم هناك !

« عندك هدم كويسة ؟ ! » .

هكذا بادره الرجل دون أن يلقي عليه تحية الصباح ، كان بادي الهم مقطب الجبين يبدو كمن خرج لتوه من معركة كانت مضية !

« خير يا أبو سليم ... ما لك ؟ ! » .

أعاد عليه السؤال فقال :

« ما انت عارف إن الهدوم اللي عندي كلها جديدة ! » .

هم أبو سليم بالحديث لكن نبيل وقد انقبض قلبه عاد يسأل في إلحاح :

« إيه الحكاية فهمني !! » .

لزم أبو سليم الصمت لثوانٍ وهو يحملق فيه ، خفق قلب نبيل عندما اقترب منه هذا :

« نبيل ... أنا عاوزك المرة دي تطول رقبتى ! » .

« المرة دي ؟ ! » .

« أصل فيه مندوب من المنظمة وصل إمبراح بالليل ! » .

توهجت في ذهن نبيل فكرة العمل مع المافيا مرة أخرى ، هتف :

« ودي فيها إيه ؟ ! » .

صاح فيه أبو سليم مستكراً :

« فيها إنه عاوز يشوفك دلوقت ! » .

« وإيه يعني ! » .

كان نبيل كاذباً وهو ينطق بهاتين الكلمتين اللتين تعنيان استعداداه لمقابلة هذا المندوب مهما كانت أهميته ... استشعر خوفاً غامضاً استولى عليه تماماً وهما يركبان السيارة التي راحت تقطع بهما طرقات المدينة ، التفت نبيل نحو أبي سليم متسائلاً :

« تفتكر المندوب ده حايكلمني في إيه ؟ ! » .

« في أي حاجة وفي كل حاجة ! » .

هم نبيل بالسؤال فأردف أبو سليم :

« خلي بالك ان مستقبلك كله متوقف على المقابلة دي ! » .

لاذ نبيل بالصمت واستغرق في أفكاره لكن الرجل اجتذبه منها قائلاً :

« أصل اللي زي دول يتعمل لهم ألف حساب ! » .

أحس نبيل أن أبا سليم ينكمش وينكمش حتى وكأنه سيصبح - أمام هذا الذي سوف يلتقي به بعد دقائق - قرماً بلا حول ولا طول .

« ولاحظ ان مالوش دعوة باللي حصل في هامبورج ! » .

« إزاي بقى ؟ ! » .

« لأنه عارفه بالتفصيل ومش حايتكلم فيه ! » .

« آمال حايكلمني في إيه ؟ ! » .

« الله أعلم . . . بس نصيحتي ليك إنك تجاوبه بصراحة على كل حاجة ! » .

« إنت بتخوفني ليه يا أبو سليم ؟ ! » .

« أنا مش باخوفك . . . أنا بانبهك ! » .

قال أبو سليم هذا وهو يدور بالسيارة من الطريق إلى حيث كانت ساحة واسعة قد امتلأت بعدد هائل من السيارات المستعملة . . . كان نبيل قد مرّ بهذه الساحة أثناء تجواله بالمدينة ، وقف ذات مرة خلف سورها المصنوع من السلك يرقب عشرات السيارات من كل الأنواع والأشكال والموديلات ، طاف بخاطره أنه ذات يوم قد يأتي كي يشتري سيارة من هنا . . . اندفع أبو سليم بالسيارة نحو مبنى قائم في نهايتها البعيدة . . . كان المبنى مكون من دورين ، وكانت جدرانه كلها من الزجاج الذي يسمح لمن بالداخل أن يرى كل ما يدور في الساحة دون أن يستطيع من في الخارج أن يشاهد ما يجري خلف الزجاج !

توقفت السيارة أمام الباب الخلفي للمبنى فغادرا السيارة . . . كان ثمة باب زجاجي مغلق دفعه أبو سليم وخطا نحو الداخل وكانت خطوته تشي بأنه يعرف المكان معرفة جيدة . . . استقبلهما رجل إيطالي هائل الجسد كبير التقاطيع شديد الأناقة . . . ما أن رأى أبا سليم حتى اندفع لملاقاته في ترحاب . . . راحا يتحدثان بالإيطالية فاستطاع نبيل أن يميز من حديثهما بعض الكلمات ، وما لبث أبو سليم أن قال :

« إتنا على موعد مع سنيور باروخ ! » .

قال نبيل سالم فيما بعد إنه فهم السؤال فهماً كاملاً فلقد لطمه اسم باروخ كقبضة تلقاها كي يفيق مما هو فيه . . . أوماً الإيطالي - وكان نبيل قد عرف من الحوار أن اسمه « اسكالكو » - نحو سُلّم يؤدي إلى الطابق العلوي :

« إنه في انتظارك ! » .

تبع نبيل أبا سليم فصعدا السلم حتى وجد نفسه في ممر بطول المكان، سار في الممر حتى نهايته وتوقف أبو سليم عند باب دق عليه برفق شديد ، فجاءه من

الداخل صوت يصيح بالإيطالية :

« أدخل ! » .

فتح أبو سليم الباب وخطا نحو الداخل خطوة ثم توقف في أدب :

« صباح الخير سنيور باروخ ! » .

« كيف أنت يا أبا سليم ؟ ! » .

« إن سنيور جيزي معي في الخارج ! » .

قال أبو سليم هذا وهو يدفع الباب برفق كي يُغلق ويهبط الصمت والوحدة على نبيل مثل دثار ثقيل . . . تَسَمَّر في مكانه وجالت عيناه هنا وهناك فلم يطالع سوى جدران زجاجية وأبواب مغلقة ، مضت الدقائق ثقيلة حتى فتح الباب مرة أخرى وأطل منه أبو سليم :

« تعال يا نبيل ! » .

وجد هذا نفسه في غرفة واسعة ذات جدران زجاجية تكشف الساحة بكاملها . . . في صدر الغرفة كان ثمة مكتب أنيق يجلس خلفه رجل تطل من وجهه عينان حادتان يظلهما حاجبان كثيفان يصنعان فوق العينين مظلة تعطي للرجل مهابة . . . كان شعره رمادياً وعيناه زرقاوين بلون الفيروز ، وكانت لهما نظرة مخيفة .

خطا نبيل إلى الداخل متعثر المخطى فجاءه صوت الرجل يتحدث بالعربية :

« أدخل يا نبيل . . . تعال ! » .

ظل أبو سليم في مكانه لا يبرحه ، وتقدم نبيل من المكتب حتى توقف على بعد خطوتين وكان عقله يسبح في لا شيء وكان الوجود تحول إلى عدم .

« أقعد يا نبيل ! » .

في الصوت نوع من الود الصارم أجلسه دون إرادة فوق مقعد وثير . . . وجاء صوت أبي سليم من خلف نبيل في أدب مبالغ فيه :

« أستاذنا أنا ! » .

« مع السلامة يا أبو سليم ! » .

سمع نبيل صوت الباب يفتح ثم يغلق لكنه لم يستطع الالتفات فلقد شدته فظرات الرجل النافذة إلى جمجمته ... مضت ثوانٍ بطول دهور جاء بعدها صوت الرجل :

« إن شاء الله تكون مبسوط في نابولي ! » .

« الحمد لله ! » .

أنكر نبيل صوته الذي خرج متهاوياً ضائعاً ... زام الرجل معتدلاً في مقعده ثم قال :

« إنت مين ؟ ! » .

جاء السؤال مثل طعنة أفاق لها نبيل فرفع رأسه في دهشة هاتفاً :

« أنا ؟ ! » .

أوماً الرجل برأسه فأردف نبيل :

« أكيد أبو سليم قال لسيادتك ! » .

« أنا عاوز أعرف منك إنت ! » .

كان السؤال صارماً واللهجة صارمة والصوت جاف والعينان حادتا النظر فراح نبيل يحكي عن نفسه كل شيء ، كل شيء ...

\* \* \*

قال لي عادل مكّي ضاحكاً : إن هذا الذي أطلقوا عليه اسم باروخ ، ربما كانت مكانته في الموساد أقل من أبي سليم ... ورغم ذلك ، فإن هذا لا يمنع من أن يؤدي أبو سليم هذا المشهد أمام نبيل حتى يؤثر في نفسه ذلك التأثير الذي يجعله يروح بكل ما يمكن البوح به ... إن خوفاً ، أو خلاصاً من الموقف كله !!

\* \* \*

مضت عشر ساعات كاملة ونبيل سالم يحكي ويقص ويكتب ويروح أمام هذا الرجل المسمى باروخ ، والذي كان يبدو وكأنه في نزهة يقضي فيها وقتاً ممتعاً !

في البداية قص نبيل كل شيء عن حياته ، عن أبيه وأمه وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وزملائه في الدراسة والكلية التي تفرقوا عليها وما إذا كانوا قد تخرجوا وأين يعملون ... و ... و ... وعند شخصيات بعينها كان الرجل يوقف نبيل وي طرح عليه من الأسئلة ما لا قبل له به أحياناً ... وعلى سبيل المثال فلقد كان لنبيل ، وهو طالب في الثانوي ، صديق اسمه علي زين العابدين ... ولقد التحق السيد زين العابدين هذا بالكلية الحربية وتخرج ضابطاً .

« في أي سلاح ؟ ! » .

ارتبك نبيل وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ ، ثم قال :

« مش عارف بالضبط ... بس بيتهيألي إنه كان في المدرعات ! » .

« آخر مرة شفته إمتى ؟ ! » .

« قبل ما أسيب مصر بشوية ! » .

« كانت رتبته إيه ؟ ! » .

« كان لسه مترقي رائد ! » .

« أبوه يشتغل إيه ؟ ! » .

وراحت الأسئلة تتوالى عليه وهو يجيب ... وبطبيعة الحال ، فلقد كان لسامية فهمي نصيب الأسد فيما قصّه نبيل عن حياته في مصر ، سألته باروخ كيف التقيا وكيف تحابا وما هي ألوانها المفضلة وما هو فكرها السياسي ومن كان أبوها ومن هي أمها وأقاربها وأهلها وصديقاتها وأصدقائها وكيف التحقت بمجلة الفجر وما هو سر نجاحها وهل كفأته هي السبب أم أن شيئاً آخر وراء ذلك النجاح ... وعشرات الأسئلة التي راح يمطره بها حتى جفّ حلق نبيل فطلب - على استحياء - كوباً من الماء ... لكن السيد باروخ كان كريماً ، فبالرغم من أنه لم يدخن ولم يشرب شيئاً طوال تلك الساعات العشر ، إلا أنه سمح لنبيل بفنجان من القهوة الإيطالية المركزة ... واحتسى نبيل القهوة ودخن حتى نفذت سجائره فجاءه باروخ بصندوق آخر من السجاير ... ولقد مضت أربع ساعات قصّ فيها نبيل كل شيء ، حتى إذا انتهى ، أشار باروخ إلى مائدة في الطرف الآخر من الغرفة :

« شاييف التراييزة اللي هناك دي ؟! » .

التفت نبيل نحو المائدة ثم عاد ببصره إلى الرجل الذي بدا له وكأنه قَدْ مِنْ صخر .

« روح أقعد عليها واكتب كل اللي قلتهاولي ! » .

كاد نبيل يهتف هلعاً غير أن نظرة من العينين الزرقاوين المظللتين بالحاجبين الكثيفين ألجمته . . . . نهض نبيل إلى المائدة فوجد ، عند مقعد معين ، ورقاً وقلماً وكان عليه أن يجلس على هذا المقعد بالذات .

« أكتب كل حاجة اتكلمنا فيها . . . وإذا كنت نسيت حاجة ، يبقى كويس لو افكرتها وكتبتها ! » .

ولساعتين آخرين وبعض الساعة راح نبيل يكتب . . . حتى إذا انتهى قدم لباروخ الأوراق وقد امتلأت ، فراح هذا ، في ثانٍ يعيد قراءة كل ما كتبه نبيل . . . كي . . . كي تبدأ جولة جديدة من الأسئلة !

. . . . .

. . . . .

كان الظلام قد حلَّ عندما ساد الصمت بينهما ، وطوال ذلك اليوم المشهود في حياة نبيل سالم ، لم يكن وجه السيد باروخ ينيء عن شيء ، حتى إذا انقضت ثوانٍ ، رفع باروخ سماعة تليفون كان موضوعاً إلى جواره - طوال اليوم لم يكن التليفون قد استعمل إرسالاً أو استقبلاً ولم يذق جرسه مرة - ودق ثلاثة أرقام ثم تحدث بصوت خافت لم يسمع منه نبيل - رغم قرب المسافة - كلمة واحدة . . . أعاد السماعة دون أن ينتظر رداً ، وما هي إلا ثوان حتى سمع نبيل دقاً على الباب ، وما أن أذن باروخ للقدام بالدخول حتى فتح الباب وظهر فيه أبو سليم واقفاً في أدب شديد :

« تعال يا أبو سليم ! » .

خطأ أبو سليم نحو الداخل وهو يغلق الباب .

« يظهر إننا تعبنا الأخ نبيل النهار ده حيتين ! » .

« أوامرك يا سنيور باروخ ! » .

هز باروخ رأسه وهو يوميء لنبيل دون كلمة ، فنهض نبيل من مكانه ، وأوسع له أبو سليم طريقاً نحو الباب . . . وكان نبيل وهو يغادر المكان يشعر وكأنه يسبح في الهواء ، حتى إذا استقر به المقام إلى جوار أبي سليم في السيارة صاح :

« إيه الحكاية دي يا أبو سليم ؟! » .

« حكاية إيه ؟! » .

« كل اللي بيحصل ده . . . أنا عاوز أعرف أنا رايح فين بالضبط ! » .

« طب مش ناكل لقمة الأول ؟! » .

كان نبيل متعباً مرهقاً مكدوداً جائعاً تتلاطم الأفكار في رأسه كموج صახب . . . ومنذ أن سمع في الصباح اسم باروخ استقرت مخاوفه وأيقن أنه كان على حق فيما ذهب إليه تفكيره منذ أن التقى بالإسرائيلية راشيل . . . أحس أن أبا سليم لن يشفي غليله ولن يجيبه على ما يريد من أسئلة ، أثناء حديثه مع باروخ تذكر - لسبب لا يدريه - شيرلي هايمان تلك التي ملكت عليه فؤاده ، وتذكر أنها يهودية وأنه وعداها بالآي حارب قومها في إسرائيل . . . كانت السيارة الآن تخترق شوارع نابولي والأضواء تخايل عينيه ، استسلم في مقعده وتاهت أفكاره . . . في أطراف مدينة نابولي تتناثر بعض المحلات التي تخصصت في تقديم أنواع من الأحياء المائية والأسماك يسيل لها لعاب الكثيرون . . . أمام واحد من هذه المحلات خافتة الضوء منعزلاً توقفت بهما السيارة . . . قادهما الجرسون إلى مائدة منعزلة بجوار نافذة تطل على البحر مباشرة . . . كان المكان ساحراً والموسيقى خافتة ، وأبو سليم يلقي للجرسون بأوامره ، ثم في استعلاء من ولد وفي فمه ملعقة من ذهب جاءت زجاجة من نبيذ فاخر فأمدت الخمر نبيل بقليل من القوة والشجاعة فعادت أفكاره مرة أخرى إلى ما كان يشغل باله . . . ولا بد أن أبا سليم كان في انتظار هذا فلقد استقبل الأسئلة - بعكس ما انتظر نبيل في رحابة صدر وبساطة جعلت نبيل يعيش في دوامة من الدهول لم يفق منها إلا

وهو يخطو إلى دائرة الخيانة طواعية . . . في البداية قال نبيل في إصرار من يبغى  
حسم الموقف :

« قول لي يا أبو سليم بالضبط إنت واخدني على فين ؟! » .

« قول لي إنت عاوز تعرف إيه بالضبط ؟! » .

« في الأول كان فيه راشيل ! » .

« ودي فيها إيه ؟! » .

« راشيل إسرائيلية ! » .

رفع أبو سليم حاجبيه دهشة فأردف نبيل :

« هي اللي قالت لي كده ! » .

« برضه ودي فيها إيه ؟! » .

« فيها إن بعد راشيل جه باروخ ! » .

« ما تخش في الموضوع يا نبيل ! » .

« الحكاية دي لها علاقة بإسرائيل ؟! » .

ضحك أبو سليم ضحكة خفيفة وهو يرشف من كأسه رشقة ثم يعيده إلى  
المائدة في رفق قائلاً :

« هي أولاً لها علاقة بالربيع مليون مارك إلهي انت السبب في  
ضياعهم ! » .

« بس أنا من حقي إني أعرف ! » .

« ومن حق المنظمة إنك ترجع لها فلوسها ! » .

همّ نبيل بالحديث لكن أبو سليم أردف :

« في نفس الوقت اللي انت لازم تعيش فيه عيشة محترمة ! » .

لزم نبيل الصمت فاستطرد أبو سليم :

« المنظمة لقت إن أنسب طريق علشان تسدد اللي عليك وتعيش في نفس  
الوقت ، إنك تشتغل لك كام شهر مع المخابرات الإسرائيلية ! » .

دق قلب نبيل في عنف ، وجاء الجرسون بطبق شهبي من الأحياء المائية  
هبط به إلى المائدة في رشاقة يسيل لها لعاب الجائع ، قبل أن يمضي أصدر أبو  
سليم بعضاً من الأوامر انحنى لها الجرسون وهو ينصرف مسرعاً . . . مَدَّ أبو  
سليم يده إلى الطبق وهو يقول :

« دوق ده ولا تقوليش الجندوفلي بتاع إسكندرية ! » .

ظل نبيل صامتاً جامداً دون حركة . رفع أبو سليم له وجهاً باسمياً :

« إنت مش جعان والأ إيه يا نبيل ؟! » .

« أنا عاوز أعرف إيه الحكاية بالضبط ! » .

« على العموم إنت لك حرية الاختيار ! » .

مال نبيل نحوه قائلاً في عنف :

« ما تقوليش حرية الاختيار يا أبو سليم وإنت عارف كل حاجة ! » .

« إذا ما كانش عاجبك العرض ، أرفض . . . وما على الرسول إلا  
البلاغ ! » .

كان في صوت أبي سليم نغمة تهديد لم تخف على أذن نبيل فامتدت يده  
إلى الطبق وقد ركن إلى الصمت فلم يكن هناك ما يمكن أن يقال . . . ذات  
لحظة سأل أبو سليم باسمياً :

« خايف ؟! » .

« طبعاً . . . مش فيه احتمال إن حد من مصر يعرف ؟! » .

« يعرف إيه ؟! » .

« يعرف إني باشتغل مع المخابرات الإسرائيلية ! » .

أطلق أبو سليم ضحكة جلجلت في المكان حتى التفت بعض الرواد  
نحوهم ، كانت إجابة نبيل تعني - بوضوح - موافقته على العرض . . . لكن هذا  
لم يمنع الرجل من مواصلة الحوار :

« مين اللي يعرف يا نبيل ؟! »

« يعني مفيش احتمال . . . . . » .

قاطعه أبو سليم في حسم :

« ولا واحد في المليون ! » .

« إنت متأكد يا أبو سليم ؟ ! » .

« إنت نسيت اللي حصل يوم ٥ يونيو اللي فات ؟ ! » .

وصمت نبيل . . . عادت إليه ذكرى نكسة يونيو وكانت ألمانيا كلها تتحدث عن الهزيمة . . . عادت إليه ذكرى تلك الصور المفزعة والمخزية التي نشرتها الصحف وبثها التلفزيون . . . أفاق من سهومه على صوت أبي سليم يقول :

« كل ده كان شغل المخابرات الإسرائيلية ! » .

سادت بعد ذلك فترة صمت وضع فيها الجرسون مزبداً من الأطباق الشهية ، راح نبيل يلتقط من الأطباق ما يسد به جوعه المتزايد . . . غمغم أبو سليم ذات لحظة :

« على العموم كل شيء بسمته ! » .

لم يرد نبيل ، كان غارقاً في أفكاره . . . حتى إذا انتهيا من العشاء قال أبو سليم :

« من بكرة تنزل تدور على شغل ، وتسال ، وتقعد مع الناس وتتعرف عليهم ! » .

« والمصريين . . . والعرب ؟ ! » .

« دلوقت تقدر تقابلهم وتقعد معاهم بشرط ! » .

« إيه هو ؟ ! » .

« إنك تشتري ولا تبعيش . . . تسمع ولا تتكلمش ! » .

كان أبو سليم الآن قد بدأ مرحلة أخرى من مراحل التدريب . . . وعندما غادر نبيل سالم السيارة بالقرب من بيته ، وقف في الشارع طويلاً يرقب ما حوله . . . كان راغباً عن العودة إلى البيت ، ولقد قال فيما بعد : إنه لم يكن يريد أن يواجه نفسه !!!

\* \* \*

## الفصل السابع عشر

### المركبة تبدأ !

لم يستطع نبيل سالم في تلك الليلة - التي واجهه فيها أبو سليم بوضوح - أن ينام إلا لماماً . . . لم يكن يدري إلى أين يقوده ذلك الطريق الذي خطا فيه باختباره ، وكان موقناً من أن الخطوة التالية ، مع أول صباح يأتي ، ستكون نهاية الحياة ، وبداية لحياة أخرى تماماً . . . راح يتقلب في فراشه محاولاً النوم دون جدوى ، غفت عيناه قليلاً لكنه استيقظ إثر كابوس رأى نفسه فيه يهوي من حائق ، وكان جسده يتفصد عرقاً . .

عندما أطل من نافذة غرفته ووجد الحياة تدب في الشوارع لم يستطع البقاء في الغرفة فغادرها وألقى بنفسه إلى الطرقات يسير فيها على غير هدى . . . التقى أثناء تجواله ببعض المصريين هنا وهناك . . . كان منهم من يبحث عن عمل ومنهم من يبغى شراء سيارة ومنهم من كان يكس البضائع من كل لون وصنف ، لم يكن نبيل موجوداً في مصر عندما استشرت فيها تجارة الشنطة . . . في أحد المقاهي - وكان الوقت ظهراً - استمع إلى مجموعة من المصريين كانوا يناقشون أسعار البضائع وأسعار السيارات وقيمة الشحن والجمارك وما إلى ذلك . . . عندما مر بهم نظروا إليه في ترحيب حذر ، ألقى عليهم بالتحية فردوها في اقتضاب وكأنهم يخشون انضمامه إليهم . . . انتحى جانباً واستغرق فيما كان مقدماً عليه ثم أفاق على تحيتهم يلقونها عليه منصرفين . تناول غذاءه في أحد المطاعم الرخيصة ، ثم فكر في العودة إلى غرفته لكنه تراجع خوفاً من الأفراد بنفسه . . . في المساء قاده قدماءه إلى واحدة من تلك المقاهي التي تقدم مع الوجبات السريعة مشروبات خفيفة . . . كان يشعر بالوحدة والغربة



وفي قلبه حزن غامر ، اختار مائدة منزوية جلس إليها ... ما إن استقر مكانه حتى أحس وكأن هناك من ينظر إليه ، التفت يميناً فطالعه وجه شاب كان يلتهم فطيرة إيطالية « بيتسا » ويحتسي فنجاناً من القهوة وكان يتسم ... قبل أن يصرف عنه عينيه هتف الشاب بالعربية :

« مساء الخير ! »

استجاب نبيل لابتسامة الشاب وقد داخلته سعادة غريبة ... ها هو مصري يلقي عليه التحية فهل يؤنس هذا الشاب وحدته ؟!

« مصري ؟ ! »

هكذا سأله الشاب فما أن جاء الرد من نبيل حتى حمل طبقه وفنجاناه وانتقل إلى مائدته مقدماً نفسه :

« شريف بكري ! »

جرى الحديث بينهما كما يجري بين إثنين من أبناء وطن واحد اغتربا بعيداً ... كان شريف بكري من هذا النوع من الشباب الذي يقتحم الدنيا بمرح ويخوض الحياة باسماء ويتحدث عن الوطن - رغم هزيمته - بإكبار ويبدو كعصفور ينطلق في الأفق وهو يعلم يقيناً أنه عائد ذات يوم إلى عشه ... قال شريف بكري لنيل سالم إن له في نابولي حوالي شهرين ، وإنه عمل جرسوناً في مطعم وموظفاً في شركة لسيارات التاكسي كما عمل مع متعهد سفن في الميناء كان يتعامل مع العديد من السفن المصرية والعربية .

« وإيه اللي كان بيخليك تسبب الشغل ! »

« علشان أشغل شغلانة ثانية وأستفيد منها ! »

هكذا قال شريف ضاحكاً في مرح ... فسأله نبيل ساخراً :

« وحانتفضل تستفيد لحد إمتى ؟ ! »

« لحد ما أحوش ثمن عربية كويصة أرجع بيها مصر ! »

كان منطق الشاب سوياً إلى درجة آلمت نبيل ... وبالرغم من هذا فلقد اندمج معه في الحديث والنقاش في محاولة مستميتة لنسيان تلك الزوابع التي

كانت تعصف براسه ... قص على شريف قصة ملفقة كان أبو سليم قد لقنه إياها عن جولاته التي بدأت في فينيسيا وانتقلت به إلى اليونان ثم عودته إلى روما ثم صعوده إلى هامبورج ثم رحيله إلى لوفورنو وسفره إلى نابولي التي وصل إليها منذ أيام لعله يجد فيها حظاً أوفر من حظهِ في جولته تلك التي استمرت قرابة عامين ... وكان شريف بكري يستمع إليه بانتباه شديد ، حتى إذا انتهى صاح به :

« طب ما ترجع مصر يا أخي ! »

نظر إليه نبيل نظرة استنكار فكيف يعود إلى مصر خالي الوفاض وكأنه يخرج منها ولم يغترب لعامين كاملين ؟!

« لو إنك بذلت الجهد ده كله في مصر ... كان زمانك بقيت حاجة ثانية ! »

الغريب في الأمر ، إن نبيل سالم لم يكن يعرف وهو يجوب مع هذا الشاب الذي أطلق على نفسه اسم شريف بكري - بعد أن غادرا المقهى - تلك الشوارع المحيطة بالميناء والقرية منها والتي لا تنام بالليل أو النهار ... إنه إنما جاء إلى نابولي خصيصاً كي يكون في انتظاره !

كان شريف بكري واحداً من رجال عادل مكى ... وكانت كل كلمة ذكرها لنيل سالم عن تلك الأعمال التي التحق بها صحيحة تماماً ... كان شهران قد مضيا عليه الآن بالفعل وهو في تلك المدينة الصاخبة ، وكان جواز سفره يقول هذا بخاتم الجمهورية الإيطالية ... وكانت الخطة الموضوعية قد رسمت له طريقاً يجعله ينتقل من عمل إلى آخر ومن مكان إلى مكان حتى إذا ما عاد إلى واحد من تلك الأمكنة لا تثير عودته أي نوع من أنواع التساؤلات !

« ... عندما قلت لعادل مكى إن المصادفة في هذا الحقل تلعب أيضاً دورها المؤثر ، نظر إليّ في دهشة من لم يفهم مقصدي ... حتى إذا ما ذكرته أن لقاء نبيل سالم في ذلك المقهى وفي هذا الوقت من الليل بشريف بكري كان مصادفة بحتة ... قال إن المصادفة هنا - إذا كنت مصمماً على استعمال الكلمة - من الممكن أن يطلق عليها اسم المصادفة المخططة ... فلولوا الخطة التي وضعت لشريف

بكري ، لما وقعت المصادفة أصلاً !! » .

وافترق الشابان في ساعة متأخرة من الليل ، كل منهما يبدو سعيداً ببقاء صاحبه . . . وكان لا بد - والأمر كذلك - أن يتواعدا في مساء اليوم التالي ، في نفس المقهى الذي التقيا فيه !!

\* \* \*

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً عندما ودّع نبيل صديقه الجديد هذا . . . وهو عندما فتح باب غرفته ، لم يكن يفكر في شيء إلا في النوم لبضع ساعات تعوضه عن يومه الشاق ، غير أنه ما أن أضاء النور حتى انتفض مرتداً إلى الخلف . . . وجد أباً سليم يجلس هناك ، على المقعد الوحيد في الغرفة !!

لم تكن المفاجأة سارة جداً بالنسبة لنبيل سالم ، إلا أنه تقبلها ببساطة بالرغم من أن الوجه الذي كان يطالعه الآن هو ذلك الوجه المقيت لهذا الرجل الذي استطاع أن يسيطر على مقدراته وحياته سيطرة كاملة . . . لم يعد يعنيه أن يسأل كيف دخل أبو سليم الغرفة وكيف حصل على المفتاح فلقد أصبحت مثل هذه الأسئلة الآن ساذجة ولا تنبئ إلا عن غفلة . . . رحب بالرجل متصنعاً بشاشة اضطر لإظهارها مجاملة . . . ما لبث أبو سليم أن سأله :

« عملت إيه النهار ده ؟ ! » .

وهكذا أدرك نبيل سالم أن عليه أن يقص ما حدث في يومه بالتفصيل فراح يحكي متحريراً دقة أجهدت عقله . . . حتى إذا انتهى نبيل بوداعه لشريف بكري سأله الرجل :

« عرفت كان بيشتغل إيه في مصر ؟ ! » .

« أنا فهمت إنه موظف ! » .

« فهمت والأعرفت يا نبيل ؟ ! » .

« في الحقيقة ما سألتوش إنما . . . . . » .

قاطعهُ أبو سليم :

« ليه ؟ ! » .

« مكانش فيه مناسبة ! » .

« وما خلقتش المناسبة ليه ؟ ! » .

كان صوت الرجل صارماً وكانت نبرته إيذاناً بأن شيئاً جديداً سوف يدخل حياة نبيل الذي هتف محتجاً :

« يعني أقعده قدامي وأحقق معاه يا أبو سليم ؟ ! » .

في برود جاءه الرد :

« إنت مش لازم تسأله خالص ، إنت تخليه هو اللي يقول لك على كل اللي إنت عاوز تعرفه ! » .

« إزاي بقي ؟ ! » .

« أنا أقول لك ! » .

وتلقى نبيل في تلك الليلة أول درس في علم « الإثارة » ، وهو العلم الذي يدفعك فيه محدثك ، بوضعك في حالة نفسية معينة ، إلى أن تخبره عما يريد أن يعرفه عنك أو منك دون أن يوجه إليك سؤالاً حول الموضوع الذي يريد معرفته منك !

وفي حقيقة الأمر ، وربما سبباً للأحداث ، فلقد أثبتت الأيام أن نبيل كان تلميذاً مجتهداً لضابط المخابرات الإسرائيلي هذا . . . فلقد استوعب الدرس تماماً ، وفيما تلا ذلك اليوم من أيام وأسابيع وشهور ، كانت براعته في استخدام قواعد هذا العلم قد وصلت إلى حد الإتقان !

عندما همَّ أبو سليم بالإنصراف كانت الساعة قد شارفت على السادسة صباحاً ، فقال وهو ينهض من مكانه :

« ما تنساش تعرف بكرة من شريف بكري هو كان بيشتغل هنا فين ؟ ! » .

« مانا قلت لك ! » .

« نابولي فيها كذا ألف مطعم ، وكذا شركة تاكسي ، والمتعهدين في الميناء على قفا من يشيل ! . . . » .

صمت نبيل ولم يرد فأردف الرجل :

« ومش صعب طبعاً إنك تعرف هو نازل فين هنا ! » .

هزّ نبيل رأسه إيجاباً ، كان راغباً في النوم إلى حد كاد يدفعه لأن يطلب من أبي سليم الانصراف ، ولقد خطا أبو سليم بالفعل نحو الباب مطرقاً ، لكنه ما لبث أن استدار نحو نبيل قائلاً :

« وما تنسأش قبل ما تنام تكتب لي كل اللي إنت حكتهولي ده ... وإذا كنت نسيت حاجة حاول تفتكرها !! » .

فغر نبيل فمه في دهشة وهو يقفز نحو أبي سليم ، كانت هذه الجملة هي نفس الجملة التي سمعها من الخواجه باروخ ... تكاد تكون هي هي بالفاظها وحروفها وحتى النبرة التي قيلت بها ... هتف مستكراً وهو ينظر في ساعة يده :

« قبل ما أنام إيه يا أبو سليم دي الساعة ... .. » .

قاطعته هذا في حزم :

« علشان ما تنسأش حاجة ! » .

أراد نبيل مواصلة الاحتجاج لكن أبو سليم وضع يده على مقبض الباب مردفاً :

« أنا حاعدي عليك الساعة تسعة علشان أخذ اللي انت كتبتة ! » .

قال هذا ثم غادر المسكن دون أن يعطي نبيل فرصة لأن يتفوه بكلمة !

\* \* \*

في نفس تلك اللحظات ، كان الشاب المصري الذي أعطي اسم « شريف بكري » منكباً على كتابة برقية شفرية طويلة ، يقص فيها قصة لقائه بنبيل سالم الذي اختار لنفسه في نابولي اسم نبيل الجيزي ... ورغم أنه كان متعباً منهكاً ... إلا أنه كان مصمماً على إرسال البرقية بأسرع ما يمكن ، حتى يجدها عادل مكّي فوق مكتبه ، أول شيء في الصباح !

كانت المعركة قد بدأت !!

\* \* \*

في التاسعة ، أوشك نبيل على الانتهاء مما كتب عندما سمع على الباب دقاً رقيقاً ، نهض إلى الباب وفتح كي يستقبل أبي سليم الذي واجهه في بشاشة من نال قسطاً وافراً من نوم عميق ، ابتسم في مرارة وهو يرحب بالرجل عائداً إلى المائدة كي ينتهي من الكتابة ، غمغم ساخراً وهو يمسك بالقلم :

« إشمعنى دلوقت اللي خبطت على الباب يا أبو سليم !؟ » .

« علشان إنت موجود ! » .

كان الرد جارحاً ، وكان وقحاً ، فالتفت نبيل نحوه في تساؤل ، وتجاهل الرجل نظراته وهو يتخذ مجلسه على حافة الفراش الذي لم يمسه نبيل بطبيعة الحال ... قال وكأنه يحاور أفكاراً تجول في رأسه :

« أصل شغلتنا دي يا نبيل ، مش لازم تسبب فيها حاجة للصدقة ! » .

أنهى نبيل بضعة أسطر كانت باقية ثم قدم الأوراق للرجل الذي راح يقرأ الأوراق على مهل ... ما أن انتهى حتى سأله نبيل مستفزاً :

« دلوقت أنا عاوز أعرف أنا حاشتغل إيه بالضبط !؟ » .

هتف أبو سليم وكأنه يذف إليه بشرى :

« لقينا لك شغلانة هايله ! » .

« أنا مش باتكلم عن الشغل اللي في البلد هنا ، أنا باتكلم عن الشغل مع المخابرات الإسرائيلية ! » .

« ماله !؟ » .

« أنا عاوز أعرف أنا حاشتغل معاهم إيه !؟ » .

« ما انت اشتغلت آهو !! » .

قال أبو سليم هذا وهو يلوح مبتسماً بالأوراق في يده ... فغر نبيل فمه دهشة هاتفاً دون وعي :

« هو ده الشغل اللي انتوا عاوزينه ؟! » .

تفوه نبيل بالسؤال عفواً مما جعل وجه أبو سليم يشرق بابتسامة بدت لنبيل شديدة الغموض . . . كان معنى ما قاله نبيل إنه أسقط كل الأقنعة وبدأ يتعامل مع أبي سليم لا على أنه سوري بل إسرائيلي . . . ساد الصمت لثوانٍ وكان نبيل هو الآخر قد انتبه إلى ما بدر منه لكنه غمغم متسائلاً :

« أقدر أعرف إنت بتتسم كده ليه يا أبو سليم ؟! » .

قال أبو سليم في نبرة مؤثرة :

« إنت ممكن تتصور إني أشغلك شغلانة فيها خطر عليك ؟! » .

في فرح لم يحاول نبيل أن يخفيه عاد يهتف :

« ده معنى كده إن مفيش مخلوق ممكن يحس بحاجة ! » .

« على شرط ! » .

« إيه هو ؟! » .

« أننا ما نتقابلش علني بعد كده ! » .

« وهو كذلك . . . لكن . . . . . » .

أمسك نبيل عن الكلام برهة ، تساءل بعدها :

« ما نتقابلش علني ؟! » .

« مش من مصلحتك إن حد يشوفنا سوا ! » .

« حاتبقى تجيني الأوضة هنا ؟! » .

« غلط ! » .

« أمال . . . . . » .

قاطعه أبو سليم وقد لاحظ حماسه :

« حيلك عليّ شويه ، الحكاية مش لعبة . . . دي لها أصول وقواعد لازم

تتعلمها ! » .

قفز نبيل من مكانه وقد عاد إليه نشاطه :

« عارف إن معنى كده إن مفيش مخلوق ممكن يمسك عليّ حاجة ! » .

ابتسم أبو سليم فأشار نبيل إلى الأوراق التي كانت في يده مازحاً :

« يعني الكام ورقة دول يبقوا القسط الأول ؟! » .

لم يفكر نبيل سالم فيما بعد أنه كان سعيداً في ذلك الصباح إلى الحد الذي جعله يعلن سعادته في وضوح . . . قال إنه كان كلما تذكر ذلك الصباح أصيب بدهشة بالغة وكأن ما كان يعنيه هو ألا يعلم أحد في مصر ماذا يفعل . . . قال إنه في بعض الأحيان كان يحتقر نفسه لإحساسه هذا لكنه لم يكن يملك إلا أن يفعل !!

« مش حاتاخد دش قبل ما تستلم شغلك الجديد ؟! » .

هكذا أيقظه أبو سليم مما كان فيه . . . إرتد إليه متوتراً :

« على الله بس تكون شغلانة كويسة ! » .

« عارف الجراج اللي كنا فيه أول إمبارح ؟! » .

« بتاع الخواجه باروخ ؟! » .

« آهو إنت حاشتغل هناك ! » .

عاد نبيل إلى مقعده وهو يضم ما بين حاجبيه :

« وحاشتغل إيه هناك ؟! » .

« إنت مش لسه كنت بتحكي لي ، وكتبت في الورق ده إنك قابلت جماعة

مصريين كان فيهم ناس عاوزين يشتروا عرييات ؟! » .

« ده صحيح ! » .

« والشاب اللي انت اتصاحبت معاه ده عاوز عريية لما يحوش فلوسها . . .

هو اسمه إيه ؟! » .

« شريف بكري » .

« كل اللي عليك إنك تدلهم على الجراج وتجيب لهم خصم ولما حد

يشترى عريية حاتبقى لك نسبة من ثمنها ! » .

هم نبيل بالسؤال فأردف أبو سليم :

« ده غير المرتب ! » .

« كل ده حلو قوي ... بس مهما كانت الفلوس اللي حاكسبها من بيع العربيات ، مش حاكسب الربع مليون مارك إلا بعد ... » .

قاطعهُ أبو سليم :

« ما هو ده اللي احنا لازم نتكلم فيه ! » .

أراد نبيل أن يستزيد من الرجل لكن هذا نظر في ساعته قائلاً إنهما على موعد مع السنيور اسكالكو صاحب الجراج لاستلام العمل ... بعد أقل من ساعة كان نبيل يجلس إلى هذا الرجل الإيطالي الضخم الجثة الهائل التقاطيع الشديد الأناقة الذي رحب أول أمس بأبي سليم فور دخوله إلى المبنى قبل لقائه بالسيد باروخ ... كان السنيور اسكالكو لا يعرف الابتسام إلا نادراً ، لم يستغرق الاتفاق بينهما سوى دقائق وكان كل المطلوب من نبيل أن يتعامل مع المصريين أو العرب الراغبين في شراء سيارات ... اكتشف نبيل أن المسألة أبسط بكثير مما تصور ... اتفقا على المرتب ونسبة من ثمن السيارة لو بيعت في الجراج ونسبة أخرى إذا ما جلب نبيل الزبون من الخارج ... علم أن مواعيد العمل تبدأ في التاسعة صباحاً وتنتهي في الخامسة بعد الظهر ، لكنها - بالنسبة إلى نبيل - تنتهي في الواحدة ظهراً ، إذ سيصبح عليه أن ينزل إلى السوق وأن يتصيد الزبائن ويرشدهم إلى الجراج !

كان نبيل يجلس إلى الرجل في مكتب صغير في الدور الأرضي يطل على الساحة ويكشف كل ما يدور فيها ... الآن اكتشف نبيل أن الدور الأرضي يضم بضعة مكاتب أخرى يشغلها موظفون وموظفات وكان في الساحة مشترون وسماسرة ... كان الحديث يدور بينه وبين اسكالكو بمزيج من الإيطالية والإنجليزية فلم يتدخل أبو سليم - الذي كان حاضراً منذ البداية حتى النهاية - بكلمة ولم يفتح فمه بحرف ... حتى إذا انتهت المناقشة قال السيد اسكالكو وهو ينهض من خلف مكتبه ، إن نبيل لن تكون له علاقة بأي من الموظفين سواء هو والسنيورينا مارشيل ... كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها نبيل

اسم « مارشيل » لكنه لم يكن قد استوعب ما قاله الرجل استيعاباً كاملاً ... قبل أن يطلب إيضاحاً رفع سماعة التليفون وتحدث لثوانٍ ثم أعادها فإذا فتاة إيطالية صارخة الجمال تدلف إلى الغرفة بعد دقائق وتلقي إلى أبي سليم بتحية من يعرفه منذ سنوات ... قدم سنيور اسكالكو نبيل لمارشيل قائلاً :

« هذا هو صديقنا المصري الجديد يا مارشيل ! » .

التفت الفتاة نحو نبيل وشملته بنظرة طالعت بعض الشيء ... كانت عيناها خضراوين غريبتين ذات نظرات فياضة غامضة ... هزت له رأسها في تحية مقتضبة ثم وكأن ابتسامة لاحت على وجهها قالت :

« اتبعني من فضلك ! » .

قالتها بإنجليزية واضحة وهي تستدير مغادرة الغرفة فوراً ... تلفت نبيل حوله نحو الرجلين المحيطين به ، ثم استقرت عيناه عند أبي سليم فقال :

« حاشوك إمتى ؟ ! » .

قال أبو سليم باسمًا :

« مارشيل حاتقول على كل حاجة ! » .

\* \* \*

قال نبيل سالم فيما بعد إنه لم يكن يتمنى في ذلك اليوم شيئاً إلا أن يعطى فرصة كي يلتقط فيها أنفاسه ، لكن الأحداث تتلاحق في سرعة لم تعطه الفرصة أبداً للتوقف أو التأمل أو التفكير ... قال إن العرض الذي قدمه له السيد اسكالكو كان مرضياً ، لكن ما كان يشغل باله هو ذلك الإيصال الذي وقع في لحظة لم يكن يستطيع فيها إلا أن يوقع على دين مقداره ربع مليون مارك ألماني ... وإنه كان متلهفاً للحديث مع أبي سليم حول هذا الأمر ... لكن مارشيل قاده من مكتب اسكالكو مخترقة به ذلك البهو الذي يلي باب المبنى صاعدة السلم المؤدي إلى الطابق العلوي فتبعها ... عندما أصبحا في ذلك الممر الذي ينتهي بغرفة باروخ التي قضى فيها عشر ساعات منذ يوم واحد ، قاده مارشيل إلى غرفة أخرى عرف فيها مكتبها هي ... كانت الغرفة صغيرة

لكنها كانت أنيقة وثمة فائزة بها بعض الورود التي كانت ترسل شذاها فإذا جو الغرفة معطر برائحة الورود مختلطة بذلك العطر الذي كان يفوح من أعطاف تلك الفتاة الخضراء العينين ... أشارت إلى مقعد أمام مكتبها وجلست قائلة بإنجليزية سليمة تماماً :

« والآن ... هل تحب أن تفاهم بالإنجليزية أم إنك ربما تحب التفاهم بالإيطالية ! »

قال نبيل في حرج :

« أنا لا أتقن من الإيطالية سوى بضع كلمات لا أعتقد أنها تكفي للتفاهم ! »

« ولم لا تحاول .. ومع قليل من الجهد سيصبح الأمر أكثر سهولة ! »

كان واضحاً أنها قد اتخذت القرار فتساءل :

« هل نحاول بالحوار ؟ ! »

« وقليل من الدراسة ! »

قالت هذا وهي تخرج من درج مكتبها كتيباً صغيراً لتعلم اللغة الإيطالية ، فتذكر نبيل سالم شيرلي هايمان على الفور !

« لو إنك قرأت في هذا الكتاب كل يوم صفحة واحدة ، فلسوف تتحدث الإيطالية بعد شهر واحد من الآن ! »

قالت له شيرلي هايمان إنها يهودية وإنها تخاف على أهلها وبني جنسها في إسرائيل ، فهل يكتشف ذات يوم أن مارشيلاً كذلك كما اكتشف أن أبا سليم ليس بعيداً عن الظن ؟ ... تناول منها الكتاب وألقى عليه نظرة سريعة وهو يغمغم غائب الذهن :

« سأبذل قصارى جهدي ! »

« والآن ... هذا كشف بالسيارات الموجودة لدينا ... هي الآن حوالى مائتي سيارة فقط ، ولسوف تجد في الكشف أمام كل سيارة ماركتها وسنة صنعها وحالتها ولونها وثمانها وكل ما يريد المشتري أن يعرف عنها ! »

قبل أن يفتح فمه نهضت مارشيلاً إلى تلك النافذة الزجاجية المطلة على الساحة فنهض خلفها دون دعوة وكانت في الساحة أناس يتحركون ومشترون يعاينون وموظفون يشرحون .

« عليك الآن تنزل إلى الساحة وأن تدرس الموقف جيداً . »

همُّ بالحديث فإذا بها تلتفت نحوه وقد غمرته عينها الخضراوان بنظرة جعلت الرعدة تسري في جسده وهي تقول :

« لا بد إنك تعرف رغبات بني وطنك من المصريين والعرب ، وأي نوع من السيارات يفضلون ، والأثمان التي يستطيعون دفعها ... ثم ... ثم سيكون الأمر بعد ذلك سهلاً ! »

« أهذا هو كل شيء ؟ ! »

« حتى الآن ! »

قالتها وهي تعود إلى مكتبها كي تنكبَّ على أوراق كانت أمامها وتستغرق فيها وكأنه غير موجود ... أصابته خيبة أمل فسار حتى التقط ذلك الكتيب الصغير من فوق المكتب ... خطا نحو الباب خطوة فغن له أن يسأل سؤالاً ، استدار قائلاً :

« وماذا لو أنني وجدت أن السيد ... »

قاطعته دون أن ترفع إليه رأسها :

« سوف تعود إليّ في كل شيء ، ولا تشغل وقت السيد اسكالكو فأنا أستطيع إجابتك على أي سؤال ، كما إنني أستطيع أن أحل لك أية مشكلة ! »

همُّ بالإنصراف فرفعت إليه رأسها ، تسمر في مكانه عندما غمرته عينها الخضراوان بتلك النظرة الفياضة ، أحس بالضياع والحيرة عندما قالت باسمه :

« أعتقد أننا سنكون فريقاً لا بأس به ! »

اشتتم في جملتها رائحة نورية رطبت صدره ، فابتسم هاتفاً :

« أرجو هذا ... أرجو هذا ! »



ومنحته مارشيلاً شبح ابتسامة سرعان ما اختفى خلف شفيتها ، ولم يكن أمامه سوى أن يغادر الغرفة وقد داهمت ذكرياته مع شيرلي هايمان !!

\* \* \*

أمضى نبيل الجزء الأول من نهاره في الساحة يطوف بالسيارات ويدرس ويشاهد ويقارن ويتحرك على مهل وقد استغرق في التفكير . . . كان يعلم كم هي مربحة تجارة السيارات ، وكان يعلم أن لديه القدرة على اجتذاب الناس وإقناعهم فقرر أن يجمع أكبر قدر من المال . . . ذات لحظة أحس بالخدر يسري في أوصاله ورغبة عارمة في النوم ، عاد إلى المبنى وتناول فنجاناً من القهوة المركزة . . . قرر أن يخوض معركته بشراة وبلا هواة وأن يتتصر مهما كان الثمن أو العقبات ، في الواحدة عاد إلى مارشيلاً كي يتفق معها على برنامج عمل فاستقبلته بنفس النظرة القياضة لكنه تجاهل نظرتها وكانت له بضع ملاحظات استمعت إليها في اهتمام ، عندما انتهى من عمله هم بالانصراف فقالت له :

« إن السيد باروخ في انتظارك ! » .

« باروخ !؟ » .

هكذا هتف محملاً فيها بدهشة وقد داخله بعض من الاضطرابات ، سددت إليه نظرة أدارت رأسه لكنه تما لك نفسه وهو يشير ناحية مكتب باروخ ، فابتسمت قائلة :

« نعم . . . إنه في نفس المكتب ! » .

كانت لهجتها مثل ملامحها الآن تجذبك إليها وتصدك عنها في نفس الوقت . . . ولم يكن أمامه سوى أن يهز رأسه ثم يغادر الغرفة . . . سار حتى آخر الممر ، وقف بالباب حتى استرد أنفاسه ، دق دقتين جاءه بعدها صوت جهوري يصيح بالعربية :

« ادخل ! » .

انفض وهو يفتح الباب ويندفع نحو الداخل كي يطالعه أبو سليم جالساً خلف المكتب .

« أهلاً نبيل ، ادخل ! » .

خطا نحو الداخل وهو ينظر فيما حوله ولم يكن هناك سوى أبو سليم ، غمغم متقدماً من الرجل وقد وصلته الرسالة صارخة واضحة لا غموض فيها ، قال :

« مارشيلاً قالت لي إن باروخ عاوزني ! » .

ضحك أبو سليم قائلاً في مراوغة ضايقت نبيل :

« يظهر إنها فاكهة إنه لسه هنا ! » .

جلس نبيل على مقعد وثير مشرباً فسأله أبو سليم :

« إيه أخبار الشغل !؟ » .

« كويس ! » .

« وإيه أخبار سامية فهمي !؟ » .

كان السؤال مبالغاً فانتفض ملتفتاً نحو الرجل . . . أدرك نبيل بوضوح ، أن للسؤال الآن معنى آخر ، ومغزى آخر . . . فحقق قلبه بعنف أوجعه !

\* \* \*

## الفصل الثامن عشر

### انج من أجلك مصر ومن أجلك!

عندما ذكر أبو سليم اسم سامية فهمي بغتة وعلى غير انتظار ، أرتج على نبيل سالم . . . كانت سامية هي الشخص الوحيد في العالم الذي لا يريد الآن ولا يستطيع أن يواجهه أو حتى يفكر فيه . . . رغم ما كان قد احتسأه من فجاجين القهوة المركزة ، ورغم الانتعاش الذي أصابه ، إلا أن سلطان النوم راح يستولي عليه الآن بعنف . . . أحس أنه يفقد توازنه تدريجياً ، لكنه ، وهو ينظر الآن إلى أبي سليم عبر المكتب ، كان قد أدرك كل شيء بوضوح . . . تداعت شيرلي هايمان إلى ذهنه في نفس اللحظات التي كانت مارشيليا تقوم معه بنفس الدور . . . فهل تلعب مارشيليا معه نفس اللعبة ؟! . . . أحس وكأنه يهذي وراحت الأفكار تختلط في ذهنه اختلاطاً شديداً . . . فما هذا الذي يحدث له . وما هذا الذي يحيط به . . . مصادفات قدر محتوم أم أن غباءه وقلة حيلته وضعفه قادته جميعاً إلى ما هو فيه الآن . . . كان لا بد له من الرد على سؤال الرجل فقال :

« إيه اللي فكرك بسامية فهمي دلوقت يا بو سليم ؟! » .

« إحنا مش اتفقنا من الأول ؟! » .

« اتفقنا على إيه ؟! » .

« على إنك ما تفقدش علاقتك بيها ! » .

« هو أنا كنت في إيه وإلا في إيه ؟! » .

« إنت بطلت تكتب لها من إمتى ؟! » .

كان هذا السؤال الذي لا يريد أن يسمعه أو يجيب عنه ، لكن أبو سليم ظل

صامتاً محملاً فيه فاضطر إلى الغمغمة وكأنه يحدث نفسه :

« مكانش ممكن . . . مكانش ممكن ! » .

« هو إيه اللي مكانش ممكن يا نبيل ؟! » .

كان الرجل يضغط فصاح نبيل في تمرد واضح :

« يعني انت كنت عاوزني أكتب أقول لها إني باحبك في الوقت اللي كنت

فيه . . . . . » .

صمت نبيل متمللاً فقال أبو سليم :

« مين اللي قال لك تتكلم عن الحب ؟! » .

« إنت ما تعرفش علاقتي بسامية شكلها إيه ! . . . » .

« علشان كده أنا مش عاوزها تنتهي ! » .

في يأس أدرك أن الرجل لن يكف عن الضغط ، في يأس قال :

« رايه اللي مطلوب مني دلوقتي ؟! » .

« تكتب لها ثاني ! » .

قفز من مكانه كمن لُدغ ، مال نحو أبي سليم وقد تنهت كل حواسه :

« أكتب ؟! . . . أكتب أقول لها إيه ؟! » .

« قول لها اللي حصل لك ؟! » .

صرخ كالمجنون :

« إيه ؟! » .

« قول لها إنك مريت بظروف صعبة في ألمانيا ، وإنك اضطريت تسافر

إيطاليا ، وإنك دلوقت استقرت وأحوالك إتحسن وتبقت لك وظيفة

ثابتة ! » .

لوح في وجه أبي سليم بأصبعه مزمجرأ :

« شوف يا بو سليم . . . اللي أوله شرط آخره نور ! » .

رفع أبو سليم حاجبيه وقد بدت على وجهه دهشة عبرت عنها ابتسامة

ساخرة . . . وصلت الرسالة إلى نبيل فوراً فهو لم يكن في موقف من يستطيع بأن يملي شروطاً ، أحس في داخله بإنهيار مفاجيء فألقى بنفسه فوق المقعد وجاء صوته الآن متوسلاً :

« بلاش سامية فهمي من فضلك يا أبو سليم . . . خلينا في اللي إحنا فيه وبلاش سامية ! » .

نهض أبو سليم من مكانه دائراً حول المكتب :

« حاتقابل شريف بكري الليلة ؟ ! » .

أدرك نبيل أن الرجل يطرح الموضوع جانباً لكنه سوف يعود إليه إن آجلاً أو عاجلاً ، فما دخل سامية فيما هو فيه الآن . . . دهمه اكتئاب أغرقه فاستغرق فيه ، جاءه صوت الرجل يسأل :

« إيه يا نبيل ؟ ! » .

رفع نبيل إليه عينين تائهتين .

« أنا بأسالك إن كنت حاتقابل شريف الليلة ؟ ! » .

« المفروض ! » .

هم أبو سليم بالحديث ، لكن نبيل لاحقه وكأنه يعتذر عن عصبيته وجذته :  
« والمفروض إنني أنام لي ولو ساعتين علشان أعرف أشغل ! » .

ملأت الإبتسامة وجه أبي سليم ، أخرج من جيبه رزمة من الدولارات الأمريكية عد منها مائة دولار قدمها لنبيل قائلاً :

« دي مكافأة التقرير اللي كتبه عن شريف بكري رغم إنه ما كملش ! » .

جمد نبيل في مكانه وقد هاله صوت أبي سليم من بعد سحق :

« تحب تاخدمهم والأأخصمهم من الدين ؟ ! » .

« أنا عاوز أنام ! » .

قال نبيل سالم عن تلك اللحظات إنه كان يشعر وكأن جبلاً كان يجثم فوق

صدره ، أعاد أبو سليم المبلغ إلى جيبه وهو يسير نحو الباب فتبعه نبيل دون إرادة !

« على العموم كل ما كان الشغل كويس كل ما المكافأة كبرت ، وكل دينك ما اتسد ! » .

فتح له الباب فنفذ منه نبيل . . . وعندما أصبح في الطريق وحده ، كانت رغبته في البكاء تفوق كل رغبة أخرى لديه !!

\* \* \*

في المساء ، التقى نبيل سالم بشريف بكري حسب الموعد المضروب بينهما ، كان شريف كعهده مرحاً مستبشراً ودوداً منطلقاً . . . سأله نبيل إن كان قد وُفق في الحصول على عمل ، فضحك هذا قائلاً إنه لا يزال على باب الله . . . فقال نبيل ضاحكاً :

« إلحق لاقني شغل وحوش علشان أنا اللي حاجيب لك العربية اللي نفسك فيها ! » .

نظر إليه شريف نظرة استفسار ، فقال نبيل :

« أصلي لقيت شغل النهار ده ! » .

ولقد كانت مناسبة هامة لا بد من الاحتفال بها بين الصديقين الذين راحا يجوبان شوارع نابولي معاً . . . قال نبيل لشريف إنه كان يسير في الشوارع على غير هدى عندما وجد نفسه داخل ساحة لبيع السيارات المستعملة . . . تذكر شريف ورغبته في شراء سيارة قبل عودته إلى مصر ، فقام بجولة بين السيارات وهو يقارن بين الموديلات والأثمان . . . تصادف وجود رجل عربي كان يحاول شراء سيارة من رجل إيطالي وكان الحوار بينهما عسيراً . . . ذلك أن العربي لم يكن يتحدث من اللغات الأجنبية سوى الإنجليزية ، بينما الإيطالي لا يعرف سوى لغته . . . وهكذا ، ولأن نبيل يتقن من الإيطالية بضع كلمات ، فلقد تدخل بينهما حتى تمت الصفقة . . . هم بالمشير عندما دعاه الرجل الإيطالي الذي عرف أن اسمه سنيور اسكالكو إلى فنجان من القهوة في مكتبه ، كان

الرجل سعيداً وهو يشكره على الجهد الذي بذله ، وشفع شكره هذا بأن نفحه بضعة آلاف من الليرات الإيطالية . . . قال نبيل لشريف بكري إنه دهش متسائلاً عن السبب في إعطائه هذا المال ، فقال الرجل إنه بذل جهداً لإتمام الصفقة ، وهذا حقه نظير الجهد المبذول . . . وهكذا ، قادهما الحوار إلى أن عرض السنيور اسكالكو على نبيل أن يعمل معه في الجراج نظير مرتب لا بأس به ، ونسبة على كل سيارة يبيعها !

هكذا كانت القصة التي لقنها أبو سليم لنبيل متقنة مقنعة ، وهكذا قصها نبيل على شريف مضيفاً إليها من الحواشي ما جعل شريف يعلن دهشته وسعاده معاً . . . وما أن انقضت تلك الليلة حتى كان عدد لا بأس به من المصريين قد تعرفوا على نبيل سالم ، وكانت الليلة مريحة ، ارتاد فيها نبيل وشريف أماكن عدة . . . وكان لا بد للحوار أن يأخذ مجراه وللأحداث أن تتشعب ، فما أن مضت ساعتان حتى عرف نبيل من شريف بكري كل ما كان يريد أن يعرفه عنه . . . بدا له الأمر سهلاً سهولة شديدة ، بل . . . بل إن كل ما حصل عليه نبيل من شريف لم يكن - من وجهة نظره - يمثل أية خطورة . . . فما الذي ستجنيه إسرائيل إذا ما عرفت أن شريف موظف في وزارة الصناعة وأن والده مدير إدارة في إحدى المؤسسات الصحفية وأن والدته مفتشة بوزارة العمل ، وأن أخاه ضابط في الصاعقة ، وأخته أستاذة جامعية !!؟

حصل نبيل سالم بسهولة شديدة على كل المعلومات التي يريد معرفتها عن شريف بكري . . . وكان شريف - من ناحية أخرى - وبعد مضي أقل من ساعة قد تيقن من هدف نبيل تماماً ، فراح يتطوع في بعض الأحيان بالإدلاء ببعض المعلومات التي جعلت لعاب أبو سليم يسيل عندما التقى فيما بعد بنبيل !

« بعد ذلك بسنوات طويلة ، اعترف لي عادل مكى أن هذه كانت المرة الأولى التي تعرف فيها المخابرات المصرية أن ساحة السيارات تلك كانت واجهه أو ساتراً اتخذته المخابرات الإسرائيلية كي تمارس من خلاله نشاطها في اصطبياد العديد من الشباب ، بن ومن الشخصيات العربية والمصرية بالذات . . . وأن نشاط ذلك الساتر كان يتزايد يوماً بعد يوم حتى أصبح يمثل مركزاً خطيراً لشبكة من أكثر شبكات الموساد نشاطاً ! » .

« كما اعترف لي بعد إلحاح طال ، وتذمر لم يحاول أن يخفيه ، أن المعلومات التي أدلى بها شريف بكري إلى نبيل سالم كانت صحيحة تماماً ، وأن شريف عندما عاد إلى عمله في القاهرة بوزارة الصناعة ، كان قد أصبح - أثناء وبعد شرائه للسيارة - على علاقة مباشرة بالسيد اسكالكو أولاً ، ثم بأبي سليم ، وهي علاقة لم يعرف عنها نبيل شيئاً على الإطلاق . . . لكنه رفض أن يخوض في الحديث بعد ذلك بكلمة واحدة !! » .

ولكن . . . ومن وسط أحداث تلك الليلة التي امتلأت بالحوار والأحداث والحديث عن الوطن والنكسة والعودة والهجرة وما يجب وما لا يجب . . . كان ثمة دقائق لها وزنها الخاص ، ليس عند المخابرات الإسرائيلية فقط ، ولكن عند نبيل سالم ، وربما المخابرات المصرية أيضاً !

فلقد التقى نبيل وشريف أثناء تجوالهما بمجموعة من المصريين كانوا قد احتلوا ركناً في أحد تلك البارات أو المقاهي التي تشبه الكهوف وتقدم أرخص أنواع المشروبات والأطعمة والتي تنتثر بالمشات فيما حول الميناء الكبير . . . كانت مصادفة تلك التي ألفت بهما في طريق هذه المجموعة التي كان بينها صحفي شاب وطبيب حديث التخرج وطالب في كلية الهندسة ثم فتاة في حوالي الخامسة والعشرين ، شديدة النحافة ، مسترجلة الطبع والتصرف ، مستقيمة استقامة صارمة ، ولقد عرف نبيل أثناء الحوار الذي احتدم حول النكسة وأسبابها ، إنها تعمل مندوبة إعلانات بإحدى المؤسسات الصحفية ، وكانت هي نفس المؤسسة التي تعمل فيها سامية فهمي . . . وما أن ذكرت الفتاة - التي كان اسمها زينب درويش - مكان عملها حتى وجد نبيل نفسه يسأل :

« على كده إنتي تعرفي سامية فهمي ! » .

قالت زينب في دهشة :

« سامية . . . دي حبيبتي ! » .

ابتسم نبيل ولزم الصمت فأردفت زينب :

« إنت تعرفها !؟ » .

« يعني ! » .

« هو إيه اللي يعني ... ده مش جواب ! » .

« إنتي عاوزة إيه بالضبط ؟ ! » .

« إنت تعرف سامية فهمي مين ؟ ! » .

« قرييتي ! » .

« مش ممكن ! » .

« إشمعني ؟ ! » .

« علشان سامية فهمي بالذات مش ممكن يكون لها قرايب صعاليك

زيك ! » .

كانت قفشة ضحك لها الجميع في مرج ، غير أن نبيل لم يضحك ، بل بدا

وقد أربد وجهه .

« إنت زعلت يا أستاذ نبيل ؟ ! » .

« إيه اللي خلاكي تقولي كده يا أستاذة زينب ؟ ! » .

بدت على زينب الحيرة وهي تردد البصر فيمن حولها قائلة :

« ما عرفش ... بيتهالي إني كنت باهزر ! » .

كان هذا اعتذاراً كافياً ، لكن زينب أردفت :

« ثم إني باعتقد - من غير ما تزعل - إن كلنا كده صعاليك ! » .

« بس أنا مش صعلوك ! » .

صاح الصحفي :

« وهي الصعلكة وحشة ؟ ! » .

« أنا إنسان محترم ولي وظيفة محترمة وبالكسب فلوس بعرق جبينتي ! » .

قال نبيل هذا بحدة فساد الصمت والوجوم ورفرف الحرج فوق رؤوس

الجميع ... وكان نبيل يتساءل عن سر غضبه هذا الذي انفجر دون مبرر

كافٍ ... راح يسأل نفسه إلى هذا الحد يخشى أن تعرف سامية عنه ما

يشين ؟ ! ... خرج من سهومه على صوت زينب درويش وهي تستعد  
للانصراف قائلة :

« على كل الأحوال أنا آسفة اللي خرجت عن حدودي ! » .

زاد أدبها من عمق جرحه فهتف في حرارة :

« أنا اللي آسف ! » .

توقفت محملقة فيه فقال :

« أنا يمكن أكون عصبي شويه لأنني استلمت شغل جديد النهار ده ! »

وهكذا ، عاد الحديث إلى مجراه وقد صفت النفوس !

\* \* \*

« غلط ... غلط ! » .

« هو إيه غلط يا بو سليم ! » .

« عصبيتك دي كانت غلط ، وكلامك غلط ، واعتذارك غلط ! » .

« آهوه اللي حصل ! » .

« مفيش حاجة اسمها اللي حصل يا أستاذ ! » .

« أبو سليم ؟ ! » .

« ثم إيه اللي خلاك تقول إن سامية قريبتك مش خطيتك ؟ ! » .

« ما اعرفش ! » .

« مش فيه احتمال إن زينب درويش دي تقول لها على اللي حصل ! » .

« وافرض » .

« إنت قلت لي إن سامية بتعتبر إنكم مخطوبين ! » .

« أيوه ! » .

« عاوز تجرح شعورها وتحرجها قدام زملاءها ؟ ! » .

« ما خطرش بيالي ده ! » .

« كان لازم يخطر ببالك ، وكان لازم تتبه ! » .

صرخ نبيل محتجاً :

« وكان لازم أنام وآخذ راحة علشان مخي يفكر ! » .

« وإيه اللي منعتك ! » .

« انت ! » .

« إزاي !؟ » .

« تقدر تقول لي أنا حاقد على كل ده إزاي !؟ » .

« مش فاهم ! » .

« أنا علشان أجيب الأخبار اللي انت عاوزها سهرت لحد الساعة ستة

الصبح ، وكان لازم أروح الجراح الساعة تسعة ! » .

« ودي فيها إيه !؟ » .

« الخواجه اسكالكو لازم يراعي المسألة دي شوية ! » .

صمت أبو سليم قليلاً ، ثم مال على نبيل في جدية بدت في نظراته ونبرة

صوته :

« الخواجه اسكالكو مالوش دعوة بحاجة غير شغله ، ولا يعرفش عتنا

حاجة غير إننا بنشتغل معاه في تجارة العربيات ! » .

أدرك نبيل أنه من المستحيل أن يفك الحصار الذي ضرب من حوله ، عاد مرة أخرى إلى الاستسلام . . . بعد لحظة صمت سأل أبو سليم :

« وإيه اللي اتقال على سامية فهمي ثاني !؟ » .

« ولا حاجة . . . كل اللي قالوه إنها بتكتب بصراحة ولا بيهماش حد ! » .

« غريبة ! » .

« إيه اللي غريب في ده . . . سامية كده طول عمرها ! » .

« حتى ولو كانت صريحة وطول عمرها كده . . . إزاي بيسيوها ، إزاي

بيشروا لها ! » .

كان السؤال واضحاً ، لكن نبيل لم يكن يملك إجابة . . . عاد أبو سليم

يقول :

« في نظام زي نظام عبد الناصر ، اللي بيكتب بالشكل ده بيبقى

مسنود ! » .

« قصدك إيه !؟ » .

« قصدي إنك تكتب لها يمكن تنفعك في يوم من الأيام ! » .

كانت الجملة موجبة بقدر كاف ، وكانت - في نفس الوقت - تدق على ذلك الوتر الذي يدفع إلى الحركة الذاتية دفاعاً عن النفس . . . فلقد هتف :

« وبعد ما أكتب لها !؟ » .

« حاترد عليك ، وترجع اللي فات ! » .

« تفتكر المسألة تستاهل !؟ » .

« إنت وشطارتك ! » .

وهكذا . . . وقبل أن يكتب نبيل سالم تقريره عن تلك الليلة ، جلس إلى الورق والقلم ، وراح يكتب خطابه الأول لسامية فهمي من إيطاليا !

\* \* \*

قالت لي سامية فهمي وهي ترتجف انفعالاً مع استعادتها لذكريات تلك الأيام . . . إنها كانت في ذلك الوقت أسعد فتاة في العالم . . . كانت خطابات نبيل قد انقطعت منذ شهور طالت ، واضطرت هي الأخرى إلى التوقف عن الكتابة لكن القلق كان ينهشها خوفاً على نبيل . . . قالت إنها لم تشك لحظة واحدة في إخلاصه لها ، لكن الفكرة التي سيطرت عليها في تلك الأيام هي فكرة مرضه إلى الحد الذي دفعها إلى التفكير في السفر إلى ألمانيا للبحث عنه والاطمئنان عليه . . . كانت مصر في تلك الأيام تبدو كخليفة نحل لا تكف ولا تهدأ ليلاً أو نهاراً ، أفاق الناس من صدمة النكسة فاندفعوا يعملون جهد طاقاتهم . . . أصبحت مصر مثل آلة هائلة تتحرك جميع أجزائها في اتجاه واحد . . . هو التحرير !!

امتص العمل التنظيمي جزءاً كبيراً من وقتها خاصة بعد أن التحقت بالمعهد العالي للدراسات الاشتراكية . . . في تلك الأيام جاءت مظاهرات الطلبة تعبيراً عن قلق الشباب البالغ حول مصير أمتهم . . . وكانت هي من المدافعين عنهم رغم ما كلفها هذا من جهد ومناقشات واتهامات خاصة في اجتماعات التنظيم الطلابي أو محاضرات المعهد الاشتراكي حتى أحست ذات يوم أنها تحارب في



جبهة وحدها . . . وسط هذا الأتون الملتهب وصلتها رسالة نبيل الأولى كجائزة أهدتها لها السماء . . . قرأت خطابه القصير عشر مرات قبل أن تمسك بالقلم وتكتب له :

« نبيل . . . »

« جوابك وصلني ، فرحت بيه جداً ، مشغولة لشوشتي وقلقانة عليك . . . مبروك الشغل الجديد ، ومبروك عليك إيطاليا وبناتها الحلوين . . . اشتغل يا نبيل ، اشتغل جامد وانجح ، لازم تنجح . . . انجح علشان مصر وعلشاني . . . سامية . »

كتبت الخطاب بسرعة لأنها كانت على موعد مع ندوة سوف تعقد في أمانة الدعوة والفكر بالإتحاد الاشتراكي لمناقشة موضوع مظاهرات الطلبة !! .

\* \* \*

كانت سامية قد قررت عقب مغادرتها لعادل مكي في ذلك الصباح دون حديث أن تواجه نفسها مهما كانت العقبات أو العواقب ، أحست أنها أنهكت هذا الرجل بقدر يكفي لأن تقف على قدميها ، خاصة عندما طلبته في التليفون بعد مغادرتها إياه طالبة موعداً في نفس اليوم لكنه أجل الموعد إلى ما بعد الغد . . .

قالت لي سامية إن هذا الأمر صدمها للوهلة الأولى صدمة روعتها .

وقال لي عادل مكي ونحن نناقش هذا الموضوع ، إن هذا شيء طبيعي للغاية ، فلقد لاحظ أن كل مَنْ يُقَدِّم على تلك الخطوة التي أقدمت عليها سامية فهمي ، يشعر في أعماقه - ربما بلا وعي - أنه يقدم لبلاده خدمة جليلة على كل الناس أن يقفوا لها احتراماً . . . وهذا حقيقي بالتأكيد ، لكن المبالغة النفسية في مثل هذه الأمور قد تفسدها . . . وهو ، كان يعلم يقيناً إن سامية تمر بمحنة ، وإن المحنة قد ضغطت عليها إلى الحد الذي أصبحت فيه في حاجة إلى الراحة ، وإعمال العقل ، والتفكير بروية ودون انفعال ولولا إحساسه بما كانت سامية تعانيه من ضغوط لكان قد أجل الموعد أسبوعاً كاملاً !

قال : إن التحرك في مثل هذا الحقل يستلزم قدراً كبيراً من صفاء الذهن . . . وإن ذهن سامية بالقطع لم يكن صافياً في تلك الأيام الأولى . . . ولقد كان هو في حاجة إليها وإلى صفاء ذهنها ، كما كانت هي في حاجة إلى وقت حتى تستطيع استيعاب الحقائق التي كانت مقدمة على مواجهتها . . . ثم ، وعلى الوجه الآخر ، كانت خطابات نبيل سالم التي جاءت بهها سامية ، تحتاج منه إلى بعض الوقت كي يكمل من خلالها صورة العملية بقدر ما يستطيع من وضوح حتى في أدق التفاصيل وأصغرها . . . ولم يكن الأمر - فوق كل هذا - أمر قراءة أو تحليل واستنتاج فقط ، بل كانت هناك علوم أخرى لا بد وأن تقول كلمتها في الأمر بعد تحليل الخط ونوع الورق والحبر وما إلى ذلك !

وعلى هذا ، فما أن مرَّ ذلك اليوم ، وجاء الصباح التالي حيث موعد سامية معه ، حتى كان على استعداد لسماع القصة منها ، والسير بالأمر كله نحو نهاية كانت تبدو ضرورية إلى أقصى حد !!

... ..  
... ..

نظرت السيدة إقبال حسين نحو ابنتها وقالت باسمه :

« نعمتي كويس الليلة ؟! » .

« نعمت يا ماما . . . نعمت فعلاً بس مش كويس قوي ! » .

« ليه ؟! » .

« بيتهيا لي إنني حانام الليلة نوم عميق جداً ! » .

كان صوت سامية الآن ، ونبرتها ، وأسلوبها . . . توحى جميعاً أن ثمة شيء جديد يلون فكر هذه الفتاة التي عاشت الأسابيع الماضية في أنون ملتهب من جحيم لا يرى !

« عندك ميعاد تنظيمي برضه ؟! » .

« أيوه ! » .

« نفس الميعاد ؟! » .

رفعت سامية رأسها نحو أمها وكانت حضرة الناظرة تبسم ... داخلتها الحيرة نحو أمها فتساءلت فيما بينها وبين نفسها إن كانت أمها تعلم أنها تذهب إلى المخابرات مثلما كانت تعلم أنها انضمت إلى التنظيم الطليعي ؟ ... واجهت ابتسامة أمها بابتسامة واثقة ، مدت يدها تمسك بيد أمها في حنان ، قالت هامة :

« ماما ... ما تخافيش علي ! » .

« ما اقدرش !! » .

« وإذا وعدتك إنني مش حاتصرف إلا التصرف الصحيح ... تبطلني قلق ؟ ! » .

هربت السيدة إقبال من نظرات ابتها ، غمغمت :

« على العموم إنتي النهار ده أحسن كثير ! » .

وكان هذا بالضبط ما كانت تفكر فيه سامية منذ أن استيقظت في الصباح ... كان الحزن موجوداً والألم قائماً ومرارة الهزيمة كالمر في حلقها ، لكنها كانت تشعر إنها الآن أقدر على مواجهة الأمر بعد أن عايشته طوال تلك الأسابيع !!

وبالنسبة إليها ، فلقد كان الأمس عاصفاً ، اعتزلت الحياة والناس ، أرادت مواجهة كل شيء في أقصى مدى يمكن أن يصل إليه وفي أقصى صورة أيضاً ... استقلت الأتوبيس إلى حلوان ، وهناك انزوت على شاطئ النيل في ذلك الركن الذي كان اسمه « ركن فاروق » ثم أصبح مشاعاً للشعب يرتاده ويحتسي فيه القهوة والشاي ... هنا كانت تلتقي بنيل أحياناً ... راحت تحمق في النيل وفي رأسها عراك صارخ ، مضت الساعات فإذا هي تواجه الأمر بافتراض أن نبيل قد خان بالفعل ، فهل يستحق حبها إذا ما فعل ؟ ! ... قالت وهي تنهض سائرة على الشاطئ :

« فليذهب إلى الجحيم !! » .

أدركت وهي تجلس أمام أمها الآن على مائدة الافطار أن عادل مكى كان على حق عندما أجل اللقاء يوماً ، قررت إذا ما ذهبت إليه والتقت به أن تقص

عليه كل شيء بوضوح ، ما حدث فعلاً وما خامرها من شكوك وما لفت نظرها من تصرفات ... هذا هو السبيل الوحيد للخلاص مما هي فيه !

« تحبي نوصلك بالعربية يا سامية ؟ ! » .

« لا يا ماما ... أنا عاوزة أروح لوحدي ! » .

كانتا الآن وكأنهما تتكاشفان وتتفاهمان على كل شيء مما أعاد الحياة بينهما صافية قبل أن تغادر أمها البيت قبلتها في جبهتها هامة :

« ربنا يحرسك يا بنتي ! » .

تأثرت سامية من دعاء أمها التي لم تكن قد تعودت أو عودتها على مثله ، غادرت البيت بعد دقائق واستقلت سيارة أجرة ... وفي الموعد المحدد بالضبط ، كانت تجلس إلى عادل مكى !

« أولاً أنا عاوزة أعتذر من كل اللي حصل مني من ساعة ما جيت لك ! » .

« مفيش ما يدعو للإعتذار على الإطلاق ! » .

كان صوته جاداً ونبرته مستقيمة مما أكد أنه يعني ما قال تماماً .

« ودلوقت ... حضرتك عاوزني أبدأ من الأول خالص ! » .

« إبدأي من أي حته تحبي إنك تبدأي منها ! » .

ولقد اختارت سامية فهمي أن تبدأ قصتها منذ وصول أول خطاب أرسله نبيل من نابولي !

« لأنني حاسه بشكل ما ، وما اعرفش ليه ، إن الجواب ده بالذات كان بداية مرحلة جديدة خالص ، مش في حياة نبيل بس ... لكن كمان في علاقتي بيه ! » .

ابتسم عادل مكى وكانت ابتسامته نابعة من قلبه ... بدت له سامية فهمي وكأن الألام قد طهرتها فجاءها الإحساس من خلال وجدان يقظ ... كما كان يعلم الآن علم اليقين ، إن هذه هي سامية فهمي التي انتظرها ، وعرف آراءها ... فهل تكمل معه المشوار ؟ !

\* \* \*

## الفصل التاسع عشر

### العودة منصرفاً !

بدأت سامية فهمي الحديث مع عادل مكي وكأنها تختزن ما لديها من معلومات تحت سطح محكم فتحته يد سحرية فراح تدفق بلا توقف كما يريد التخلص من عبء يجثم على صدره ويقيد حركته . . . قالت إنها ظنت عندما وصلها ذلك الخطاب الأول الذي أرسله إليها نبيل سالم من نابولي ، أنه ربما اضطر لإرساله بعد أن التقى بزینب درویش . . . فسألها عادل مكي في دهشة لم يحاول أن يخفيها بقدر ما حاول أن يظهرها :

« مين زينب درویش دي ؟! » .

« دي مندوبة إعلانات عندنا في المجلة ! » .

« وإزاي قابلت نبيل ؟! » .

« كانت مسافرة إيطاليا علشان تشتري عربية وقابلته هناك ! » .

« ليها نشاط سياسي ؟! » .

بدا لها السؤال غريباً غرابة اهتمام عادل مكي بأمر كهذا ، فأحست سامية أنها أدلت إليه بمعلومة هامة ، ولذلك . . . فلقد راحت تستجلب ما حدث بدقه شديدة حتى تقدم له الصورة واضحة أشد ما يكون الوضوح . . . ولقد قالت لي سامية فهمي عن هذا اللقاء بالذات ، إنها استشعرت لأول مرة أهمية خاصة لتلك التفاصيل التي لا تنتبه لها عادة في حياتنا اليومية ، فإذا بها عند هؤلاء الناس تعني الكثير مما لا ندركه نحن . . . عادت بالذاكرة إلى الوراء قليلاً كي تقول إنها لا تعرف الكثير عن زينب درویش ، وهي لا تظن أن لها نشاطاً سياسياً بشكل أو بآخر ، لأنه لو كان الأمر كذلك لعرفته بدهاءة ، ولالتقت بها في الاتحاد

الاشتراكي أو حتى في اجتماعات الوحدة بالمؤسسة .

وعلى كل . . . فالذي تذكره يقيناً أن قلقها على نبيل سالم في تلك الأيام ، وقبل لقائها بزینب درویش ، كان قد وصل إلى ذروته . . . لكنه ، وبالرغم من انشغالها الشديد في العمل السياسي ، خاصة بعد التحاقها بالمعهد العالي للدراسات الاشتراكية ، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها كل ليلة ، قبل أن تأوي إلى فراشها ، من التفكير في نبيل !

قالت سامية : إن ثقتها فيه لم تهتز حقاً . . . إلا أنها كامراً أو فتاة لها طبيعة خاصة لا يمكن التغلب عليها أو تغييرها ، كانت تفكر فيما إذا كان نبيل قد وقع في حب فتاة أوروبية أنسته جبهما وعلاقتهما . . . وكلما مرت الأيام ، كان هذا الإحساس ينمو في صدرها ويتضخم مما أورثها نوعاً من الحزن اعتادت عليه واعتاد عليها ، بل - وهذا ما أدهشها أشد الدهشة - أنها استراحت إلى هذا الحزن وكأنه ملجأ وجدت فيه راحة افتقدتها كثيراً !!

هكذا كان حالها حين طلبت زينب درویش أن تراها . . . ولقد حدث هذا ذات صباح كانت تجلس فيه إلى مكتبها في المجلة عندما دق جرس التليفون ، ومن الطرف الآخر جاءها صوت الفتاة :

« أنا زينب يا أستاذة سامية ! » .

« زينب مين يا فندم ؟! » .

« زينب درویش اللي في الإعلانات ! » .

صاحت سامية معتذرة :

« أهلاً يا زينب . . . أنا ما عرفتش صوتك ! » .

« عندك وقت أشرب معاكى قهوة ؟! » .

بدا لها السؤال غريباً فلزمت الصمت لثوانٍ خاطفة لكنها لم تلبث أن هفت :

« اتفضلي ! » .

ظنت سامية في البداية أن زينب سوف تطلب منها تحرير واحدة من تلك

الصفحات الإعلانية التي تظهر في الصحف والمجلات في صورة تحقيقات أو مقالات حول شركة من الشركات أو مؤسسة من المؤسسات . . . كانت سامية - في اجتماعات التنظيم الطليعي - قد اشتركت في مناقشة تلك القضية التي أثارت فائت زويدة من المناقشات انتهت بهزيمة ساحقة لهؤلاء الذين كانوا يبعون صحافة خالية من الشوائب . . . فلقد اعتاد بعض المحررين - رغبة منهم في زيادة دخلهم - كتابة تلك الصفحات الإعلانية نظير أجر تدفعه إعلانات المجلة . . . وكان هناك فريق يرى أن هذا قد يؤثر - ولو في المدى الطويل - على أداء المحرر نفسه ، خاصة وأن بعض الشركات المعلنة - وكان أغلبها شركات قطاع عام !!! - بدأت تطلب أسماء معينة لكتابة تلك الإعلانات ، وكان أصحاب هذا الرأي ، من الرافضين للمبدأ ، يطرحون فكرة الخوف من التناقض الذي قد ينشأ في رأس المحرر عندما يصبح عليه أن ينقد وضعاً في شركة ، وفي الوقت نفسه يكتب إعلاناً يتقاضى عن كتابته أجراً ، يمتدح كل أوضاع تلك الشركة ! . . . وكان هناك فريق آخر يرى أن الأمر لا غبار عليه ، وأن زيادة دخل المؤسسة بالإعلان ، ودخل المحرر بالأجر الحلال ، ليس جريمة ، بل واجب !! . . . وعلى كل الأحوال ، فلقد كانت المعركة في تلك الأيام حامية ومستعرة ، ولقد تصورت سامية فهمي ، أن زينب طلبت لقاءها كي تعرض عليها تحرير واحد من تلك الإعلانات نظير أجر معين . . . وبينها وبين نفسها ، فلقد ابتسمت في سخرية ، فهي تعرف أنها سترفض العرض مهما كان الأمر ، لأنها كانت من أشد أعضاء الفريق حماساً لوقف مثل هذا الهزل الذي قد يُحوّل الصحفي من قاضٍ يحكم بما يراه عدلاً ، إلى متنفذ قد تمنعه مصلحته ذات يوم من القيام بواجب . . . وعندما وصلت زينب ، بالغت سامية في الترحيب بها حتى لا تظن تلك الفتاة الطيبة الكادحة ، أن ثمة موقفاً شخصياً في الأمر !

غير أن المفاجأة هزت سامية حتى الأعماق عندما جلست الفتاة إلى جوارها ، وقبل أن تطلب القهوة الذي وعدتها به سألتها هامة :

« إنتي تعرفي واحد اسمه نبيل ؟ » .

هتفت سامية وقلبها يخفق في عنف .

« نبيل سالم ؟ » .

« نبيل الجيزي ! » .

رددت سامية الاسم وراء زينب وقد بدت عليها خيبة الأمل :

« لا ! » .

هكذا قالت ، لكنها عادت عندما أضاء ذهنها باسم عائلة نبيل - وكانت تعرفه طبعاً - تهتف :

« أيوه أيوه . . . هو نبيل سالم ، إنتي قابلتيه ؟ » .

« وسهرت معاه . . . ويسلم عليكى ! » .

« سهرتي معاه فين ؟ » .

« في نابولي ! » .

« بس اللي أنا أعرفه ان نبيل في ألمانيا ! » .

« لا . . . ده في نابولي ، وسهرت معاه ليلة بحالها ، واتخاقتنا ! » .

« ليه ؟ » .

« أصلي غلطت في حقه من غير قصد ! » .

وحكت لها زينب درويش قصة تلك الليلة التي سهرت فيها مع نبيل ، قالت إنها سعدت سعادة حقيقية لغضب نبيل الذي كان يحترم نفسه احتراماً واضحاً لدرجة أنه رفض منها مداعبة بريئة . . . قالت إن نبيل أنبأها أن سامية قرييته ، فانقبض قلب سامية متسائلة :

« هو قال لك كده ؟ » .

« طبعاً . . . هو قريك بصحيح يا آنسة سامية ؟ » .

في ذلك اليوم أدركت سامية فهمي أن نبيل قد ابتعد عنها . . . ففي الوقت الذي كانت تعلن فيه للناس جميعاً أنها تحبه ، وأنهما مخطوبان . . . ينفصل هو ، في بلد بعيد عن مصر ، من هذا الحب !

غير أن سامية قد أحست - مع الحزن وخيبة الأمل - بسعادة خفية لأن نبيل

يحترم نفسه ولقد سألت زينب عن العمل الذي يمارسه في نابولي، فقالت الفتاة:  
« يشتغل في العربيات ، وكان ليلتها لسه ماسك شغل جديد ! » .  
« هو اللي اشتري لك عربيتك ؟ ! » .  
« هو عرض علي ده بعد ما اعتذرت له ، لكن أنا كنت اشتريت العربية  
خلاص ! » .

ثم مضت أيام ، ووصلها ذلك الخطاب الأول من نبيل الذي قال لها فيه إنه  
مرُّ بظروف صعبة ، وأن مرضاً قد ألَمَّ به فلم يشأ أن يكتب لها حتى لا يشغلها  
بأمرة أو مرضه ، وأنه اضطر إلى الرحيل جنوباً إلى إيطاليا حتى وجد عملاً  
مستقراً ومريحاً في نفس الوقت ، ثم راح يحدثها في خطابه هذا عن الأمل في  
المستقبل ، قال لها إنه يعمل في تجارة السيارات - هكذا لقنه أبو سليم قائلاً :  
« ليه تكذب ؟ ! » - وما هي إلا شهور قليلة حتى يستقل ويصبح سيد نفسه ...  
وفي نهاية الخطاب كتب حاشية يقول فيها : « التقيت هنا بفتاة اسمها زينب  
درويش تعمل في الإعلانات عندكم ، قلت لها إنك قريبتى حتى لا أسبب لك  
أي نوع من الحرج ، إن كان هناك ما يدعوا إلى هذا الحرج بعد غيبتى  
الطويلة !! » .

كان أبو سليم هو الذي أوحى إليه بكتابة هذه الحاشية بعد أن قص عليه نبيل عن  
تلك الليلة التي التقى فيها بزينب درويش ... ولقد عاتبه الرجل إلى حد التعنيف على  
أنه لم يقل إن سامية خطيبته !

كانت تلك الحاشية سبباً من أسباب سعادة سامية التي دفعتها إلى الرد عليه  
بخطابها ذاك المشتعل بالحماس والأمل والثقة في المستقبل ... وجاءت  
خطابات نبيل - التي تسلمها عادل مكى بالكامل - بعد ذلك ، موحية بالإشراق  
والتفاؤل والنجاح ، مما دفعها لأن تكتب له بانتظام ... وعلى مدى شهور  
ثلاثة ، تبادلوا الرسائل معاً بحماس وحب جعل من سامية - كما قالت - أسعد فتاة  
في الدنيا !

... ..  
... ..

كان عادل مكى يستمع إلى سامية فهمي وقلبه يتمزق حقاً ، ففي تلك الأيام  
التي كانت تحدث عنها ، كان يعرف يقيناً أن ثمة هدف يُوجّه إليه نبيل سالم ،  
هدف بدا له غامضاً وإن كان متصلاً اتصالاً وثيقاً بتلك الممارسات الشيطانية  
التي كان يمارسها ذلك الشاب التمس في نابولي وكأنه يريد الانتقام من  
مجهول !

استطاع نبيل أن يصبح واحداً من أشهر سماسرة السيارات في نابولي ،  
وذاع صيته ، ليس بين المصريين في ذلك الميناء الإيطالي فحسب ، بل في  
مصر أيضاً ... وما هي إلا بضعة أسابيع حتى كان العائدون بالسيارات من  
إيطاليا ، يرشدون الذين يزعمون السفر إلى هناك لاقتناء سيارة إلى نبيل  
سالم ... كانوا يعطونهم رقم تليفونه وعنوان الجراج الذي يعمل به ...  
والغريب في الأمر ، أن بعض هؤلاء العائدين ، كانوا يؤكدون - وهم يحكون عن  
نبيل - مما لاحظوه وراوه بأنفسهم ، أنه إن لم يكن مالكا لهذا الجراج الكبير ،  
فهو على الأقل شريكاً فيه !!

وفي خلال أربعة أسابيع أو خمسة ، استطاع نبيل أن يحقق للجراج رقماً  
قياسياً في المبيعات والأرباح لدرجة أدهشت ذلك السنيور اسكالكو صاحب  
الجراج ... كانت مواهبه تفصح عن نفسها بوضوح ، وسرى اسمه بين  
المصريين وازداد عدد الباحثين والسائلين عنه ... وكان لا بد والأمر كذلك ،  
أن تتطور علاقة نبيل بأبي سليم بسرعة ... حتى جاء وقت كان يكفي أن يدلي  
فيه الرجل بملاحظة مجرد ملاحظة عابرة ، حتى يلتقطها هذا ، وقد استخفه  
النجاح ، وينفذها على أكمل وجه !!

ومن ثم ... لم تعد العلاقة بينهما تحتاج إلى تورية أو لف أو دوران حول  
الأمر ... أصبحت العلاقة واضحة تمام الوضوح ... وما كان على نبيل إلا  
أن يلتقي بالمصريين والمصريات ، وأن يقوم بإنشاء علاقات تبدو حميمة مع  
الجميع ... ثم ينقل أسماء الذين كان يلتقي بهم ، مع ما استطاع أن يحصل  
عليه من معلومات عن صاحب كل اسم ، حتى إذا طلب منه أبو سليم الاقتراب  
أكثر من صاحب اسم بعينه ، حتى يصبح صاحب هذا الاسم ، بين يوم وليلة ،



صديقاً حميماً لنبييل سالم الذي كان يؤدي له كل ما يريد من خدمات ، ويولم له الولائم ويصحبه إلى ما ينبغي من سهرات ، كي يضع على نقاط ضعفه ، إن كان يشرب الخمر أو يعشق النساء أو يلعب الميسر ، أو ... أو ... إلى كل نقاط الضعف التي من الممكن أن تجعل السيطرة على فرد من الأفراد مسألة مستطاعة في أقل وقت ممكن !!

كان نبييل يفعل هذا بمهارة بالغة ، حتى إذا أصبح هذا الشخص ، من وجهة نظر أبي سليم ، جاهزاً ... قدمه نبييل إليه على أنه تاجر سيارات ، قدمه إليه في سهرة ، أو ماخور ، أو في « برتيتة قمار » أو حتى بمصادفة في الطريق ... فقط ، يقدمه لأبي سليم ويترك له الباقي ، مجرد تقديم ينسحب بعده نبييل ويختفي تماماً من حياة هذا الشخص !!

ولقد قال لي عادل مكي إن نبييل سالم في تلك الأيام ، كان تحت السيطرة الكاملة للمخابرات المصرية ، وإنهم كانوا يتابعون نشاطه بعين لا تغفل فلقد راحت خطورته تتزايد يوماً بعد يوم ... ولقد أدهشه أكثر ، عدد هؤلاء الذين كان يوقعهم نبييل في براثن أبي سليم وكأنه تحول إلى متعهد أنفار - هذا تعبير عادل مكي بالتحديد ، ولعله أراد بهذا التعبير أن يوضح أن عدد الذين أوقعهم ، أو حاول نبييل أن يوقعهم ، في تلك الشبكة الجهنمية ، كان كبيراً !! - وبالرغم من ذلك ، لم تكن المخابرات المصرية بقادرة على توجيه أي نوع من أنواع الاتهام إلى نبييل ، فهو - أبداً - لم يشترك في مناقشة أو مساومة أو سهرة من تلك السهرات التي كانت تسحب هؤلاء الذين وقع عليهم اختيار المخابرات الإسرائيلية ... أبداً لم يشترك ، وكان حريصاً كل الحرص ، على أن يظل بعيداً ، وأن تكون كل وظيفته ، هي تقديم الشخص المطلوب لأبي سليم أو واحد من أعوانه !

« قال لي عادل مكي إنه حتى هؤلاء الذين أبلغوا عما حدث عند عودتهم من إيطاليا ، لم يذكروا نبيلاً بسوء بل إنهم كانوا يذكرونه بالخير ، ويتحدثون عن خدماته التي أداها لهم بعرفان واضح !! » .

ولقد كانت نتيجة هذا النشاط الهائل الذي قام به نبييل ... أن ارتفع

دخله ، وأصبح قادراً على الانتقال من مسكنه المتواضع إلى مسكن آخر في حي متوسط ... فبعد أقل من شهرين ، انتقل نبييل إلى شقة مكونة من غرفتين في بناية تطل على حديقة صغيرة تتوسط ميداناً تتفجر في وسطه نافورة تندفق مياهها من فم تمثال لملاك يكاد يطير بجناحيه المنحوتين من الرخام الأبيض ... وكان كلما قدم لأبي سليم شخصاً ، خصم هذا نسبة من الدين على ظهر الإيصال الذي وقعه نبييل ... ولم تكن النسبة ثابتة ، بل كانت تتراوح فيما بين مائة دولار ، وخمسمائة حسب أهمية الشخص !

« ضحك عادل مكي وهو يحدثني عن تلك المرحلة في مرارة قائلاً : إن معنى هذا أن المخابرات الإسرائيلية لم تدفع نبييل إلى الخيانة فقط ، بل لم تكن تدفع له قرشاً نظير خيانتته تلك ... أي أنه كان يخون « بيلاش » ! ... ثم عقب على هذا الحديث بقوله : إن بعض الأغبياء من ضعاف النفوس يظنون أنهم إذا ما خانوا ، قبضوا ألوف الدولارات أو عشرات الألوف ، وهذا غير حقيقي بالمرة ... وإذا كان اليهودي قادراً على ألا يدفع لك أجر ما تفعل ، فلماذا يدفع أصلاً !!! » .

بعد شهرين من ذلك التاريخ الذي بدأ نبييل العمل فيه في الجراج ، استطاع أن يتقن اللغة الإيطالية إلى درجة أدهشت « مارشيللا » ، تلك الفتاة الصارمة التي كانت علاقتها به ، نتيجة للاحتكاك اليومي في العمل وفي دروس اللغة ، تتوطد يوماً بعد يوم ... وإذا كانت علاقته بالسنينور اسكالكو - صاحب الجراج - كانت علاقة عمل فقط ، فلقد كان الرجل ، مع سعاداته الحقيقية بنبييل وما تفجرت عنه ملكاته ومواهبه وإمكاناته ، يحاسبه بأمانة شديدة ، يمنحه بين الحين والحين مكافآت لا بأس بها !

ودون شك ، كان نبييل هو الآخر في تلك الأيام سعيداً ، ذلك أن ما كان يحظى به من نجاح ، عاد يؤكد له قدرته على تخطي الصعاب ، ثم ... إن عمله مع أبي سليم ، كان يجعله دائماً في دائرة الأمان . كان سعيداً لأن « مارشيللا » راحت تلعب معه دور « شيرلي هايمان » ، لكنه هذه المرة ، دخل إلى الحلبة مفتوح العينين - على حد قوله فيما بعد ! - وإذا كانت شيرلي هايمان قد أخبرته ذات يوم أنها يهودية وأنه مصري وأن قومه يحاربون قومها ، وإذا كانت



قد انتزعت منه وعداً بالآلا يشترك في هذه الحرب ، فلقد كان من المنطقي أن تكون هناك علاقة خفيت عنه بينها وبين أبي سليم !!

هكذا كان يفكر ، وهكذا كانت الافكار تروح وتجيء في بعض الأحيان في ذهنه مما دفعه ذات مرة لأن يسأل أبا سليم فجأة :

« إيه أخبار شيرلي هايمان يا أبو سليم ؟ » .

« إيش عرفني ؟ » .

قالها أبو سليم بحدة مشفوعة بتلك النظرة المخيفة التي كانت لا تزال تبعث بالرعب إلى نفس نبيل ، فأدرك أن الحديث حول هذا الموضوع ممنوع تماماً ، فلم يعد إليه ، ولم يفكر فيه !

ودخلت مارشيليا حياة نبيل تدريجياً . . . فلقد كانت هي - على سبيل المثال - التي تنتقي له الملابس والألوان ، فأصبح واحداً من أشد الشبان أناقة في تلك الأوساط التي كان يؤمها المصريون في المدينة مما أضفى عليه نوعاً من الاحترام والاعجاب !

وعندما طلبت منه مارشيليا ذات ليلة تناولا فيها العشاء معاً - ولقد رآه بعض المصريين في تلك الليلة يقود سيارة صغيرة في شوارع نابولي وبجواره تلك الفتاة الرائعة الجمال فحسدوه وتحذثوا كثيراً عن إمكانياته - عندما طلبت منه أن يذهب معها إلى مسكنه ، سألها في مرح الحضيف :

« ولم لا نذهب إلى مسكنك أنت ؟ » .

ولم تمنع الفتاة ، لكن هذا لم يمنعها من أن تعلن دهشتها - التي تظن أنها كانت صادقة ، فليس من الطبيعي ، حتى ولو كانت تعمل لحساب أبي سليم ، أن تعرف شيئاً عن شيرلي هايمان وعن علاقتها بنبيل أو ما حدث له في آخر زيارة لها في بيته - ولقد أجاب نبيل سالم على تلك الدهشة وذلك التساؤل الذي كانت عينا تلك الفتاة الخضراوين تطلقه كسهام موجهة إلى عقله ، بأن طلب منها أن تغفر له ، فلقد مرّ بتجربة جعلته يفكر ألف مرة قبل أن يدعو فتاة يحبها إلى بيته ؟ !

« إذن فأنت تحبني ؟ » .

ووقع نبيل في الحيرة ، فاجأه السؤال فلم يكن في حقيقة الأمر يقصد إلى المعنى الذي التقطته مارشيليا واستخدمته ببراعة . . . ولم يكن نبيل في تلك الأيام يفكر في الحب خاصة بعد شكوكه تلك التي ثارت في رأسه حول شيرلي هايمان وعلاقتها بأبي سليم . . . أصبح الحب بالنسبة إليه عبثاً ليس هناك ما يدعو لأن يتحملة وهو ييني مستقبله وحياته . . . وعلى كل ، فإن علاقة نبيل بمارشيليا كانت تختلف تماماً عن علاقته بشيرلي هايمان . . . كانت هذه علاقة يحكمها العقل بصرامة . . . ولذلك ، فلقد كان نبيل ، إذا ما استشعر ذلك الاقتراب المحسوس الذي كانت مارشيليا تنسلل به إلى حياته بعد أسابيع من التعالي والتغاضي والتجاهل ، ابتعد هو عنها محافظاً على نفس المسافة بينهما !!

... ..  
... ..

كانت خطابات سامية تصل إليه الآن بانتظام ، وكان لا بد وأن تنتبه مارشيليا إليها ، وأن تسأله عنها . . . لكن أبو سليم بالقطع ، كان يقرأها !!

حتى كان يوم التقى فيه بأبي سليم ذلك اللقاء السري الذي وضع له رجل المخابرات الإسرائيلية خطة دقيقة . . . وما كاد الحوار يبدأ بينهما ، حتى أخرج نبيل خطاباً من جيبه قائلاً :

« الجواب ده وصلني النهار ده ! » .

« من سامية برضه ؟ ! » .

قال أبو سليم هذا وهو يتناول المظروف . . .

ولقد كان الرجل قد طلب منه ألا يهمل خطاباً لسامية ، ومهما كان عدد خطاباتهما ، فلا بد وأن يرد عليها ، بل إنه في بعض الأحيان ، وبعد قراءة الخطاب ، كان يملئ عليه ما يجب أن يرد به . . . وكان نبيل يطيع دون مناقشة ، كان قد أدرك وبوضوح أن عليه أن يطيع ما يؤمر به بلا مناقشة . . . وفي

ذلك اليوم راح يرقب الرجل وهو يقرأ الخطاب المشتعل بالحب والأمل ، حتى إذا ما انتهى منه وطواه ، قال مغمغماً وكأن الفكرة طرأت على رأسه فجأة :

« أنت ما فكرتش تسافر مصر يا نبيل ؟ ! » .

فغر نبيل فاه دهشة وهو يحملق في الرجل لثوانٍ طالت دون رد .

« إيه ما لك ؟ ! » .

هكذا سأل الرجل ضاحكاً ضحكة خفيفة ، فهتف نبيل :

« إنت عاوز تخلص مني يا بو سليم ؟ ! » .

« إزاي وأنا ما اقدرش استغنى عنك ؟ ! » .

« إنت نسيت الأتربول ؟ ! » .

ضم أبو سليم ما بين حاجبيه وكأنه يحاول أن يتذكر فقال نبيل غاضباً :

« إنت عاوز تفهمني إنك كنت ناسي ؟ ! » .

« لا . . . مش كده ! » .

« آمال إزاي ؟ ! » .

« أنا مندهش لأنني ما اديتكش خبر ! » .

« بإيه ؟ ! » .

« بأن الحكاية دي اتصفت وخلصت من كام أسبوع ! » .

مال عليه نبيل وقد اجتاحه مع الفرح استفزاز جعله يهتف من بين أسنانه :

« من كام أسبوع ومخبي عليّ ؟ ! » .

اربد وجه أبي سليم وأطلقت عيناه تلك النظرة المخيفة وجاء صوته كحد السيف :

« أنا ما خيتش عليك ، أنا نسييت ! » .

همّ نبيل من مكانه مدممداً :

« إللي زيك ما ينساش يا بو سليم ! » .

« أقعد ! » .

همّ نبيل بالحديث فزمجر الرجل :

« باقول لك أقعد !! » .

ولقد جلس نبيل ، جلس وقد تذكر الدين الذي كان عليه أن يسدده ، وجواز السفر المزور الذي كان يحمله ، وعمله الذي أصبح يدر عليه من الأرباح ما مكنه من حياته تلك ونجاحه ذاك !

« إنت نسييت نفسك والأ إيه ؟ ! » .

« أنا متأسف ! » .

قالها نبيل في انهيار مفاجيء فلم يرد الرجل وكان الغضب قد سيطر عليه ، فغمغم نبيل مستطرداً :

« أنا اعتذرت يا بو سليم وآديني باعتذر ثاني ! » .

لم يرد أبو سليم ، فقط . . . مد يده إلى جيبه الداخلي كي يخرج جواز سفر نبيل الأصلي ثم يلقيه فيما بينهما فوق المائدة . . . امتدت يد نبيل كي تلتقط جواز السفر في دهشة ذاهلة :

« إيه ده » .

لم يرد عليه أبو سليم ، بينما راح يتصفح جواز السفر في فرحة طفل تاه طويلاً ثم وجد في النهاية أباه وأمه . . . بعد ثوانٍ توقفت عيناه عند صفحة في الجواز ، كان هناك خاتم الجوازات الإيطالية تمنحه تأشيرة دخول في نفس اليوم الذي دخل فيه نبيل إلى إيطاليا .

« معقول ده ؟ ! » .

أرسلت عينا أبو سليم نظرة عتاب حادة ، فمال نبيل نحوه :

« حقيقي أنا باعتذر . . . أنا كنت متسرع ! » .

هوت الجملة على رأس نبيل كمطرقة جلبت له الدوار ، هاهو الرجل يعيد إليه جواز سفره كي يرفع عن كاهله عبئاً عانى منه ، ثم . . . ثم إنه أنهى موضوع الأتربول الذي كان سيفاً مسلطاً على عنقه ، كان الرجل قد حوله في لحظة من

مطارداً إلى إنسان شريف ، فكيف يخطيء في حقه ، وكيف يشك في صدقه ؟  
 « لك حق تقول أي حاجة وتعمل أي حاجة ... بس برضه أنا آسف ! »  
 « وافترض إنني قبلت اعتذارك ، أضمن منين إنك مش حاتتسرع  
 ثاني ؟ »  
 « أوعدك بشرفي ؟ »  
 « شرفك ؟ »

قالها أبو سليم في سخرية أحس بعدها نبيل أنه سوف يتقيأ أحشاءه ...  
 كان سؤالاً في كلمة واحدة اخترقت صدره كنصل حاد وكانت لها قوة التدمير  
 ذاته ...

« للدرجة دي إنت زعلان مني ؟ »  
 « على العموم حاول ماتعملش كدة ثاني وإلا ... .. »  
 قالها وصمت دون أن يكمل جملة ، فسقطت عينا نبيل إلى سطح المائدة  
 وهو يغمغم :

« ماشي كلامك يا أبو سليم ! »  
 « إحنا كنا في إيه ؟ »  
 « كنت بتسألني إذا كانت مصر وحشتني ؟ »  
 « بس انت مارديتش على السؤال ! »  
 تردد نبيل قليلاً لكنه قال أخيراً :

« هي وحشتني ... بس مش على طول ! »  
 « مين اللي قال على طول ؟ »  
 « يعني إيه ؟ »

في كلمات واضحة محددة جاءت كلمات أبو سليم :  
 « مطلوب منك إنك تسافر مصر لمدة أسبوعين ! »  
 « وحاعمل إيه هناك ؟ »

« ولا حاجة خالص ! »  
 « آمال حاسافر ليه ؟ »  
 « تنفسح ... تاخذ إجازة بعد الشغل اللي انت عملته ! »  
 « إجازة ؟ »  
 « مش عاوز تشوف أهلك ... وتشوف سامية ؟ »  
 « سامية ؟ »

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه أدرك بوضوح أن « سامية » هي الهدف وهي  
 السر الكامن وراء هذا الطلب ، ولقد ساد الصمت بعد ذلك لثوانٍ قال بعدها أبو  
 سليم :

« قلت إيه ؟ »  
 « اللي تشوفه ! »  
 « الباسبور الثاني معاك ؟ »

أخرج نبيل جواز سفره المزور وناول له لأبي سليم .  
 « قدامك ٤٨ ساعة تحضر نفسك فيهم ! »  
 نظر نبيل إلى أبي سليم في توسل فسأله هذا :

« إيه مال لك ؟ »  
 « تفكر مفيش خطر من سفري ؟ »

أطلق أبو سليم ضحكة جلجلت في المكان وبددت سحب الغضب  
 المتجمعة .

« إنت لسه ما تعلمتش ؟ »  
 « أبو سليم ! »  
 « من يوم ما عرفتك ، فيه حاجة قلتها لك وطلعت غلط ؟ »  
 « لا ... الحقيقة لا ! »  
 « ثم ... إفترض أنهم سألوك في مصر ، حايسألوك على إيه ؟ »  
 فكر نبيل قليلاً ، لم يكن في حاجة إلى تفكير ، فاستطرد الرجل :

« إنت اللي قلت بعزيمة لسانك أول ما عرفت إنت حاشتغل إيه ؟! » .  
« وهم في مصر عاوزين إثبات علشان يمسوني ؟! » .  
« مفيش حد في مصر يعرف عنك حاجة غير إنك سمسار عرييات ! » .

هتف نبيل وكأنه يدافع عن نفسه :

« وهي دي الحقيقة !! » .

« طب ما تقول لنفسك ! » .

وهكذا انتهى الأمر ... وكان لا بد من الانصراف ، لكن أبو سليم استطرد :

« ما تنساش الهدايا ! » .

كانت الجملة مغموسة في حنان جعل نبيل يهتف :

« هدايا ؟! » .

مد الرجل يده في جيبه وأخرج مجموعة من أوراق النقد قدمها لنبيل وهو يقول :

« مش ممكن تدخل على بابا وماما بعد الغيبة دي كلها وإيدك فاضية ! » .

تناول نبيل النقود دهشاً ، فعاد أبو سليم مردفاً :

« وسامية ! » .

هز نبيل رأسه إيجاباً وكأنه يقول : « أنا عارف ! » ...

« المفروض إنك راجع منتصر ، ناجح ، وكسبان ، ومعاك فلوس ! » .

وكان في هذه الجملة فصل الخطاب ، فلقد نهض نبيل وصافح أبا سليم في حرارة ، وعقله يطير إلى مصر ، فقط ... كي يرى كيف يكون موقف الجميع منه ، إذا ما عاد منتصراً !

\* \* \*

## الفصل العشرون

### الزيارة !

كانت الساعة قد أشرفت على الثانية بعد الظهر وسامية تحكي بلا توقف ، كانت مثل رجل يغلي بما تراكم في جوفه من بخار ، حتى إذا ما وجد منفذاً ، انطلق البخار منه في اندفاع وقوة ... ولقد قالت لي سامية إن تلك ساعات كانت شاقة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، فمع إحساسها بالراحة الشديدة كلما حكّت وأوغلت فيما حدث ، وكأنها ترفع عن كاهلها عبثاً حملته طويلاً حتى قصم الظهر منها ، كان إحساسها بالعذاب يتضاعف ... فلقد كانت كل كلمة تنفوه بها ، تقربها من ذلك المجهول ، من ذلك الكابوس الذي حوّل حياتها إلى جحيم ، تقربها من حقيقة قاومت طويلاً ، وكأنها تريد أن تلوي ذراع القدر ، كي تهرب منها ... فهل كانت في ذلك الوقت تشعر بأن نبيل سالم خائن بالفعل ؟!

توقفت عن الحديث للحظات أرادت فيها أن تلتقط أنفاسها ، فضحك عادل مكّي قائلاً :

« الحمد لله على السلامة يا سامية ! » .

رفعت حاجبيها دهشة لذلك التعبير الذي وجدته غريباً ، فأردف عادل :

« أصلي استيتك كثير قوي ! » .

أدركت سامية مقصده ، فتساءلت فيما بينها وبين نفسها : إلى هذا الحد كانت غائبة وسط مخاوفها وأحزانها ؟!

تنهدت في حرارة وهي تغمغم :

« أصلي تعبت يا سيد عادل ! » .  
« وما كانش ممكن ترتاحي إلا إذا اتكلمتي وقلتي ووقفني قدام الحقيقة  
مهما كانت ! » .

كان فيما قال إحياء لم يخف عليها ، فقالت وهي تخفض البصر :  
« الغريبة إني كنت عارفه ده من الأول ! » .

قالت هذا ثم عادت تحكي من جديد ، كما راح عادل مكّي يستمع ويتذكر  
ويربط فيما بين الأحداث فإذا قطع الصورة المتناثرة تتجمع ، وإذا الحقائق تُسفرُ  
عن نفسها !!

\* \* \*

في خلال ثمانين وأربعين ساعة ، كان كل شيء جاهزاً كي يطير نبيل سالم  
إلى القاهرة . . . وفي صبيحة يوم السفر التقى به أبو سليم وكان يدعو عليه المرح  
والسعادة . . . لكن نبيل بادره فجأة :

« أنا عاوز أعرف يا أبو سليم إيه اللي مطلوب مني بالضبط ! » .  
رد أبو سليم على سؤاله في بساطة قائلًا :

« ولا حاجة . . . عاوزينك تتفصح وتشوف أهلك وحبايك ! » .

لزم نبيل الصمت مستغرقاً في التفكير وفي النظر إلى الرجل وقد استبدت به  
الحيرة . . . ذلك أنه - طوال اليومين اللذين انقضيا منذ لقائه الأخير مع أبي  
سليم - كان يضرب أخماساً في أسداس في محاولة لمعرفة الغرض الحقيقي من  
ذلك الذي طلبوه منه بالسفر إلى مصر . . . كان خائفاً متوتراً بالطبع ، لكنه  
بالرغم من خوفه هذا الذي يتزايد كلما اقترب موعد السفر ، وتوتره ذلك الذي  
كان يمزق أعصابه تمزيقاً . . . كان يعلم علم اليقين أنه سوف يسافر ما داموا قد  
طلبوا منه السفر حتى ولو أدى ذلك إلى ما لا تحمد عقباه . . . ولقد انتابه  
إحساس غامر بأنه مسوق إلى قدر لا فكاك منه ، فهو لا يستطيع أن يرفض أو  
يتمرد ، وعندما أمعن النظر في موقفه ، تأكد أنه قد أصبح مقيداً إلى عملة  
جهنمية كانت تدور به ماضية إلى حيث لا يدري . . . ولقد أجهد نفسه في

التفكير ، فلم يجد سبباً لسفره سوى « سامية فهمي » ! . . . فعماذا يريدون منه  
أن يفعل بها أو معها !!؟

كان نبيل يعرف أن الرجل كاذب في أنهم يريدون له إجازة لزيارة الأهل  
والأحباب ، وأنه يناور كي يصل به عبر الحوار - وكما هي عادته - إلى الهدف من  
وراء سفره . . . فمنذ البداية ، البداية التي تبدوله اليوم بعيدة بُعدَ قرون  
سحيقة ، كان يدهشه أشد الدهشة إصرار أبو سليم ، بل وإلحاحه ، كي يبقى  
على علاقته بسامية ، وألاً يقطع خيوط الود معها . . . منذ أن التقى به ذات مساء  
فيما ظنه مصادفة في إحدى حانات هامبورج بألمانيا الغربية - ثم وهو غارق لأذنيه  
في حب شيرلي هايمان ، وحتى بعد وصوله إلى إيطاليا ، وبصرف النظر عن  
علاقته بمارشيللا ، ولا شيء يعني هذا الرجل عن علاقاته مع الناس في مصر ،  
إلا علاقته بسامية فهمي . . . حدث هذا قبل أن يصارحه بالحقيقة ، وبعد أن  
صارحه أيضاً ! . . . ولذلك ، ولأنه كان متوتراً إلى حد الاختناق ، فلقد قرر  
- لضيق الوقت وحاجته إلى الأمور واضحة جلية - أن يختصر الطريق ، وأن يوفر  
على أبي سليم مناورته ، وأن يواجه الأمر مواجهة لا غموض فيها . . . فقال في  
محاولة للتخاطب :

« تفكر سامية ممكن تنفعنا في حاجة يا أبو سليم !؟ » .

ابتسم أبو سليم استخفافاً ، نظر إلى نبيل نظرة من يقول له : « إلعب  
غيرها ! » . . . ولكن سرعان ما تبدلت نظرته فكأنه فوجيء بالسؤال ، فتساءل  
بدوره :

« إنت رأيك إيه !؟ » .

« ما اعرفش . . . إنت اللي تقول ! » .

صمت أبو سليم لثوانٍ وكأنه يفكر في أمر طرأ عليه ، ثم قال :

« على العموم ما يضرش إنك تعرف إيه اللي جد في حياتها ! » .

نظر نبيل إليه نظرة مفعمة بالتساؤل فأردف الرجل :

« أنت عارف طبعاً إن الصحفيين يمعرفوا حاجات غير اللي بتنتشر في الجرائد ! » .

هم نبيل بالحديث فأضاف الرجل منذراً :

« من غير ما تسألها بشكل مباشر ، ولا تخليها تحس بأنك حتى عاوز تعرف حاجة ! » .

« ما تخافش علي ! » .

نهض أبو سليم سائراً في الغرفة وهو يهتف معترضاً :

« لا يا حبيبي أنا لازم أخاف عليك ! » .

قال هذا وهو يلتفت نحو نبيل وكأنه يتمعن رد فعل جمسته عليه ، وعندما اطمأن إلى أن سهمه قد أصاب من الشاب هدفه ، أضاف باسمًا :

« خصوصاً إن سامية بتحبك ، وعارفك كويس ! » .

« قلت لك ما تخافش علي ولا تنعاش هم المسألة دي ! » .

« طب إزاي ؟ ! » .

« لأن سامية حاتقول لي على كل حاجة من غير ما أسألها ! » .

قال نبيل هذا فساد الصمت وكأن في قوله فصل الخطاب ، لكن أبو سليم عاد يتشكك في مقدرة نبيل محذراً وموحياً في نفس الوقت :

« لما كنت بتغلط هنا ، أو في أي حته في الدنيا ، كنت باقدر أعمل لك

حاجة ... إنما في مصر ، مش حاقدر أعمل حاجة ... مش حايقى في أيدي إني أعمل حاجة ... خصوصاً أننا دلوقت ما نقدرش نستغنى عنك ! » .

ولقد عزفت الجملة الأخيرة على ذلك الوتر الحساس الذي يشعل الحماس في صدر نبيل ، فدافع عن منطقته بحرارة قائلاً :

« لاحظ إن سامية بتحبني وبتخطط من زمان إننا نتجوز ! » .

« طب وما له ! » .

« إيه ؟ ! » .

هكذا صرخ نبيل متسائلاً ، كان قد أدرك بعد ثوانٍ من الحوار أن الرجل قد تسلم مقود المناقشة وراح يوجهها كيف يشاء ويوجهه كيف يشاء ... لم يرد أبو سليم على صرخته فعاد يهتف :

« يعني أتجوزها يا أبو سليم ؟ ! » .

« أنا ما قلتش كده ! » .

« آمال قلت إيه ؟ ! » .

« قلت إن من حقها تفكر في الجواز ، لكن إنت من حقك إنك تأجل المسائل لحد ما تبني مستقبلك في بلد غريب ! » .

ساد الصمت بينهما وقد هدأ نبيل مستسلماً لهذا الرجل الذي كان يملك حلاً لكل مشكلة وتفسيراً لكل غموض ، ساد الصمت بينهما لكن عيونهما راحت تتحاور وكان كل منهما قد استغرق فيما كان يفكر فيه ... ولقد مرت لحظات ، ثم ، وكأن أبو سليم وجد الحل ، فلقد هتف :

« هي عندها عريية ؟ ! » .

« لا طبعاً ! » .

« مش يمكن تكون اشترت عريية في الستين اللي فاتوا ؟ ! » .

كانت الرسالة التي يريد أبو سليم أن يوصلها إليه ، تسفر عن نفسها تدريجياً ، فتعجل نبيل الأمر وهو يتساءل متقدماً نحوه :

« إنت بتفكر في إيه يا أبو سليم ؟ ! » .

« أنا ما بافكرش ، هي اللي لازم حاتفكر !! » .

« في إيه ؟ ! » .

تحوّل نبيل إلى كرة يتقاذفها الرجل في كل اتجاه .

« أصل مش معقول تبقى إنت بتشتغل في العرييات ، وبتساعد كل المصريين اللي بيلجأوا لك ، وتيجي لحد حبيبة القلب ولا تساعدناش ! » .

« سامية مش حاتطلب ده ! » .

« يبقى إنت تفتح لها الباب ، وتخليها تطلب ! » .



« سامية ما يهمهاش أن يبقى عندها عربية ! »  
« مين اللي قال ؟ ! »

جاءه السؤال هذه المرة حاسماً قاطعاً فلزم الصمت !

وعلى كل... فلقد كان في هذا الكفاية حتى يفهم نبيل كل شيء ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يقال ، أدرك في لحظة أن تخمينه قد أصاب ، فالغرض الرئيسي من سفره إلى مصر قد اتضح بما لا يقبل شكاً أو تأويلاً... ولقد قال نبيل فيما بعد ، إنه أحس بقلبه ينقض ، كان الذي يريدونه منه هو آخر ما كان يمكن أن يفكر فيه... فأطرق دون جواب ولزم الصمت ، حتى إذا تظاهر أبو سليم بأنه يستعد للإصراف ، قال :

« حد يعرف إنك مسافر ؟ ! »

« مفيش غير سنيور اسكالكو ومارشيل ! »

« قلت لهم أنت مسافر فين ؟ ! »

ضحك نبيل قائلاً :

« مش أنا اللي قلت ، اسكالكو هو اللي قال لي إن فيه صفقة عربيات في روما ، وطلب مني أروح أعاينها ، ولو كانت كويسة ممكن أتفق عليها ! »

« وبعدين ؟ ! »

« ولا قبلين... صرف لي بدل سفر لمدة عشرة أيام ، وقال لي إن الصفقة مهمة جداً ولازم آخذ وقتي في الدراسة ولا استعجلشي ، وإن لي نسبة محترمة لو الصفقة تمت بسعر كويس ! »

« وإنت قلت له إيه ؟ ! »

هتف نبيل ضيقاً بالأمر وقال :

« ما قلتش حاجة ، إنما فهمت ! »

« فهمت إيه ؟ ! »

كانت أسئلة الرجل الآن صارمة ، وكان وكأنه أستاذ وضع تلميذه في إمتحان

عسير ، أرتج على نبيل ووقع في الحيرة لكنه غمغم :

« فهمت إنه عارف إني مسافر وإن... »

قاطعة الرجل في حزم :

« تبقى ما فهمتش حاجة ! »

« إزاي ؟ ! »

« لأن فيه بالفعل صفقة عربيات في روما ! »

أدرك نبيل على الفور ما كان يقصد إليه الرجل فهاله ذكاؤه ووقف واجماً ، وعاد الرجل إلى الحديث :

« وبالفعل ، السنيور اسكالكو حاطط أمل كبير على الصفقة دي ! »

« طب وبعدين يا أبو سليم ؟ ! »

نظر إليه أبو سليم نظرة استفسار ، فتقدم منه نبيل موضحاً سؤاله :

« لما أرجع حاقول له إيه عن العربيات دي ؟ ! »

« لما ترجع حاتلقى الدراسة جاهزة وكل شيء تمام... ومش حايقى فاضل ، غير إنك تعالين العربيات في كام ساعة ، وترجع نابولي وفي إيدك العقد ! »

قال أبو سليم هذا وهو ينهض كي ينصرف وكأن هذا هو آخر ما أراده من نبيل ، كان الآن موقناً أشد ما يكون اليقين أن نبيل قد ارتبط به ارتباطاً لا ينفصم ، اقترب منه في حنان وهو يربت على كتفه متسائلاً :

« معاك فلوس كفاية ؟ ! »

« معايا ! »

في صوت مفعم بالتأثر قال :

« ما تتأخرش عن أسبوعين يا نبيل ، لاحظ إننا محتاجين لك هنا جداً ! »

وكانت تلك معزوفة أخرى على ذلك الوتر الذي يمس شغاف قلب نبيل

بشدة ، فامتلات نفسه بالرضا والحماس !

\* \* \*

قال لي عادل مكى إنه كان في انتظار نبيل سالم في مطار القاهرة الدولي في ذلك اليوم من أيام الشتاء المبكر لعام ١٩٦٨ ، وإنه رآه بعينه وهو يهبط من الطائرة وينفذ من الجوازات والجمارك دون أن يستطيع معه أو له شيئاً ... قال لي إنه كان موقناً في ذلك الوقت يقيناً مطلقاً ، أن نبيل خائن ، وأنه يعمل لحساب المخابرات الاسرائيلية ضد بلاده ... لكنه بالرغم من ذلك ، لم يكن يملك دليلاً واحداً يدينه ... وحتى ذلك اليوم ، لم يكن نبيل يقوم بعمل غير مشروع ، كان يعمل سمساراً للسيارات ، وكان أبو سليم يظهر في الصورة كسمسار للسيارات ، فإذا ما كان معه أحد ، قدمه إليه ، ثم انصرف دون أن يعلم عنه شيئاً ... كان حرص نبيل الشديد وتخطيط أبي سليم قد جعلاه المهمة شبه مستحيلة ...

وعندما سألته باسم : ألم يكن يستطيع القبض عليه دون حاجة إلى دليل ؟! ... أطلت من عينيه نظرة عتاب صارخ وكأنه يقول : « حتى إنت ؟! » ... لكنه بدا وكأنه يتلع عتابه وضيقه بالأمر كله ، ثم زفر زفرة حارة وهو يعتدل في جلسته مواجهاً إليّ :

« فيه فرق بين الاعتقال وبين القبض على مواطن على ذمة قضية ! » .

كان جوابه مباشراً ، كما كان أيضاً جواباً صارخاً ... ولست أنكر أنني أحسست بالخجل لسؤالي ذاك ، غير أنني بالرغم من هذا كابرت هاتفاً في حماس :

« إذا كان إنسان خطر بالشكل ده ، ليه ما تعتقلوش ؟! » .

« الاعتقال له أسباب ! » .

« والأسباب كانت جاهزة وموجودة ! » .

« بس مفيش تهم قانونية نقدمه بيها للمحاكمة ! » .

في تلك الأيام ... لم أكن قد فهمت الكثير مما كان لا بد أن يفهم ويُعرف ... لم أكن قد فهمت أنه في مثل هذا الحقل من النشاط الإنساني ، لا يصبح « شخص » نبيل سالم هو الهدف ، لكن الهدف كان أبعد وأخطر ،

وأهم ... لم أكن قد فهمت أن الهدف هنا هو « الشبكة » التي كان أبو سليم يديرها في أوروبا ببراعة ... وإذا كان نبيل قد قاد عادل إلى مركز نشاط أبي سليم الجديد ، فإن أبا سليم سوف يقوده إلى غيره من الأعوان والعملاء والرجال وربما إلى فروع أخرى للشبكة ، أو ، شبكات أخرى تعمل في مجالات مختلفة ... لم يكن نبيل إذن سوى فرد واحد في هذه المنظمة الشيطانية ... وكان القبض عليه أو اعتقاله ، محكوماً بظروف وحسابات شديدة التعقيد ، كما كان القبض عليه في ذلك الوقت بالذات ، كفيل بأن يوقف نشاط الشبكة لفترة قد تتغير فيها الوجوه والأساليب فيسود الظلام مرة أخرى ويصبح على عادل مكى أن يبذل نفس الجهد من جديد ... ويبدو أن سؤالي قد أثار كوامن عديدة في صدر الرجل ، فلقد عاد إلى الحديث مرة أخرى :

« وافرض إننا اعتقلناه ، حانعتله قد إيه ؟! » .

حاولت الاعتذار لكنه أردف :

« ثم إن المفروض إنك لما تقبض على مواطن بأي تهمة ، إنك تقدمه للقضاء ! » .

لزمت الصمت تماماً ورحت استمع :

« تهمة التجسس لحساب دولة معادية تهمة مش سهلة ، ومش صغيرة ، وعار من الصعب أننا نمحيه مهما عملنا ... وأضرارها - على المستوى الاجتماعي - مش حاتصيب الشخص لوحده ، لكن ممكن - ويمكن بالتأكيد - حاتصيب ناس مالهمش أي ذنب ! » .

أشعل عادل سيجارة نفث دخانها في عنف وهو يستطرد :

« فيه هناك أبوه ، وأمه ، وأخواته ، وأصحابه ، وجيرانه ، وزمائله ، وقراييه ... وفي حالة نبيل سالم ، عندك فكرة أبوه ، الراجل الطيب المسالم الوطني ده لما عرف إن ابنه بيتخابر مع دولة أجنبية للإضرار بمصالح الوطن ، جرى له إيه ؟! » .

كان صوته الآن مفعماً بالإنفعال ، دق فوق المائدة التي تتوسطنا بإصبعه وهو يقول :

« علمشان كده لازم يبقى فيه دليل ، ودليل قاطع ودامغ وما يقبلش المناقشة . . . وأهمية الدليل ده ، مش في إقناع القاضي بس ، بل أهميته إن أي متهم يواجه باللي عمله في لحظة هو مش متظرها ، بيعترف على طول . . . لأنه بيحس إنه كان عايش في أكذوبة ! » .

كانت مرارة الحديث قد بلغت ذروتها عندما قال عادل :

« يا إما كده ، يا إما حياة الناس تبقى مباحة !! » .

ثم ، وكأنه يختم حديثه أردف :

« وفي حالة نبيل سالم ، كنا حانقدهم للقضاء بتهمة إيه ومفيش دليل واحد يدينه ! » .

... ..

... ..

عندما خطا إلى مبنى المطار لم يتلفت حوله ولم يأت تصرفاً واحداً ينبئ عن ذلك القلق الذي كان ينخر عظامه . . . بدا نبيل سالم في تلك الليلة وهو يخطو إلى مبنى المطار خطوات طبيعية ثابتة ، مدرباً تماماً . . . واعياً لما يجب عليه أن يفعل والأ يفعل . . . غير أنه ، على الوجه الآخر ، بدا له كل شيء في المطار طبيعياً إلى أقصى درجة . . . فازدادت ثقته في نفسه ، واندفع ينهي إجراءات خروجه !

وهكذا . . . ومنذ اللحظات الأولى لوصول نبيل سالم إلى مطار القاهرة الدولي ، والذي كان يسوده في تلك الأيام ، كما يسود القاهرة ، الظلام نسبياً . . . أحس هذا الشاب أن أبا سليم - مرة أخرى - كان على حق في كل ما قال . . . بل إن نظراته الأولى إلى المدينة التي تركها مشتتة بالأضواء متفجرة بالحياة والنشاط ، أصابته بما يشبه الانقباض . . . كان آتياً من بلاد تشتعل مدنها بالحياة والحركة ليل نهار ، كما كان قد غادر القاهرة وهي في ذروة تألقها

وانبعاث الحياة فيها ومنها . . . وهو ، عندما سمع ما سمع عن الحرب والهزيمة ، لم يتصور ، ولم يخطر بباله أنه سوف يرى ما رآه أمام عينيه منذ لحظة هبوطه من الطائرة . . . غير أنه ، ومع مرور الوقت ، تحول انقباضه هذا إلى ما يشبه الاسترخاف . . . كانت الطائرة قد وصلت قبل منتصف الليل بقليل .

... ..

... ..

في تلك الليلة نفسها ، وما كادت طائرة نبيل تقلع من مطار روما ، حتى بُثَّتْ برقية عاجلة إلى القاهرة . . . وفي حقيقة الأمر - هكذا اعترف لي عادل مكّي - فإن أبا سليم كان موفقاً إلى حد كبير في إخفاء سفر نبيل . . . لا لشكه في أن نبيلاً كان مراقباً ، بل زيادة في الحيلة لا أكثر ولا أقل !

ذلك أن نبيل سالم لم يغادر نابولي طوال اليومين اللذين سبقا سفره إلى مصر . . . بل إنه راح يمارس حياته ، سواء بالنسبة للجراج ، أو مع مارشيل ، أو في سعيه في أماكن تجمع المصريين ، بشكل طبيعي تماماً ولا يوحى بأي شيء . . . لم يغادر نبيل نابولي إلا قبيل إقلاع الطائرة بساعات قليلة ، حيث ركب القطار المتجه إلى روما - وكان هذا أمراً طبيعياً للغاية ولا يلفت النظر ، فلقد تعود نبيل بين الحين والآخر ، حسب توجيهات أبو سليم ، أن يسافر إلى روما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ، وفي العطلة كان يتعرف على معالم المدينة ، كما كان يتعرف على أماكن تجمعات المصريين أو العرب . . . كان سفره إلى روما إذن مسألة لا تلفت النظر ، لكنه هذه المرة ، عندما وصل إلى محطة سكة حديد روما بكل اتساعها وضوضائها وزحامها ، لم يستقل سيارة أجرة إلى حيث البنيون الذي تعود النزول فيه ، بل استقل السيارة من المحطة ، إلى المطار مباشرة !

ولم يكن هذا هو الخطأ الذي وقع فيه أبو سليم - وبالتالي نبيل سالم ! - ذلك الذي نبه عادل مكّي - وهو في القاهرة - إلى أن نبيل سالم في الطريق إلى مصر !!

كان كل شيء مدبراً ومحكماً ولا يلفت النظر ، لولا أن الرجال - في نابولي - لاحظوا ، خلال اليومين اللذين سبقا السفر أن نبيل راح يشتري مجموعة من الهدايا الغريبة ، كان - مثلاً - يشتري ملابس تليق برجل في الخامسة والخمسين وسيدة في الخمسين . . . ولقد لوحظ أنه كان حريصاً على شراء تلك الأشياء بسرعة وعجلة شأن من كان يقوم بواجب ثقيل . . . ولعب الفأر في عب الرجال الذين كانوا يعرفون كل علاقاته ، بل كل شيء عنه . . . حتى إذا غادر بيته حاملاً حقيبة ملابس أكبر قليلاً من تلك التي كان يحملها عادة في زيارته لروما . . . تكاثرت علامات الاستهزام ، وما أن تحرك القطار من محطة نابولي ، حتى أجريت مكالمات سريعة ، من نفس محطة السكة الحديد ، إلى مكان ما في روما . . . ولذلك ، فإن نبيل لم يلحظ أن هناك من كان في استقباله في محطة سكة حديد روما ، ومن تبعه منها ، ولازمه في المطار حتى صعد إلى الطائرة المقلعة إلى القاهرة . . . وما كادت تلك الطائرة تحلق في الجو ، حتى بُثَّت تلك البرقية التي وصلت إلى عادل مكّي قبل وصول الطائرة بساعة واحدة . . . وكان عادل في ذلك الوقت يستعد لدخول فراشه عندما دق جرس التليفون في بيته ، رفع السماعة ووضعها فوق أذنه ، استمع إلى محدث في انتباه ، ولم تطل المكالمات لأكثر من خمس عشر ثانية ، بدل بعدها ملابسه ، وغادر البيت إلى المطار مباشرة !

وهناك ، كان رجاله قد سبقوه ، وكانوا جميعاً ، في استقبال نبيل سالم !!!

\* \* \*

عندما قدم نبيل جواز سفره إلى ضابط الجوازات ، قلب هذا في الصفحات قليلاً ، ثم وضع خاتم الوصول فوق إحدى صفحات الجواز ، ثم أعاده إلى نبيل في تكاسل وهو يغتم :

« الحمد لله على السلامة يا سيد نبيل ! » .

وكان تفتيش الحقيبة في الجمارك روتينياً ، قلب رجل الجمارك محتويات الحقيبة وهو يتشاءب ، ثم لوح بذراعه لنبيل طالباً منه الانصراف إلى حال سبيله .

خرج هذا إلى ساحة المطار فإذا الظلام يسود الدنيا ، تكالب عليه ثلاثة من سائقي سيارات الأجرة ، فاختر أحدهم وألقى بنفسه في السيارة وهو يتنفس الصعداء . . . عندما غادر السيارة أمام باب البيت ، تلفت حوله ، وكان الشارع خالياً تماماً من المارة ، والمحلات قد أغلقت أبوابها . . . رفع رأسه إلى أعلا نحو نوافذ البيت . . . وكان كل شيء غارق في الظلام !

في التفاتة طبيعية ، تبدو وكأنها غير مقصودة بالمرة ، ألقى نبيل ببصره إلى حيث ناصية الشارع وما وراءها . . . ولم يلحظ شيئاً غريباً ، بل كان كل شيء هاجعاً في سكون الليل ، وكأن أحداً لا يشعر به !

\* \* \*

حتى مطلع النهار لم ينم نبيل . . . كانت فرحة والديه به لا توصف ، كما كانت المفاجأة وراء كل تصورهما . . . أغرقه ترحابهما وحنانهما في بحر من الدهشة ، وكان تلك الخلافات والتوترات التي كانت سمة العلاقة بينه وبين أبيه لم تكن . . . بل المذهل في الأمر ، أن الرجل بدا سعيداً بعودة ولده سعادة لا توصف ، وفقد سيطرته على نفسه إلى الحد الذي دفعه لأن يعد لولده كوب شاي بيديه تعبيراً عن فرحته . . . وعندما فتح نبيل حقيبته كي يقدم لكل منهما هداياه ، كان هو أول من اكتشف أنه بالغ إلى حد كبير ، ليس في انتقاء الهدايا فقط ، بل في كميتها وتنوعها . . . وعندما قدم لوالده تلك البذلة الفاخرة التي اشتراها له ، قال الرجل بصوت مرتجف :

« بذلة إيه يا بني . . . رجوعك بالسلامة هو هديتك لي ! » .

هتف نبيل :

« رجوعي إيه يا بابا . . . دانا جاي في أجازة ! » .

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه لن ينسى حتى آخر لحظة في عمره ، ذلك التعبير الصارخ بخيبة الأمل الذي اجتاحت ملامح أبيه اجتياحاً ، بدا الرجل مغلوباً على أمره وهو يردد :

« أجازة ؟ ! . . . حاسافر ثاني يا نبيل ؟ ! » .

لم يكن نبيل قد تعود من أبيه مثل هذا الحب وهذا الحنان أو الاهتمام ، فراح يستحلب طعم النجاح والانتصار في نشوة عارمة ، وأخذ يرقب انبهار أبيه وأمه بما جلبه لهما من هدايا ، بينما كانت أمه تغمر وجهه بالقبلات بين الحين والحين ودموعها لا تكف . . . . . جلس بينهما وراح يقص عليهما قصة « كفاحه » في ألمانيا ثم في إيطاليا ، وكانا يستمعان إليه بكل جوارحهما وقد شُدتْ إليه عيونهما شداً . . . . . ذات لحظة سأل نبيل أباه متحسناً طريقه :

« وإنتو أخبركم هنا إيه يا بابا ؟ ! » .

« قاعدين مستنيينك ! » .

هوت الجملة فوق رأسه كمطرقة ، حاول الخروج من المازق الذي أوقعه فيه أبوه ، فصاح مستطرداً :

« أنا مش قصدي أنتم ، أنا قصدي البلد ! » .

« طبعاً سمعت اللي حصل ! » .

« أنا مش سمعته بس ، وأنا شفته في التلفزيون ! » .

نهض الأب لبعض شأنه وكأنه لا يريد الخوض في الموضوع وهو يردد :

« ربنا يلطف بينا . . . ربنا يلطف بينا !! » .

ولم يخض نبيل في الحديث لأبعد من هذا ، كانت هذه تعليمات أبو سليم ، أن يظل على شاطئ المناقشة مهما كان الأمر حتى لا يلفت النظر إلى شيء . . . وما هي إلا ساعة وبعض الساعة حتى نهض إلى فراشه الذي أعدته له أمه على عجل ، قال : إنه متعب من الرحلة ، وفي حاجة إلى الراحة !!

... ..  
... ..

في الصباح ، كانت الساعة تشير إلى الثامنة عندما دخلت عليه أمه بكوب الشاي والتليفون معاً . . . كان قد طلب منها أن توقفه مبكراً حتى يستطيع الاتصال بسامية قبل ذهابها إلى المجلة ، وضعت كوب الشاي إلى جواره ثم انسحبت في اللحظة نفسها التي رفع فيها سماعة التليفون يدير القرص ، في

لحظة . . . أحس بالشوق يجتاحه اجتياحاً إلى الماضي ، ما أن انتهى من إدارة الرقم حتى جاءه صوت الجرس من الطرف الآخر ، ثم انقطع الرنين كي يأتيه صوتها عبر الأسلاك صاحياً نشطاً كعادتها :

« آلو . . . » .

« صباح الخير ! » .

« صباح الخير يا فندم . . مين ؟ ! » .

« نسيتي صوتي ؟ ! » .

مرت ثواني قبل أن تخترق أذنه صرختها وهي تحمل فرح الدنيا بأسرها :

« مين ؟ ! . . . نبيل ؟ ! » .

« إزايك يا سامية ! » .

« بتكلم منين ؟ ! » .

« من البيت ! » .

اختنق صوتها لهفة وجباً .

« جيت إمتى ؟ ! » .

« إمبارح بالليل ! » .

« وقاعد عندك تعمل إيه ؟ ! . . . يا الله تعال . . . تعال يا نبيل إنت وحشتني قوي ! » .

... ..  
... ..

أحس نبيل وهو يعيد السماعة إلى مكانها أن قلبه يكاد يقفز من حلقه مغادراً صدره إلى حيث سامية فتساءل في دهشة إن كان لا يزال يحبها . . . أصابه الاضطراب حتى عافت نفسه كوب الشاي فنهض من فراشه كي يستعد للقاءها . . . . . ولقد كان اللقاء غريباً ، كان بعيداً كل البعد عن أحلام سامية وعما تصوره هو . . . عندما وصلت سيارة الأجرة التي كان يستقلها إلى ناصية الشارع ، وجدها تقف هناك في انتظاره وهي تتقافز في وقفاتها وكأنها

## تَمَّ الْجَزْءُ الثَّانِي يَلِيَّهُ الْجَزْءُ الثَّالِثُ

hazim\_jalal@yahoo.com

تتجمل الدقائق والثواني ، هبط من السيارة فاندفعت نحوه وكادت ترتمي بين ذراعيه لولا جهداً عظيماً بذلته كي تحفظ لنفسها توازنها فراحا يتصافحان في حرارة وكان يدها قد التصقت بيده لا تبغي لها فراقاً . . . وعندما تذكرت سامية تلك اللحظات بعد شهور طويلة ، أدركت حقيقة هامة . . . أدركت أن الفرح الشديد ، أو الحزن البالغ ، من الممكن أن يلهيا الإنسان عن حقائق لا يجب أن يغفلها أو ينتهي عنها . . . فمنذ اللحظة الأولى - هكذا قالت سامية فهمي - أدركت بشكل غامض أن نبيلاً هذا الذي تصافحه ليس هو نبيل الذي عرفته وأحبته وانتظرته وتعذبت من أجله كثيراً . . . غير أنها في محاولة للدفاع عن حبها ، أدركت في لحظة أخرى أن عامين كاملين قد انقضيا منذ أن التقت به آخر مرة . . . ولا بد أن التجربة والمحن والسفر والغربة قد علّمتها الكثير ، وغيّرت من طباعه الكثير . . . ولقد كانت موقنة يقيناً كاملاً أن الجوهر الذي اكتشفته فيه ذات مرة وارتبطت به ، لا زال بالقطع موجوداً وقائماً . . . جرفها الحماس والأمل وهي تدلف إلى السيارة من جديد ، ولقد هتفت بالسائق طالبة منه التوجه إلى هذا الكازينو المتواضع على شاطئ النيل ، والذي شهد الأيام الأولى لجهما ، والذي تعودا اللقاء فيه كلما أرادا أن يلتقيا بعيداً عن الناس ، ما كادت تنطق باسم الكازينو حتى هتف نبيل :

« كازينو الجوهرة إيه يا سامية . . إطلع يا اسطى على سميراميس ! » .

والتفت نحوه سامية وراحت تحملق فيه ، ازداد إحساسها الغريب بأن نبيلاً هذا الذي يجلس إلى جوارها بعد غيبة دامت عامين ، ليس هو نبيل الذي غادرها كي يبني مستقبله . . .

لكنها لم تكن تعلم ، أن هذا الذي لفت نظرها ، وآلمها ، لم يكن سوى بداية سوف تجر وراءها ما لم يخطر على بال !

\* \* \*